هرمان هسه

تحت العجلة

روايات

٢

ترجمة نامق كامل

روايات

روايات

سلسلة كتب تصدر عن

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشتراك:

٦٠ دولار في البلدان العربية

١٠٠ دولار في اوروبا والامريكيتين

العنوان

سوريا - دمشق صندوق بريد: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

روايات

٢

هرمان هسه

تحت العجلة

ترجمة نامق كامل

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠١

"Die Herausgabe dieses Werkes wurde aus
Mitteln des Goethe- Instituts Inter Nationes,
Bonn, gefordert"

هرمان هسه

يُعد هرمان هسه أحد أبرز ممثلي الأدب البرجوازي في القرن العشرين ، حيث ترك بصمات واضحة على الأعمال الرومانتيكية والكلاسيكية الألمانية المعاصرة ، ووقف ضد انحطاط الثقافة وانعدام التقاليد في الحقبة الأدبية المتأخرة في عصر البروجوازية .

وللوقوف على أهمية هذا الكاتب الذي عاصر حربين عالميتين وعاش أحداثهما ومأساتيهما المروعتين ، لا بد من ذكر شيء عن سيرة حياته ولو بشكل موجز يوضح أبرز المنعطفات الثقافية والاجتماعية المهمة التي مرّ بها .

ولد هرمان هسه في الثاني من يوليو عام ١٨٧٧ بمدينة كالف التابعة لمقاطعة فرتمبرغ لأب بروتستانتي متدين . أمضى فترة صباه في كالف ، وهي مدينة صغيرة في جنوب ألمانيا . أمضى السنتين ١٨٨١ و١٨٨٢ في مدينة بازل السويسرية ، دخل المدرسة اللاتينية عام ١٨٩٠ في كوينغن بسويسرا ، وأنهى الامتحان الإقليمي للمقاطعة الخاص باختيار الطلبة للدخول إلى الدير عام ١٨٩١ ، ثم فصل من الدير بسبب هروبه من حلقة ماولبرون الدراسية ١٨٩٢ ، وفي نفس العام أصبح طالباً في مدرسة اللغات في مدينة كانشتات ، لتأتي بعد ذلك سنوات التنقل : عمل عند صاحب مكتبة في مدينة اسلنكن ، ثم مساعداً لأبيه في

مؤسسة كالفر للنشر ، ثم ميكانيكياً في ورشة تصليح ساعات الأبراج في كالف ، وفي عام ١٨٩٥ عمل متدرباً لدى صاحب مكتبة في مدينة توبنغن ، ثم بائع كتب قديمة في بازل عام ١٨٩٩ ؛ أثناء هذا الوقت عاش هسه أحداث روايته المأساوية المؤثرة « تحت العجلة » التي صوّر فيها شخصية البطل شاباً مفرط الحساسية إزاء سلطة المحافظين وأساليب التربية في بيئة برجوازية متزمتة ، حيث تعرض للانهيار إثر اصطدامه بها .

عاش هسه بعد نجاحاته الأدبية الأولى بدءاً من عام ١٩٠٣ ككاتب متفرغ في كاينهوفن (بودن زيه) ، شارك في الاعوام من ١٩٠٧ إلى ١٩١٢ في إصدار مجلة « مارس » . قام برحلة إلى الهند بعد أن ضاقت نفسه بالحضارة الأوروبية البرجوازية وإيديولوجياتها للتعرف على عالم الشرق الأقصى فأثمرت هذه الرحلة عن رواية « سد هارتا » . عام ١٩١٢ انتقل إلى مدينة استرموندنكن بالقرب من العاصمة السويسرية برن ، لكي يبدأ من هناك سلسلة رحلات إلى أوروبا . اعتنق هسه مبدأ المسالمة « الباسيفيكية » الذي يدعو إلى الحفاظ على السلم بأي شكل من الأشكال . أدان الحرب ورفض أداء الخدمة العسكرية ، ولخّص أفكاره هذه في مقالته الشهيرة المعنونة « أوه ، أيها الأصدقاء لا لهذه الأصوات » التي نشرت في صحيفة « نويه تسوريشر تسايتونغ » عام ١٩١٤ متخذاً فيها موقفاً مناهضاً « لجنون الحرب الدموي » ، واتّهم من قبل السلطة بالخائن وعدو الوطن . تطوّع أثناء الحرب العالمية الأولى كمساعد في الصليب الأحمر ، ورعاية شؤون المعتقلين الألمان . وفي عامي ١٩١٦ و١٩١٧ ساهم في إصدار صحيفة « الأسرى الألمان » وفي الأعوام ١٩١٦ - ١٩١٨ في صحيفة « رسول الأحد لأسرى الحرب الألمان » كما شارك في إنشاء « مكتبة أسرى الحرب » .

عام ١٩١٩ انتقل هسه إلى مونتاكنولا في مقاطعة لوكانو ، وعاش فيها كمواطن سويسري منذ عام ١٩٢٣ وحتى وفاته في التاسع من أغسطس عام ١٩٦٢ . خلال الأعوام ١٩١٩ - ١٩٢٢ شارك في إصدار

مجلة « فيـفوس فـوكو » ، أثناء فـترة الحكم النازي اعتـبرته السلطات النازية « شخصاً غير مرغوب فيه » و« من المغضوب عليهم » ؛ بعد عام ١٩٤٥ وقف هسـه مـرة أخـرى إلى جـانـب صـوت السـلام والأمن في العالم . نال عام ١٩٤٦ جائزة نوبل للآداب ، إلى جانب جوائز عديدة أخرى مثل حقل الفلاحين ١٩٠٤ ، جائزة فونتانه ١٩١٩ ، جائزة غوته لمدينة فرنكفورتر على نهر الماين عام ١٩٤٦ .

يقـول هرمـان هسـه عن روايتـه « تحت العـجلة » وهي نتـاجه البكر خلال سنوات نشأته الأدبية المحتدمة : « في تاريخ تطوّر وشخصية الفتى هانز جـيـبنرات . . لعـبتُ إلى حـد مـا دور المُديـن والمنتـقـد لكل تلك السلطات التي هزمت جيبنرات والتي كادت أن تهزمني شـخصياً ذات مرة : المدرسة ، الدين ، التقاليد والسلطة » . إذن ، هنا يكمن الإشكال الذي تعامل معه هسه طيلة حياته : البحث عن القدرات البشـرية وجوهر الفن في حقبة برجوازية معادية لها . أما توماس مان الذي كانت تربطه علاقـات وثيقـة مع هسه وقـرأ جميع أعـمـاله الأدبيـة فإنه قـال عن هذه الرواية : « إن هذه الرواية الخجولة ، الجريئـة ، الحـالمة والذكـيـة في آن مليئـة بالموروثات والعلاقات الحميمة والذكريات والخصوصيات ، إنها تخلو من كل تقليـد . إنهـا ترتـقي بالحـزن إلى مـسـتوى فكري ، ثوري جديد ؛ فكري ليس بالمعنى السياسي الاجتماعي المباشـر ، وإنما بالمعنى الروحي والشعري . إن أسلوباً حقيقياً صادقاً يعني رؤيا مستقبلية وتنبؤاً مستقبلياً » .

المترجم

المقدمة
ذكريات من دير ماولبرون

لغرض توضيح رؤية هرمان هسه في رواية «تحت العجلة» أودّ هنا أن أورد الفقرة التي دونها في كتاب مذكراته «صور من الذكريات» تحت باب «ذكريات من دير ماولبرون»، الدير الذي تنطلق منه الشخصية المركزية في الرواية «هانز جيبنرات» حيث تنمو وتعيش تحولاتها وصراعها الدراماتيكي العنيف مع ذاتها ومحيطها الاجتماعي الذي ترفضه وتتمرد عليه.

ن. ك.

«في دير ماولبرون، الذي ضمَّ بين جدرانه منذ أكثر من قرن ونصف تقريباً فتيان منطقة شفابن المؤمل تخريجهم رهباناً في علوم اللاهوت البروتستانتي، وتعليمهم اللغة اللاتينية والعبرية، وتدريسهم الكتاب المقدس بلغته اليونانية، كانت هناك حجرات دراسية للمذاكرة تحمل أسماء إنسانية جميلة مهمة مثل: فوروم، أثينا، أسبارطة. وإحدى هذه الحجرات كان اسمها هيلاس. في هذه الحجرة بالذات كانت توجد حوالي دزينة من طاولات المذاكرة مرصوفة إلى جدارين حيث ينجز التلامذة عليها واجباتهم المدرسية وكتابة مواضيع الإنشاء أو وضع كتب المعاجم وقواعد اللغة عليها وتعليق صور عائلاتهم، وكانت تحفظ

أيضاً تحت الطاولة ، إلى جانب الدفاتر المدرسية رسائل الأصدقاء والأهل ، والكتب المحببة ، ومجموعة من قناني المياه المعدنية وهدايا الطعام التي كانت الأمهات يرسلنها مع الغسيل ، إضافة للخبز الجاف والمربى والسجق وقناني العسل أو قطعة من اللحم المقدد .

وسط امتداد الحائط تقريباً ، وتحت تخطيط مؤطر لشكل نسائي كلاسيكي مثالي التعبير ، حيث يمثل رمزاً لحجرة هيلاس ، كان يقف أو يجلس صبي اسمه الفريد (كان ذلك عام ١٩١٠) ، وهو ابن لمدرس من منطقة الغابة السوداء لا يزيد عمره عن خمسة عشر عاماً .

كان الفريد يكتب الشعر سراً ، وأصبح معروفاً بموهبته في كتابة المواضيع الإنشائية باللغة الألمانية ؛ كانت مواضيعه تقرأ من قبل مدرس الفصل باعتبارها أنموذجاً لمواضيع الإنشاء الجيدة . وكان الفريد مثل بقية الشعراء الشباب يضفي على نفسه انفعالاً وعادات خاصة به ، منها ما هو جيد ومنها ما هو رديء ؛ فعلى سبيل المثال كان آخر من ينتزع من سريره عند الاستيقاظ من النوم صباحاً . رياضته الوحيدة هي القراءة . وعند حدوث بعض المشاحنات والمشاجرات كان يقابلها أحياناً بسخرية تامة ، أو يتخذ منها موقف الصامت المتهكم .

من بين الكتب الأثيرة لديه رواية « تحت العجلة » التي لم تكن ممنوعة منعاً تاماً من قبل رهبان الدير المسؤولين . إلا أنها لم تكن محببة لديهم . عَلِمَ الفريد بأن مؤلف هذه الرواية كان قبل حوالي عشرين سنة تلميذاً في ماولبرون ونزيلاً في حجرته هيلاس . قرأ الفريد أشعار هذا المؤلف وتغنى بها سراً ، وأحبّ لو استطاع اقتفاء أثرها طامحاً أن يصبح كاتباً وشاعراً معروفاً . . لم يمض مؤلف « تحت العجلة » فترة طويلة في حجرة هيلاس أو في الدير بل هرب ، وتطلب الأمر فيما بعد أن يجتاز سنوات صعبة طويلة قبل أن ينال بغيته ويصبح شاعراً متفرغاً . ولو تسنى لألفريد الهرب هو الآخر إلى المجهول لربما حلّ ذلك اليوم الذي سيهدي فيه أشعاره ورواياته إلى العالم ، لينتقم بها من أولئك الذين استهانوا به انتقاماً نبيلاً . لكنه لم يفعل ، بل ظلّ تلميذاً يدرس

اللاهوت « يسبح بحمد الله » وربما كان سبب ذلك تردده أو مراعاة لمشاعر والديه .

بعد ظهيرة أحد الأيام ، وأثناء فترة «المذاكرة» رفع الشاب الفريد غطاء طاولة عمله ، مفتشاً في درجها الذي يخفي في داخله إلى جانب قناني العسل التي تأتيه من البيت ، كتبه ومسوداته الشعرية أيضاً ، ثم بدأ يتفحص بشعور حالم أسماء الذين استخدموا طاولته من قبل والتي كتبت بقلم الرصاص أو الحبر أو محفورة بمطواة جيب فوجد أن هناك أسماء عديدة تبدأ بالحرف «هـ» بسبب أن تسلسل مقاعد التلاميذ في جميع حجرات المذاكرة كانت موزعة حسب الحروف الأبجدية ، والطاولات الوسطى منها كان يحتلها طيلة عقد من الزمن ، التلاميذ الذين تبدأ أسماؤهم بالحرف «هـ» . وكان من ضمنهم التلميذ الوفي اوتو هارتمان وفلهلم هيكر الذي يشغل الآن منصب بروفيسور في اللغة اليونانية والتاريخ في الدير . ثم حدّق فجأة بنظرات قلقة في الكتابات القديمة المضطربة : هنا كتابة لم تمح بعد بالحبر داخل خشب غطاء الطاولة الأبيض كتبت بشكل مرتبك لاسم يعرفه تمام المعرفة ويكن له كل التقدير يبدأ بالحرف «هـ» لذلك الشاعر الذي يعتبره مثالاً يحتذى به . إذن ، هنا وبالضبط على هذه الطاولة التي يحتلها الآن الفريد كان الرجل القدير ذات يوم قد قرأ أشعاره المحببة ، وكتب محاولاته الشعرية الأولى .

وعلى هذه الطاولة كان يضع معجمه اللاتيني الذي يضم أسماء هوميروس وليفيوس . وهنا انكبّ يفكّر ويضع الخطط المستقبلية ، ومن هنا انطلق ذات يوم إلى نزهة عاد منها في اليوم التالي أسيراً أمسك به صيّاد ريفي أثناء نزهته تلك خارج الدير كما تقول الرواية! أليس ذلك مدهشاً ؟ كأنه تنبؤ أو إشارة قدرية تعني : أنك ستكون شاعراً ، متفرداً ، قديراً ومتمرساً ويشير إليك الجميع ، ستصبح نجمة شباب المستقبل وقدوتهم .

لم يكد الفريد يفرغ من زمن المذاكرة حتى قرع الجرس ، وسرعان

ما ملأت الحركة والضوضاء حجرة هيلاس الهادئة وتعالت الصرخات والضحكات وأصوات فتح وغلق أغطية المناضد . بنفاد صبر لوّح الشاب الفريد لزميله وجاره في طاولة المذاكرة الذي قلّما كان يخبره بشيء ، ولما لم يأت في الحال صرخ به متوتراً : «أنت ، تعال لأريك شيئاً» . اقترب الآخر بهدوء وأطلعه مسحوراً على نقش اسم الرجل الذي اكتشفه والذي كان يقيم هنا قبل عشرين عاماً ، واكتسب في دير ماولبرون شهرة واسعة لا تنازع .

لم يكن ذلك الزميل شاعراً ولا حالماً ، غير أنه قد تعوّد على خيالات الفريد . تأمل هذا الزميل الحروف التي أشار إليها الفريد بسبابته ثم حوّل نظره عنها وقال بأسلوب ساخر : «آه ، لقد كتبت الاسم بنفسك» . أشاح الفريد بوجهه غاضباً من خيبة أمله هذه وتمنى لو احتفظ بهذا السر لنفسه فقط ، ولم يطلع عليه هذا الزميل التعيس . لم يستوعب الأمر فانسحب وانزوى . استمر الغضب وخيبة الأمل فترة طويلة يحزان في قلب الفريد .

لم نعرف الكثير عن نشاطات ومعاناة الفريد في ماولبرون ، أما كتاباته لمواضيع الإنشاء وأشعاره فإنها لم تستمر طويلاً ، غير أننا علمنا عن سيرة حياته اللاحقة بتفصيل شديد : اجتاز السنتين الدراسيتين ، لكن الحظ لم يحالفه في اجتياز امتحان القبول في معهد توبنغن . درس اللاهوت رغماً عنه وإرضاءً لوالدته ، عمل مجنداً أثناء الحرب العالمية الأولى . عاد من الحرب بعد حصوله على رتبة عريف ، ثم لم يظهر بعد أثناء إقامة القداس في الكنيسة ، واتجه إلى الأعمال التجارية ، لم يشارك في الهستريا الكبيرة عام ١٩٣٣ ، واتخذ موقفاً معادياً من السلطة الهتلرية . اعتقل ، وربما عومل بشكل مهين ، وأصيب بعد إطلاق سراحه بانهيار عصبي أدى به إلى مستشفى المجانين ، ومن هناك لم يعد أقرباؤه يعلمون عنه شيئاً إلا حينما استلموا شهادة وفاته عام ١٩٣٩ . لم يكن أي من حلقته الدراسية ولا من اخوية توبنغن على علاقة معه – لكنه لم يُنْسَ .

بطريق الصدفة المحضة علم زميل دراسته آنذاك في ماولبرون وجاره في طاولة المذاكرة في حجرة هيلاس قصة حياته المأساوية ونهايته المفجعة . ولما كان شاعر الفريد الأثير ومثاله ، مؤلف «تحت العجلة» لم يزل حياً ، ومن الممكن الاتصال به ، بادر هذا الزميل بدافع فعل الخير ولكي يحيي بشكل من الأشكال ذكرى الفريد المنكوب وحبه لذلك الشاعر فكتب إلى هـ . هـ (أي هرمان هسه) الذي كان أيام الفريد أحد أسلاف حجرة هيلاس ، رسالة مطولة تتضمن قصة حياة الفريد ، وقد أفلح في رسالته هذه أن يثير انتباه الرجل (هـ . هـ .) ، بحيث أن المعلومات التي وردت فيها عن التلميذ الفريد جعلته يعيشها لفترة من الزمن ودفعته لكتابة هذا التقرير . ذلك أن الحفظ والصيانة والوقوف ضد الزوال والنسيان هي إلى جانب أشياء أخرى تنتمي إلى مهمات الشاعر .

١٩٥٤

الفصل الأول

لا يختلف السيد جوزيف جيبنرات عن ساكني بلدته الصغيرة في شيء إطلاقاً ، سواء بالصفات أو المزايا الشخصية . فهو مثل أغلبهم يمتلك قامة عريضة معافاة ، وموهبة تجارية لابأس بها ، ترتبط بحب قلبي خالص للمال اكتسبه من عمله كوسيط ووكيل تجاري . كان يفخر بأشياء كثيرة : بيت لائق تحيطه حديقة صغيرة ، قبر عائلي في المقبرة ، وشيء من تديّن مُعْلن بات واهياً ، خشوع متواضع أمام الله والسلطة ، وانصياع أعمى وراء التقاليد النبيلة لآداب المجتمع البرجوازي . يحتسي أحياناً ربع لتر من النبيذ ، لكنه لم يثمل قط . بين الحين والآخر يمارس بعض الأعمال التجارية المريبة دون أن يخرج عن حدود الشكليات المسموح بها . كان يحتقر الفقراء والجياع ويسبغ على الأثرياء آيات التبجيل والافتخار . كان عضواً في جمعية الحي ويشارك كل يوم جمعة بلعبة الأوتاد في مقر « آدلر » ، إضافة إلى مشاركته في أيام تناول المعجنات والمقبلات وشوربة السجق . يدخن أثناء العمل سيجاراً رخيصاً ، أما بعد الطعام وأيام الآحاد فسيجاره من النوع الفاخر . حياته الشخصية ضيقة الأفق . كان على شيء من السذاجة ، أصبح وغداً منذ زمن بعيد ، ينحدر من عائلة محافظة ، متعجرفة ، فخور بابنه ، وأحياناً يغدو كريماً مع الفقراء ، ولكن بما يتفق ومزاجه . مواهبه الفكرية لا تتخطى آفاق المكر الغريزي الشديد المحدودية وإجادة فن العمليات

الحسابية . قراءاته تنحصر في الصحف ، ولكي يسدّ حاجته إلى التمتع بالفن كان يكتفي بمشاهدة العرض المسرحي السنوي المفضل لديه الذي تقيمه جمعية الحي ، وما بين هذا وذاك زيارة إلى السيرك .

كان يستطيع أن يستبدل اسمه أو مسكنه مع أي من الجيران المفضلين دون أن يحدث أيما تغيير في حياته ، كذلك فإن أعمق أعماق روحه يسكنها الشك المؤرق ضد كل موهبة أو شخصية مفكرة ، ويشترك مع بقية أرباب الأسر العريقة في بلدته الصغيرة في صفات العداء الفطري ، المتولّد من الحسد ؛ ضد كل ما هو غير اعتيادي أو حرّ وشفاف .

يكفي الحديث عنه . لعل ناقداً ساخراً عميق الرؤية يمكنه تصوير هذه الحياة السطحية وتطوير مأساتها الكامنة . غير أن هذا الرجل كان لديه ابن وحيد ، والحديث إنما يدور الآن حول هذا الابن .

هانز جيبنرات ، بلا شك كان طفلاً موهوباً ؛ يكفي التطلع إليه فقط لمعرفة كيف يتحرك بين الآخرين برقّة وتفرّد . إن عش الغابة السوداء* لم يسفر عن مثل هذا القوام من قبل ، لم يخرج من هناك إنسان قط له مثل هذه الطلّة والجاذبية اللتين اخترقتا هذا الطوق . والله يعلم من أين جاء الصبي بهاتين العينين الجادتين وبهذا الجبين الذكي وبهذه المشية الرقيقة ، ترى هل ورثها من الأم ؟ المعروف أنها توفيت منذ سنين ، وأثناء حياتها لم يُذكر عنها شيء حينما كانت تعاني من المرض والآلام . أم تراه ورثها من الأب ؟ لا يمكن لهذا أن يخطر على البال! كان الصبي حقاً الشرارة الخفية التي سقطت فجأة من أعلى في العش القديم الذي أثمر في قرنه الثامن وحتى القرن التاسع عن الكثير من المواطنين الأكفاء ولكنْ أبداً لم يثمر عن موهبة أو عبقرية .

لو أن مراقباً حاذقاً تذكر الأم المريضة وعمر العائلة الطويل لربما

* الغابة السوداء : منطقة تقع في جنوب ألمانيا . وسميت بالسوداء لكثافة أشجار الصنوبر فيها .

استطاع أن يتحدث عن تضخم طبقة المتعلمين كدالة على حالة التدهور المتزايد . كان من حسن حظ البلدة أن لا تؤوي لديها مثل هذا الصنف من الناس ، فقط الشباب والحاذقون من الموظفين والمدرسين كانت لديهم معلومات غير أكيدة عن وجود «الإنسان العصري» استقوها من خلال المقالات الصحفية . كان بمقدور المرء هناك أن يحيا ويتعلم دون أن يكون له علم بخطب زرادشت ؛ كانت حياة الأزواج مستقرة وفي سعادة دائمة ، وكل جوانب الحياة كان يسودها نمط قديم الطراز من العيش لا خلاص منه . المواطنون الذين أصبحوا أغنياء وموسورين بعد أن تحول البعض منهم في العشرين سنة الأخيرة من عامل يدوي إلى مصنعي ، كانوا يرفعون قبعاتهم احتراماً أمام الموظفين ويسعون إلى أوساطهم ، وأما فيما بينهم فقد كانوا يُطلقون عليهم اسم الفقراء أو الكتبة التابعين . ومع ذلك كان طموحهم لا يتجاوز دفع أولادهم إلى مقاعد الدرس أو الانخراط في السلك الوظيفي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . لكن للأسف بقي الحال كما هو . . حلماً جميلاً بعيد المنال ، لأن النشء الجديد الذي تخرّجه المدرسة اللاتينية فقط لا يتأتى إلا بالمعاناة والمواظبة والدرس .

ليس هناك أدنى شك حول موهبة هانز جيبنرات . المعلم ، الناظر ، الجيران ، قس البلدة ، رفاق المدرسة وكل شخص يتفق على أن الولد ذكي ، وعموماً ثمة ما يميّزه . من هذا فإن مستقبله واضح وراسخ . ذلك أن في مقاطعة شفابن ليس هناك من سبيل أمام الأبناء الذين ينتمون إلى عائلات غنية غير طريق واحدة وضيقة فقط : التقدم لامتحان المقاطعة ثم إلى الحلقة الدراسية ومنها إلى معهد توبنغن ، ومن هناك إما إلى الوظيفة المكتبية أو إلى منصة المدرس . عام إثر عام يسلك من ثلاث إلى أربع دزينات من أبناء المقاطعة هذا الطريق الهادئ المضمون ، أما المنتسبون الجدد ، المنهكون والمجهدون فإنهم يجتازون على حساب الدولة الحقول المختلفة من العلوم الإنسانية ، وبعد ثماني أو تسع سنين ينتقلون إلى المرحلة الثانية من طريق حياتهم التي غالباً ما تكون طويلة

وشاقّة ، حيث يُطالبون برد الجميل الذي أنعمت به الدولة عليهم .

في بحر أسابيع قليلة سيجري امتحان المقاطعة ، أو هكذا يسمى بالمجاميع السنوية ، حيث تختار الدولة نخبة البلاد المتعلمة ، وفي هذه الأثناء تتجه إشفاقاً ودعاءً بالأماني عيون وأنظار الكثير من عائلات المدن الصغيرة والقرى صوب العاصمة التي يجري في أحضانها هذا الامتحان .

هانز جيبنرات كان المرشّح الوحيد الذي فكّرت به البلدة لإنقاذها من هذا التنافس المُحرج . كان التشريف كبيراً ، وهو لم يَنَلْهُ عبثاً على الإطلاق . فإلى جانب الدروس التي تستغرق حتى الساعة الرابعة مساءً أُلحق بدرس اللغة اليونانية الإضافي لدى مدير المدرسة . وفي الساعة السادسة كان قس البلدة يتلطّف عليه بدروس خصوصية في اللغة اللاتينية واللاهوت ، ومرتان في الأسبوع كان يتلقى حصة تعليمية بعد العشاء من مدرس الرياضيات . انصبّ الاهتمام باللغة اليونانية خاصة على تصريف الأفعال غير القياسية ، وبشكل أساسي على أدوات ربط الجُمل ذات المتغيرات المجازية المختلفة ، وفي اللاتينية كان الموضوع محدداً حول الأسلوب وبالذات لمعرفة الكثير من الخصوصيات العروضية ، وفي درس الحساب كان التركيز على النتائج الحسابية المعقدة . وهي تبدو ، كما يؤكد المدرس دائماً ، ظاهرياً غير ذات شأن فيما يتعلق بالدراسة والحياة المستقبلية ، لكنها في الحقيقة مهمة جداً ، بل وأهم من بعض الدروس الرئيسية أحياناً ، إذ أنها تنمّي الملكة المنطقية ، وتعتبر الأساس لكل تفكير سليم ومتيقظ وثاقب .

ولكي لا يجهد الفكر وتختفي العاطفة وتتصلّب بفعل التمارين الذهنية الجافة يُسمَح لهانز كل صباح وقبل ساعة من بدء الدروس أن يشارك في محاضرة خاصة عن التعميد والتثبّت المسيحي ، حيث تتسرب من كتاب المواعظ الدينية وتبادل الأسئلة والأجوبة والحفظ النشيط عن ظهر قلب نفحة زكية من القيم الدينية وتدخل في روحه الفتية . غير أنه للأسف أهمل هذه الدروس الممتعة وفقد نعمتها . وفي

الحقيقة كان يدسّ خفية قصاصة ورق في كتاب المواعظ الدينية مدوّناً عليها مفردات يونانية ولا تينية أو مقاطع تمارين لغوية ، ويشغل نفسه طيلة الدرس مع هذه العلوم العالمية . لكن ذلك لم يشعره بأي تأنيب ضمير أو قلق مؤلم أو خوف . وحينما كان الناظر يقترب منه أو حتى حينما ينادي باسمه ، يجفل في كل مرة منتفضاً ، وعندما يُضطر إلى الإجابة يبدأ العرق يتصبب من جبهته وتأخذ نبضات قلبه بالتسارع . لكن أجوبته كانت كلها متماسكة ، لا غبار عليها وكذلك لفظه ، ومع هذا كله كان لدى الناظر المزيد من هذه الأسئلة .

أما الواجبات الكتابية أو حفظ النصوص والمراجعة والشروح فقد كان ينجزها في البيت عند آخر المساء تحت ضوء المصباح الأليف . كانت هذه المذاكرة الهادئة المحاطة بتبريكات الطمأنينة المنزلية والتي تحظى بالتشجيع العميق والحامي من مدرس الفصل تبدأ اعتيادياً كل يوم ثلاثاء وسبت وتستغرق حتى الساعة العاشرة مساءً تقريباً ، وخلاف ذلك حتى الساعة الحادية عشرة ، الثانية عشرة وأحياناً أكثر من ذلك . كان الأب يضمر بعض الاستياء من استهلاك الكميات الكبيرة من زيت المصباح ، لكنه في نفس الوقت ينظر إلى هذه المذاكرة بعين الرضا والاعتداد . وبالنسبة لما يتوفر من سويعات الراحة وأيام الآحاد التي تؤلف سُبع عمرنا كان يُنصح بشدة بمطالعة مؤلفات بعض الكتاب الذين لم يُقرأ لهم في المدرسة وأيضاً مراجعة قواعد اللغة .

« طبيعي باعتدال ، باعتدال! التنزه مرة أو مرتين في الأسبوع شيء ضروري ومريح . وأثناء الطقس الجميل يمكن أيضاً التنزه بصحبة كتاب في الهواء الطلق . المهم أن يكون الرأس مرفوعاً إلى الأعلى! » .

وهكذا كان هانز يرفع رأسه ما أمكن إلى الأعلى ، ومنذ ذلك الحين اتخذت نزهاته طابع التعليم ، وأخذ يتجول بهدوء وانتشاء لكن وجهه مُسْهد وعينيه تعبتان . « ماذا تظن بجيبنرات : هل سيوفق ؟ » قال مدرس الفصل مرة للناظر . « أجل . أجل » هلّل الناظر « إنه أذكى الأذكياء ؛ تأمله فحسب . إنه روح فيّاضة » .

في الأيام الثمانية الأخيرة أصبحت الروح الفيّاضة روحاً مشعّة، ساطعة. في الوجه الغلامي الحسن والناعم كانت العينان العميقتان القلقتان تشعّان بوهج شاحب، وعلى الجبين الجميل ترتعش برقّة الغضون التي تفضح سرَّ الروح، أما الذراعان واليدان النحيلتان الواهنتان فقد كانتا تتدليان برشاقة ناعسة تُذكِّر ببوتشيلي* .

وآن الأوان! في صباح الغد الباكر سيغادر مع والده إلى شتوتغارد لأداء امتحان المقاطعة، وعليه هناك أن يبرهن أنه كان جديراً بالدخول عبر باب الدير الضيق إلى الفصل الدراسي. قبلئذ زار ناظر المدرسة لوداعه. «مساء هذا اليوم» قال الطاغية المرعب أخيراً برقّة غير معهودة «ينبغي أن لا تُجهد في العمل بعد. عِدني بذلك. فغداً في شتوتغارد يجب أن تبدو في كامل نشاطك. تنزه لمدة ساعة ثم نَمْ بعد ذلك مبكراً. الشاب اليافع يجب أن ينعم بنوم كافٍ».

دهش هانز، فبدلاً من حشد النصائح الهائلة التي كان يتوقعها تلقى معاملة طيبة، فخرج من مبنى المدرسة يتنفس الصعداء. أوراق أشجار الكنيسة كانت تلمع مصفرّة تحت أشعة شمس ما بعد الظهر الحارقة، وفي ساحة السوق كانت توشوش وتُومض نافورتا المياه الكبيرتان، وفوق الخط المتعرج لصفوف السقوف ترنو جبال أشجار الصنوبر الزرقاء المائلة إلى السواد. كان كل شيء يبدو جميلاً وساحراً وكأنه لم يشاهده منذ فترة طويلة. كان يشعر بالصداع، ولحسن الحظ ليس عليه اليوم أن يُذاكر.

سار بهدوء وخطى بطيئة عبر ساحة السوق أمام دار البلدية، ثم زقاق السوق مروراً بصانعي المُدى وحتى الجسر العتيق. تسكّع على الجسر بعض الوقت رواحاً ومجيئاً، وأخيراً جلس على حافته العريضة. كان على مدى أسابيع وأشهر يمر من هنا أربع مرات يومياً ولا تلفت انتباهه زاوية الجسر الغوطية الصغيرة أو النهر ومسقط المياه، حاجز الماء

* رسام إيطالي من عصر النهضة المبكر.

والطاحونة أو موقع السباحة أو الشاطئ الصفصافي الذي تقع عليه محلات الدباغة واحداً جوار الآخر ، حيث يكون النهر عميقاً ، أخضر وساكناً كالبحيرة ، وحيث نهايات الأغصان المتدلية لأشجار الصفصاف تلامس صفحة الماء .

ثم خطر بباله كم من الأوقات أمضى هنا ؟ وكم مرة سبح وغاص وجذف وصاد السمك ؟ آه لصيد الأسماك! يكاد الآن أن يكون قد نسيه ، وفي السنة الماضية ذرف الدموع بمرارة حينما مُنع من الصيد بسبب الامتحان . كم هو جميل الوقوف تحت ظلال الصفصاف الوارفة ، الصرير القريب للطاحونة ، الماء العميق الساكن! وكم هو جميل انعكاس الضوء على جبهة النهر ، التذبذب الهادئ لسنارة الصيد الطويلة ، الإثارة اللذيذة عند قضم الطُعم ثم الجذب ، والمتعة الغريبة حينما يمسك المرء بيده سمكة باردة ، سمينة ، جافلة! .

آنذاك كان قد اصطاد بعض أسماك الشبوط الغضّة والأسماك المشطيّة والنهرية ، ومن الأسماك الشهية سمك القرموط ، والأسماك الصغيرة الزاهية سمك الفوكسينوس* . تطلع طويلاً عبر النهر ، وحينما لمح كل زاوية النهر الخضراء استغرق في التفكير ومالت نفسه إلى الحزن وأحسّ بأن مسرّات الصبا الجميلة ، الحرة ، العفوية تقبع هناك . سحب بشكل آلي قطعة خبز من جيبه وعمل منها كرات صغيرة وكبيرة وقذفها في النهر . . تأملها كيف تغوص وتلتقطها الأسماك بسرعة . في البدء جاءت الأسماك الذهبية الصغيرة والأسماك الشفّافة ، التهمت ملهوفة القطع الصغيرة ودفعت الكبيرة منها بأبوازها الجائعة إلى الأمام بشكل متعرّج . ثم لاحت ببطء وحذر سمكة كبيرة مشطية وارتقت بظهرها الأسمر الواسع متراخية من القاع وحامت حول كرة الخبز بتأن وضيّعتها في فمها المكوّر الذي انفتح على الفور .

* وتسمى أيضاً الأسماك الشمسية ، يبلغ طولها ١٢ سم ، وهي من الأسماك النهرية ، لها جلد أحمر زاهٍ ونادراً ما تستخدم للطعام .

من النهر المنساب بكسل كانت تنبعث رائحة دافئة رطبة ، وعلى سطحه انعكست سحب ساطعة متقطعة ، كان قرص الطاحونة المسنَن يتأوّه ، والحاجزان المائيان يهدران ببرد ودوي عميق أحدهما في الآخر . كان الصبي يفكر باحتفال يوم أحد التعميد الذي أقيم مؤخراً ، حيث باغت نفسه وسط الاحتفال والإثارة وهو يراجع عن ظهر قلب أفعال اللغة اليونانية . عموماً كان في الفترة الأخيرة يعاني من اضطراب فكري وبخاصة في المدرسة ، فبدل انشغاله بتحصيل الدروس كان يفكر دائماً بتلك المفردات التي مضت أو التي ستأتي فيما بعد .

لكن النجاح يمكن أن يكون حليفه في الامتحان! .

نهض من مقعده شارد الفكر ، واحتار إلى أين يمضي ؟ فزع بشدة حينما مسّت كتفه يدٌ ثقيلة وخاطبه صوت رجولي وديع .

« حيّا الله هانز ، أما تودّ مرافقتي بعض الوقت ؟ »

كان هذا الصوت هو صوت الأسطة الاسكافي فلايغ ، الذي كان يقضي عنده في الماضي بعض الأمسيات وانقطع عنه في الآونة الأخيرة . سار هانز بمعيته وأخذ يستمع لهذا التقي الصالح دون كبير انتباه . تحدّث فلايغ عن الامتحان وتمنى للشاب حظاً سعيداً وبثّ فيه روح الشجاعة والتفاؤل ، مشيراً خلال حديثه إلى أن مثل هذا الامتحان ليس إلا شيئاً عابراً وسطحياً . وإن حدث ورسبَ فليس هناك ما يدعو إلى الخزي ، لأن هذا يمكن أن يحدث لأفضل تلميذ ، وإن رسب فعليه أن يكون ممتناً ، وللّه في خلقه شؤون وكل نفس ينبغي أن تتقبل ما قُدّر لها أن تتخذ من سبيل . كان هانز يشعر بتقصير إزاء الرجل . وكان يكنّ له ولشخصيته الواثقة المبهرة احتراماً كبيراً ، ومع ذلك فقد كان يسمع حوله نكات كثيرة ويضحك منها ، غالباً ما كانت تتناول معلوماته القيّمة ؛ كان عليه أن يخجل من جُبنه ، حيث أخذ في الفترة الأخيرة يتجنب الاسكافي بخوف تقريباً لكثرة أسئلته الحادة والمحرجة . ومنذ أن أصبح موضع فخر مدرّسيه ، ومال إلى الترفّع والعجرفة قليلاً أخذ

الأسطة فلايغ ينظر إليه بدهشة ويحاول أن يكون متواضعاً معه . كان على المُرشد الطيب أن يشذّب روح الصبي تدريجياً ، ذلك أن هانز كان على أبواب عنفوان مراهقته ، ويمتلك مجسّاً حسّاساً إزاء كل لمسة غير مستحبة تمسّ اعتداده بنفسه . خطا جنب المتحدث وهو لا يدري بأي اهتمام ومودة كان الرجل يتفحصه من الأعلى .

التقيا في شارع كرونن قس البلدة . حيّاه الاسكافي بجدّ وبرودة ، وفجأة بدت عليه العجلة ، لأن القس كان ذا أفكار حديثة ، ويشاع عنه بأنه لا يؤمن حتى بيوم القيامة . سحب القس الصبي إليه .

« كيف حالك ؟ » سأل « لتكن مسروراً على هذه النتيجة » .

« أجل ، إنني مسرور »

« والآن عليك أن تتماسك جيداً! أنت تعلم بأننا نعقد عليك كل الآمال . أنتظر منك نتيجة مشرّفة في اللغة اللاتينية » .

« وماذا إن رسبت » أفصح هانز عن مخاوفه .

« ترسب ؟ » توقف رجل الدين فزعاً « الرسوب ببساطة غير ممكن ، غير ممكن! يا لها من أفكار! » .

« كنت أعني فقط ، أنه من الممكن أن يحدث . . . » .

« لا يمكن ، هانز ، لا يمكن ؛ كُن مطمئناً . والآن انقل تحياتي إلى أبيك ، وتشجّع! » .

تبعه بنظراته ؛ ثم تطلّع وراء الاسكافي . ما هذا الذي يقوله ؟ لن يكون الأمر يسيراً مع درس اللغة اللاتينية ، آه ، لو يصبح المرء عادلاً ويخشى الله . يا لراحة باله . وفوق كل هذا يأتي القس أيضاً! كيف سيلتقي به مرة أخرى إن رسب ؟

عاد مكتئباً إلى البيت ، ثم اتجه إلى الحديقة الصغيرة المنحدرة . في هذه الحديقة كان هناك كشك متداع لم يستخدم منذ فترة طويلة ، كان

قد شيّد بداخله حظيرة من الألواح الخشبية آوى فيها أرانبه لمدة ثلاث سنوات ، وفي الخريف الماضي أخذت منه بسبب هذا الامتحان لأن وقته لم يعد كافياً للتسلية .

أمضى وقتاً طويلاً في الحديقة . كانت الحجرة الخشبية تبدو آيلة إلى السقوط ، مجموعة الهوابط الحجرية في زاوية الجدار كانت متصدعة ، عجلة الطاحونة الخشبية الصغيرة كانت تقبع ملتوية ومكسّرة إلى جانب أنبوب الماء . عادت به الذاكرة إلى الزمن الذي بنى وقطّع فيه أشياء كثيرة ، والمتعة التي نالها من وراء ذلك . مرّت على هذا الوقت سنتان كالدهر .

التقط عجلة الطاحونة الصغيرة ، طواها ، هشّمها تماماً ثم قذفها خارج السياج . عليها اللعنة ، كل هذا قد عفى عليه الزمن وولى منذ أمد طويل ، في هذه الأثناء خطر في ذهنه صديق دراسته أوغست الذي ساعده في بناء عجلة الطاحونة وترتيب حظيرة الأرانب . كانا طيلة وقت العصر يلعبان هنا ، يتقاذفان بالمقلاع ، يطاردان القطط وينصبان الخيام ، وعندما يجوعان يأكلان الجزر ، ضاع ذلك الطموح ، وغادر أوغست المدرسة منذ عام تقريباً وأصبح عامل ميكانيك ، ومنذ ذلك الحين لم يشاهده إلا مرتين فقط ، لانشغاله بأمور حياته .

كانت ظلال السحب تجري مسرعة فوق الوادي ، الشمس تكاد تلامس حافة الجبل . للحظة ودّ الصبي لو ينكبّ على نفسه ويجهش بالبكاء . لكنه عوضاً عن ذلك تناول البلطة من الكشك ، تأرجحت بيده النحيلة في الهواء ثم أطاح بها على حظيرة الأرانب التي تهشّمت إلى مئات من القطع . تطايرت الألواح في الهواء ، وصرّت المسامير ، وظهرت للعيان بقايا علف أرانب متعفن من الصيف الماضي . هوى على كل شيء ، وكأنه بهذا يقتل حنينه إلى الأرانب وإلى أوغست وكل العبث الطفولي القديم .

«اللعنة ، ما هذا العمل ؟» زعق الأب من وراء النافذة «ماذا

تفعل ؟ »

« خشب للوقود » .

لم يجب بأكثر من هذا ، ورمى البلطة وسار عبر الباحة إلى الزقاق ثم اتخذ الاتجاه المعاكس لمجرى النهر . بالقرب من مصنع البيرة كانت هناك طوّافة خشبية تتكون من دعامتين خشبيتين إحداهما مربوطة بالأخرى ، غالباً ما كان في السابق يمضي ساعات طويلة من أوقات بعد الظهر الدافئة مستخدماً هذه الطوّافة ، حيث يشعر بالانتشاء وهو ينساب مع مجرى النهر ويغفو على الماء المصطفق بين الجذور . ألقى بنفسه فوق الجذور العارية ، السابحة واستلقى على كومة من أوراق الصفصاف وحاول أن يتخيّل انسياب الطوّافة تارة بسرعة وأخرى ببطء وهي تمرّ خلال المروج والمراعي ، والقرى وأطراف الغابة الباردة وتحت القناطر ومساقط المياه العالية ، وتخيّل أن كل شيء قد عاد كما في الماضي ، وبأنه لا يزال يأتي بعلف الأرانب من « كابنبرغ » ويصطاد السمك عند حدائق الدباغين الواقعة على ضفة النهر ، بعيداً عن آلام الصداع أو الأحزان .

ثم عاد إلى البيت منهكاً ، ضجراً لتناول طعام العشاء .

كان الأب قلقاً من رحلة الامتحان إلى شتوتغارد ، واستفسر من هانز مرات عديدة إن كان قد وضع الكتب في الحقيبة وهيأ البذلة السوداء ، وإن كان يودّ أثناء الطريق مطالعة كتاب النحو ، وهل هو على ما يرام ؟ أجاب هانز أجوبة مقتضبة ، قاطعة ، وتناول قليلاً من الطعام ثم أسرع في إلقاء تحية المساء .

« تصبح على خير ، هانز . نَمْ جيداً! إذن سأوقظك الساعة السادسة . ألم تنس القاموس ؟ »

« كلا ، لم أَنْسَه . تصبح على خير! »

جلس في حجرته مستيقظاً لفترة من الوقت بلا ضوء . كانت هذه

الحجرة هي الهبة الوحيدة التي نالها حتى الآن من موضوع الامتحان – الحجرة الصغيرة ، التي أصبح فيها سيداً ، ولم يعد يزعجه أحد . في هذه الحجرة أمضى أمسيات كثيرة وهو يصارع النعاس ، النوم ، الصداع ، القيصر ، اكسينوفون* ، النحو ، القواميس والعمليات الرياضية بصلابة وتحد وطموح ، وفي أغلب الأحيان بيأس أيضاً . لكنه في هذه الغرفة أيضاً تمتع بسويعات قليلة حالمة نادرة ، زاخرة بالزهو والنشوة وروح الانتصار ، وفاقت كل ملاهي الطفولة الضائعة ، ونسي خلالها المدرسة والامتحان وكل شيء آخر وألقى بها في دائرة يحلم فيها ويتوق إلى ذات متسامية . ثم اجتاحه شعور أحمق غامر وتخيّل نفسه حقاً بأنه يختلف عن الآخرين وأفضل من رفاقه الطيبين المكتنزي الوجنات ، وتهيأ له أن يطلّ عليهم ذات مرة متأملاً من مستوى آخر . تنفس عميقاً ، وكأن في هذه الغرفة قد هبّ نسيم بارد طلق ، جلس على السرير وتاه بضع ساعات في الأحلام والآمال والأوهام . انسدلت الجفون الشقراء بهدوء فوق العيون الوسيعة التعبى ، فتحت ثانية ، طرفت ثم انسدلت مرة أخرى ، غاص رأس الصبي الكروي في الكتف الهزيل ، انبسطت الذراعان النحيفتان باسترخاء . نام بملابسه ، ويد الكرى الأمومية الرقيقة مهّدت الأمواج في قلبه الطفولي المضطرب وروت التغضنات الصغيرة على جبينه الجميل .

من المدهش حقاً أن يبذل ناظر المدرسة ما وسعه للذهاب إلى المحطة رغم الوقت المبكر . اندسّ السيد جيبنرات في ردنكوت أسود ، ولم يستطع بفعل الإثارة والفرحة وشعور الكبرياء أن يقف ثابتاً ؛ كان يجري هنا وهناك بخطوات قصيرة ، يدور مضطرباً حول ناظر المدرسة وهانز ، تمنى له ناظر المحطة وكل العاملين في سكة القطار رحلة سعيدة وامتحاناً موفقاً لابنه ، كان يمسك بحقيبته الصغيرة الصلبة تارة في اليد اليمنى وأخرى في الشمال . وكان يضع المظلة المطرية مرة تحت إبطه ومرة يحشرها بين ركبتيه ، وتسقط منه ، ثم يضع الحقيبة على الأرض

* أكسينوفون : مؤرخ وسياسي يوناني قديم .

ويرفعها ثانية . كان يبدو وكأنه سيسافر إلى أمريكا وليس إلى شتوتغارد وببطاقة مرجّعة . أما هانز فقد كان هادئاً ، لكن غصّة خفية من الألم يحسّ بها في بلعومه .

جاء القطار وتوقّف ، وصعدا إليه . لوّح الناظر بيده ، ثم أشعل الأب سيجاراً ، في أسفل الوادي اختفت المدينة والنهر . كانت الرحلة مرهقة لكل المسافرين .

فجأة بدا الأب في شتوتغارد حيوياً ، وبدا فرحاً ، اعتيادياً ، لطيف المعشر ؛ غمرت روحه بهجة ساكن المدينة الصغيرة الذي جاء للإقامة بضعة أيام في المدينة الكبيرة . غير أن هانز قد أصبح أكثر هدوءاً وارتياباً ، وأحسّ بكآبة عميقة عند رؤيته المدينة الجديدة : الوجوه الغريبة ، البنايات المتبرّجة ، المتباهية بسموها ، الشوارع الطويلة المملّة ، خطوط عربات الخيل وضوضاء الشوارع باغتته وسببت له الألم . أقاما عند إحدى العمّات ، وهناك أثقلت نفس الصبي حد الإعياء الغرف الغريبة ، الضيافة المسرفة وثرثرة العمة ، الجلوس الطويل المضجر حول المائدة والنصائح التشجيعية المستمرة . انزوى في الغرفة بشعور من الغربة والضياع ، وحينما تفحص المحيط غير المعتاد ، العمة ودورة مياهها الحديثة ، ورق الجدران المطرز برسوم كبيرة ، الساعة التي داخل إطار ، المدفأة ، الصور المعلقة على الجدران ، وعبر النافذة الشارع المليء بالضوضاء ، عندئذ أحسّ كما لو أنه قد غادر البيت منذ زمن طويل ؛ كأن كل ما تعلمه بجهد وعناء قد ذهب سدى .

كان يرغب بعد الظهر أن يُذاكر مرة أخرى أدوات اللغة اليونانية ، لكن العمة اقترحت عليه القيام بنزهة . لأول وهلة خُيّل لهانز ثمة أرض خضراء وحفيف أشجار الغابة فوافق مغتبطاً . لكنه سرعان ما أدرك أن مجرد التنزه هنا ، في المدينة الكبيرة هو ضرب آخر من المتعة يختلف عما في بلدته .

ذهب مع العمة بمفرده ، إذ كان على والده أن يقوم ببعض الزيارات

في المدينة . بدءاً من على السلم لاحت التعاسة . ففي الطابق الأول من البناية ظهرت سيدة بدينة ، متعجرفة ، جميلة الطلعة . حيّتها العمة بإيماءة صغيرة ثم دخلت معها على الفور في ثرثرة طليقة اللسان . استغرقت هذه الوقفة أكثر من ربع ساعة . كان هانز يقف بالقرب منهما محاصراً داخل فسحة السلّم ، تتشممه كلبة السيدة وتعربد ، ثم أدرك بشكل غير واضح أن الحديث يدور حوله أيضاً ، لأن السيدة الغريبة البدينة كانت تتطلّع إليه من خلال نظاراتها باستمرار وتتفحصه من فوق إلى تحت . ولم يكادا يكونان في الشارع حتى دخلت العمة أحد الدكاكين ، وأمضت في الداخل فترة ليست بالقصيرة حتى عادت ثانية . في هذه الأثناء كان هانز يقف خجلاً في الشارع ، يتلقى دفعات المارة ويستمع إلى كلمات سخرية الشارع منه . حينما عادت العمة من الدكان ناولته قطعة شوكولاته ، فشكرها بأدب رغم أنه لا يستذوقها . عند الزاوية التالية استقلا عربة « الترام » التي تجرها الخيول ، ثم سارت بهما العربة المزدحمة تحت دقّ الجرس المستمر عبر الشوارع المختلفة حتى وصلا إلى شارع كبير وموقع حديقة . كانت في الحديقة نافورة مياه وقطعة مسيّجة في داخلها بنجر مثمر وأسماك ذهبية تسبح في بركة اصطناعية صغيرة . تجولا هنا وهناك ، رواحاً ومجيئاً ، وعلى شكل دائرة ، بين ثلّة من المتنزهين ، وشاهدا العديد من الوجوه والملابس الأنيقة والدراجات الهوائية ومقاعد المرضى المتحركة ، وعربات الأطفال ، وسمعا خليطاً من الأصوات الضاجّة وتنفسا هواءً مغبراً حاراً . أخيراً جلسا على مصطبة جنب متنزهين آخرين . كانت العمة طيلة الوقت تقريباً تتكلم على غير هدى ، ثم تنهدت وابتسمت للصبي بود وطلبت منه أن يأكل الآن شوكولاتته .

لم يردّ عليها .

« يا إلهي ، لعلك تستحي ؟ كلا ، كُلْ ، كُلْ! » .

عندئذ أخرج شوكولاتته ، استمر يضيّع الوقت وهو ينزع الورق الفضي منها وأخيراً قضم قطعة صغيرة جداً . في الواقع لم يودّ أن يأكل

الشوكولاتة الآن وحسب . لكنه لم يجرؤ على إخبار العمة . وفيما كان يقضم ويغصّ ، اكتشفت العمة من بين الجموع أحد معارفها وانطلقت إليه .

«ابق جالساً هنا ، سأعود في الحال» .

استغل هانز وهو يتنفس الصعداء هذه المناسبة وقذف بالشوكولاتة بعيداً في الحشيش . أخذ يؤرجح ساقيه بإيقاع ، حدّق في أعداد الناس وبدا عليه الحزن .

عاد مرة أخرى يردد الأفعال القياسية ، ولخوفه الشديد نسي أغلبها تقريباً . اختفى من ذاكرته كل شيء تماماً! وكان موعد الامتحان غداً!

عادت العمة . واستعلمت أثناء غيابها أن عدد المرشحين لامتحان هذا العام يبلغ مائة وثمانية عشر مرشحاً . أما عدد الذين يقدر اجتيازهم الامتحان فهو ستة وثلاثون فقط . انتفض قلب الصبي من أعماقه ، وظل صامتاً طيلة طريق العودة ولم يتفوه بكلمة واحدة . في البيت أحسّ بالصداع ولم ترغب نفسه الطعام ، وأصابه اليأس والقنوط ، وتجنبه الأب بذكاء ، ووجدته العمة ثقيل الظل ، استغرق أثناء الليل في نوم ثقيل ، عميق تطارده مشاهد الأحلام المفزعة . رأى نفسه جالساً مع مائة وسبعة عشر من زملاء الامتحان ، تراءى له الممتحنون مرة على شكل قس بلدته وأخرى على شكل عمته ، وتكدّست أمامه جبال من الشوكولاتة التي ينبغي أن يلتهمها . وفيما كان يلتهم تحت الدموع المنهمرة شاهد أن الآخرين قد نهضوا واحداً بعد الآخر بعد أن التهم كل منهم جبله من الشوكولاتة ، لكن جبله أخذ يكبر ويكبر أمام عينيه ، ثم ساح فوق المنضدة والمقعد وكاد أن يختنق .

في صباح اليوم التالي ، وأثناء تناوله القهوة ، وعيناه لا تفارقان الساعة كي لا يتأخر عن الامتحان ، تخيّل أشياء كثيرة من بلدته . أولاً تخيّل فلايغ ؛ كان يرتّل صلاته قبل تناول شوربة الصباح ، وكانت العائلة قد جمعت المساعدين والمتدربين وقوفاً في دائرة حول المائدة ،

وقد ضمّن الأسطة صلاة الفجر الاعتيادية لهذا اليوم الدعوات التالية : «أنعم بعطفك أيضاً على التلميذ هانز جيبنرات الذي يؤدي امتحانه اليوم ، باركْهُ وشُدَّ من أزره ، واجعله من الداعين البارين الصالحين باسمك الإلهي! » . أما قس البلدة ، فإنه في الواقع لم يذكر هانز في دعائه أثناء الصلاة ، لكنه قال لزوجته أثناء الفطور : «في هذه اللحظة سيتوجه الجيبنرات إلى الامتحان . ثمة ما هو خاص سيتمخض عن هذا الصبي ؛ ينبغي على المرء أن يرعاه ، ثم ليس هناك ما يمنع لو قدمت له يد العون في درس اللغة اللاتينية» .

وقال مدرس الفصل لتلاميذه قبل بدء الدرس : «الآن يبدأ في شتوتغارد امتحان المقاطعة ، وفي هذه اللحظة نتمنى الحظ السعيد للجيبنرات . وفي الحقيقة فإنه لا يحتاج أكثر من ذلك ، ولا قبل له بطلاب كسالى مثلكم» . وحتى تلاميذ الفصل فكروا به في هذه اللحظة ، وجميعهم تقريباً ، وبشكل خاص أولئك الذين عقدوا المراهنات فيما بينهم على مسألة نجاحه أو رسوبه .

من هنا كانت للأدعية القلبية والمشاركة الوجدانية لتيسير الأمر وقعها المؤثر عبر هذه المسافات الطويلة ، وبدأ هانز هو نفسه أيضاً يشعر بأن في بلدته هناك من يفكّر به . وفي الحقيقة ذهب برفقة والده إلى قاعة الامتحان وضربات قلبه تتسارع ، يتطلّع فيما حوله في القاعة الكبيرة المزدحمة بالفتيان المنتفخين كالمجرم في قبو التعذيب . حينما جاء البروفيسور ران الصمت على القاعة وتليت أسئلة امتحان اللغة اللاتينية ، تأملها هانز ووجدها في غاية البساطة . ثم سرعان ما وضع خطة الحل ، فرحاً ، وكتب أجوبته بتأن وصفاء ، وكان أول من سلّمها . بعد ذلك ضلّ في طريق عودته إلى بيت العمة وتاه ما يقارب الساعتين في شوارع المدينة الحارة ، ولم يؤثر ذلك في استعادة توازنه مرة أخرى ؛ حتى أنه كان مسروراً لابتعاده بعض الوقت عن العمة والأب . ووجد في التجوال خلال الشوارع الغريبة الصاخبة من محل إقامته مثل مغامرة خطيرة . وبعد جهود مضنية وجد المنزل أخيراً ، وانهال عليه في الداخل

وابل من الأسئلة .

« كيف سارت الأحوال ؟ هل كانت الأسئلة صعبة ؟ هل تمكنت منها ؟ » .

« كانت بسيطة جداً » قال بكبرياء « كنت أستطيع ترجمة النص حتى وأنا في الصف الخامس » .

ثم تناول طعامه في جوع حقيقي .

لم يكن له من شاغل بعد الظهر . اصطحبه الأب إلى بعض الأقارب والأصدقاء ، التقيا عند أحدهم بصبي خجول يرتدي بذلة سوداء ، جاء من كوبنغن لغرض الامتحان هو الآخر . تُركَ الصبيان لوحدهما وتأمل أحدهما الآخر برهبة وفضول .

« كيف وجدت الامتحان ؟ بسيط ، أليس كذلك ؟ » سأل هانز .

« في غاية البساطة . ولكن بشكل خاص في جملة الحال تكثر الأخطاء في المواضع البسيطة ، ولا ينتبه إليها أحد . وكانت هناك أيضاً حالات غامضة » .

« صحيح » .

« طبيعي . إنهم ليسوا أغبياء إلى تلك الدرجة » .

ارتعب هانز وأخذ يتأمل . بعد ذلك سأل بحذر .

« هل لا زال النص لديك ؟ » .

أتى الآخر بدفتره ، وعالج الاثنان الموضوع بكامله كلمة بعد كلمة . يبدو أن الصبي الذي من كوبنغن كان ألمعياً في اللغة اللاتينية ، إذ أنه ذكر على الأقل إشارتين لغويتين من الإشارات التي لم يسمع بها هانز من قبل .

« وماذا هناك ليوم غد ؟ » .

« اللغة اليونانية والإنشاء » .

ثم استعلم الكوبنغن عن عدد الممتحنين الذين جاؤوا من مدرسة هانز .

« لا أحد » قال هانز « أنا فقط » .

« أوه ، جاء من كوبنغن اثنا عشر تلميذاً ، من بينهم ثلاثة تلاميذ أذكياء جداً ، ويعوّل عليهم احتلال المراكز الأولى . في العام الماضي كان الأول أيضاً من كوبنغن – هل ستدخل مدرسة اللغات إن رسبت ؟ »

لكن هيهات أن يحصل مثل هذا الأمر .

« لا أدري . . . كلا ، لا أعتقد » .

« إذن هكذا ؟ أما أنا فسأستمر على الدراسة في كل الأحوال ، حتى وإن رسبت ، حيث سترسلني والدتي إلى أولم » .

أُثير هانز بشدة وأثارته أيضاً مسألة الاثنى عشر تلميذاً من كوبنغن والذين من ضمنهم الثلاثة الأذكياء جداً ، وأشاعت في نفسه الخوف الشديد .

لم يعد يطيق أكثر من هذا .

جلس في البيت وأخذ يراجع الأفعال مرة أخرى . لم يكن يخشى من درس اللغة اللاتينية ، وبوسعه أن يطمئن إلى ذلك . لكن الأمر مع اللغة اليونانية يختلف تماماً . كان يميل إلى هذا الدرس كثيراً ويتحمس له ، ولكن فقط لغرض القراءة . وكان يميل بشكل خاص إلى اكسينوفون الذي تتسم كتاباته بالبهجة والمرونة والطراوة ، والإيقاع المفرح اللطيف والمؤثر ، والروح السلسة الطليقة ؛ كان كل شيء يسيراً على الفهم ، ولكن حالما يتعلق الموضوع بالنحو أو الترجمة من الألمانية إلى اليونانية فإنه يدخل في متاهة تضارب القواعد والأشكال ويقف أمام اللغة الغريبة نفس الموقف المتردد المتهيّب الذي كان قد وقفه آنذاك في الدرس الأول

حينما لم يستطع حتى قراءة الأبجدية اليونانية .

جاء في اليوم التالي دور اللغة اليونانية كما هو مقرر تماماً ، وبعده مباشرة مادة الإنشاء في اللغة الألمانية . كانت مادة اللغة اليونانية نوعاً ما طويلة ، ولا تخلو من صعوبة ، أما الإنشاء فقد كان محيّراً ويكاد يكون غامضاً . ابتداءً من الساعة العاشرة أصبح جو القاعة رطباً وحاراً . لم يكن هانز يمتلك قلماً جيداً لذا فقد أفسد ورقتين حتى استطاع كتابة موضوعه بشكل نظيف . حينما جاء موضوع الإنشاء وجد نفسه في مأزق كبير بسبب التلميذ الثالث الذي يجلس إلى جانبه حيث دفع إليه بقصاصة ورقية يسأله فيها الإجابة على سؤال بواسطة الدقّ على الصدر . كان الاتصال مع المقاعد المجاورة ممنوعاً منعاً باتاً ، ويترتب عليه الطرد من الامتحان بلا عودة . كتب هانز على قصاصة من الورق وهو يرتعد خوفاً : « دعني بسلام » وأدار ظهره للسائل . كان الحر خانقاً . وكان الأستاذ المراقب يمسح وجهه بمنديله وهو يستعرض القاعة بخطوات متواصلة متسقة ولا يستريح لحظة ، ثم أخذ العرق يتصبب من هانز الذي يرتدي بذلة رسمية سميكة ، وأحسّ بالصداع ، وسلّم أخيراً أوراقه وهو في حال مزرٍ ، معتقداً بأنها مليئة بالأخطاء ، وأن مسألة الامتحان قد أصبحت منتهية بالنسبة إليه .

لم تند عنه كلمة واحدة أثناء تناوله للطعام ، واكتفى بالرد على جميع الأسئلة بهزّ كتفيه فقط ، وارتسمت على وجهه ملامح شبيهة بتلك التي على وجه مُتهم . أخذت العمة تواسيه ، لكن الأب استشاط وأبدى مزاجاً سيئاً . بعد الطعام اصطحب الولد إلى غرفة مجاورة وحاول استجوابه مرة أخرى .

« كان الأمر سيئاً » قال هانز .

« لماذا لم تنتبه ؟ كان بوسعك أن تستجمع ذاكرتك ، يا للشيطان! » .

صمت هانز ، وحينما بدأ الأب يؤنب ويزمجر ، صعد الدم في وجه

هانز وقال : «أنت لا تعي شيئاً في اليونانية!» .

كان الأسوأ من ذلك كله ذهابه في الساعة الثانية للامتحان الشفهي . كان يرتعد من الخوف . وفي الطريق ، على الشوارع الملتهبة الحارة ، أحسَّ بشقاء كبير ، وتعذر عليه أن يرى ما يجري خارج عينيه بسبب البؤس والخوف والدوار .

جلس لمدة عشر دقائق أمام ثلاثة من السادة الذين يتخذون مجلسهم إلى مائدة كبيرة خضراء ، ترجم بضع جمل لاتينية وأجاب على الأسئلة التي طرحت عليه . بعد ذلك جلس عشر دقائق أخرى أمام ثلاثة من السادة الآخرين ، ترجم عن اليونانية ، ووجهت إليه مختلف الأسئلة . أخيراً طُلب منه أن يكوّن فعل مضارع غير قياسي فتعذر عليه ذلك ولم يجب .

بإمكانك أن تغادر ، من هناك . الباب الذي على الشمال» .

ذهب ، لكنه عند الباب تذكر الفعل المضارع . ظلّ واقفاً .

«اذهب» قيل له «اذهب! أَوَلَسْتَ على ما يرام ؟ »

« كلا ، لكنني تذكرت الفعل المضارع الآن» .

نودي عليه للدخول إلى الغرفة ، ورأى أحد السادة غارقاً في الضحك ، هام على وجهه الملتهب . حاول استذكار الأسئلة وأجوبتها ، لكن كل شيء اختلط عليه . لم يعد يرى سوى سطح المائدة الخضراء الكبيرة والسادة الثلاثة الكبار في ردنكوتاتهم ، والكتاب المُشرع ويده المرتجفة فوقه . رباه ، ما الذي يستطيع الإجابة عليه!

حينما خطا عبر الشارع خُيّل إليه وكأنه في هذه المدينة منذ أسابيع طويلة ، ولم يعد بمقدوره العودة إلى البيت أبداً . كان شيئاً بعيداً جداً تاقت إليه نفسه فجأة . وبدت له الحديقة الأبوية بعيدة الزمن ، وكذلك الجبال الصنوبرية الزرقاء ، وأماكن الصيد عند النهر . آه ، لو يستطيع أن يغادر إلى بلدته الآن! لم يعد هناك ما يدعو إلى البقاء ، الامتحان

وقد ضاع على أية حال .

ابتاع له رغيفاً مصنوعاً مع الحليب وتسكّع مجهداً كل وقت بعد الظهر القاسي ، فقط لكي يتجنب كلام الأب . حينما عاد إلى البيت وجدهم في حالة قلق شديد عليه ، فقدمت له شوربة البيض ، وسارع إلى سريره منهكاً ، كئيباً . يوم غدٍ هو اليوم المقرر لامتحان الحساب واللاهوت ، وبعد ذلك يمكنه أن يغادر إلى بلدته .

جرت الأمور قبل ظهر اليوم التالي على نحو جيد . ومن المفارقات الساخرة أن يتم اليوم كل شيء أفضل بعدما أصيب البارحة بخيبة أمل كبيرة في الدروس الأساسية .

على أية حال ، لم يبق الآن إلا الذهاب إلى البيت .

كان والده يريد البقاء هذا اليوم أيضاً . ويود الذهاب إلى كانشتات لتناول القهوة في حديقة مركز الاستجمام . لكن هانز التمس بحرارة أن يسمح له الأب بالسفر وحده هذا اليوم . اصطحب إلى محطة القطار ، وسُلّم تذكرة السفر ، قبلته العمّة وأعطته شيئاً من الطعام ثم غادر متعباً ، شارد الفكر عبر أرض التلال الخضراء باتجاه بلدته . حالما ظهرت الجبال المخروطية الصنوبرية الزرقاء الداكنة حتى أحسَّ الصبي بشعور غامر من الغبطة والانعتاق . فَرح بالخادمة العجوز وحجرته والناظر وغرفة الفصل الواطئة المعتادة وبكل شيء .

من المصادفات الحسنة أنه لم يجد في المحطة أياً من المعارف الفضوليين ، وبهذا استطاع مع حزمة متاعه الصغيرة أن يسرع إلى البيت دون أن يلحظه أحد .

« هل أمضيت وقتاً جميلاً في شتوتغارد ؟ » سألت العجوز « أنّا » .

« جميل ؟ أتظنين ذلك ، أجميل هو الامتحان ؟ لست إلا سعيداً بعودتي إلى هنا ثانية . سيأتي الوالد غداً » .

شرب قدحاً من الحليب الطازج ، تناول لباس السباحة المعلق على

النافذة وانطلق ، ولكن ليس إلى المكان الذي يسبح فيه الآخرون .

انطلق بعيداً عن البلدة ، إلى «البرج» ، حيث الماء عميق ، وينساب على مهل بين الدغل العالي . خلع ملابسه ، مدَّ يده ومن بعدها قدمه متحسساً الماء البارد ، ارتجف قليلاً ثم ألقى نفسه بقفزة سريعة في النهر . سَبَح ببطء ضد تيار الماء الضعيف ، أحسَّ بأنه قد تحرر من جهد وخوف الأيام الأخيرة ، وفيما كان الماء البارد يحيط بجسمه الهزيل ، كانت روحه يغمرها فرح جديد من بلدته الجميلة ، أسرع في السباحة ، استراح ، واصل سباحته وشعر ببرودة وتعب عذبين . استلقى على ظهره ، سبح مرة أخرى هابطاً مع التيار ، تنصّت إلى الطنين الخافت لحشرات الماء المنتشرة في دوائر ذهبية . تطلع إلى السماء الغاسقة التي تقطعها أسراب طيور السنونو الصغيرة السريعة ، حيث تومض أمامها الشمس الهاربة خلف الجبال بلون وردي . حينما ارتدى ملابسه وسار يتهادى حالماً إلى البيت كانت الظلال قد غطّت الوادي بأكمله .

مرّ بحديقة التاجر زاكمان التي كان قد سرق منها بضع اجاصات غير ناضجة حينما كان طفلاً صغيراً ، ومرّ بساحة كرشنر المسقوفة التي تحيط بها دعائم من خشب التنوب الأبيض ، حيث كان في الماضي يفتش تحتها عن الديدان الطرية التي يستخدمها كطعم في صيد السمك . ومرّ أيضاً من أمام البيت الصغير للمفتش جسلر الذي غازل ابنته أيما على الثلج قبل سنتين . لقد كانت أرقَّ وألطف فتاة مدرسة في البلدة ، تناهزه عمراً ، وكان شوقه إليها قد بلغ آنذاك حداً تمنى فيه محادثتها ولو مرة واحدة أو مد يده إليها مصافحاً . لكن خجله الشديد وتردده حالا دون تحقيق أمانيه تلك . ومنذ ذلك الحين أُرسلت إلى مدرسة داخلية ولم يعد بعد ذلك يعلم عنها شيئاً . أخذت الآن صور المراهقة تعود إلى ذاكرته مرة أخرى وكأنها من الماضي البعيد ، تتلوّن بألوان مخضبة فاقعة ، وتعبق بعبق خاص عميق الشعور ، لم يحس مثيلاً له حتى الآن . كان ذلك زماناً ولى ، حينما كان يجلس في المساء عند ناشولد ليزه في طريق البوابة ويقشّر معها البطاطس ويستمع إلى

حكاياتها ، حينما كان يذهب كل يوم أحد باكراً بسروال مكفوف وهو يشعر بالذنب ليجلس تحت حاجز الماء أو عند الشلال الذهبي لصيد السرطعونات ، ليتلقى بعد ذلك صفعات الأب لابتلال بذلة يوم الأحد بالماء! في ذلك الوقت كانت هناك أحداث كثيرة غامضة غير اعتيادية وأناس لم يعد يفكر بهم أحد منذ فترة طويلة! الإسكافي ذو الرقبة المائلة ، صانع السجاجيد الذي تأكّد عنه جيداً بأنه قد سمّم زوجته ، والمغامر «هير بك» الذي اختلس كل ما في مكتب مديرية البلدة وأطلق عليه لقب «هير» لأنه أصبح غنياً وامتلك عربة من المخمل تجرها خيول أربع . كان هانز لا يعرف عنهم أكثر من أسمائهم ، ضاقت به الدنيا وهو يرى هذا العالم الزقاقي الصغير المبهم يضيع منه دون أن يعوّض بما هو حياتي وجدير بالمعايشة .

ولما كان اليوم التالي يوم عطلة لديه فقد استغرق في نومه طويلاً وتذوق طعم حريته . عند الظهر راح يستقبل الأب الذي لم يزل بعد يعيش المتعة الروحية التي أخفاها عليه الجميع في شتوتغارد .

«في حالة اجتيازك الامتحان ، تستطيع أن تتمنى ما تشاء» قال الأب في مزاج طيب . «فكّر!»

«كلا ، كلا» تنهد الصبي «سأرسب بالتأكيد» .

«يا للحماقة ، قل ما الذي ترغب فيه! الأفضل لك أن تسرع وتتمنى قبل أن أتراجع» .

«أودّ أن أعود إلى صيد السمك أثناء العطلة . هل هذا ممكن ؟»

«حسن ، لك ذلك ، ولكن إن نجحت في الامتحان» .

في اليوم التالي ، يوم الأحد ، اندلع جو عاصف ماطر . ظل هانز في حجرته ساعات طويلة وهو يقرأ ويفكر . فكّر بدقّة مرة أخرى بموضوع امتحانه في شتوتغارد وكان الحال كما هو ، خيبة أمل مريرة ، فكّر بأنه كان من الممكن أن يكون أفضل مما عليه بكثير ، لكنه الآن لم

يعد يهتم بالنجاح على أية حال . آه ، إنه الصداع اللعين! أخذ يشعر بضيق شديد يضغط عليه تدريجياً . وأخيراً دفعته رغبة قوية للذهاب إلى والده .

« أبي! »

« ماذا تريد ؟ »

« أود أن أسأل إن كان من الممكن الاستغناء عن الأمنية . أريد التخلي عن مسألة الصيد هذه » .

« هكذا ، ولماذا تريد ذلك الآن ؟ » .

« لأنني . . . آه ، كنت أسأل أن . . . »

« اللعنة ، يا لها من سخرية! ماذا إذن ؟ »

« إن كان يسمح لي بالدخول إلى مدرسة اللغات في حالة رسوبي » .

انعقد لسان السيد جيبنرات .

« ماذا ؟ مدرسة اللغات ؟ » انفجر الأب .

« أنت ، تريد الدخول إلى مدرسة اللغات ؟ من ذا الذي وضع ذلك في رأسك ؟ »

« ليس من أحد ، أنا وحدي فكرت في ذلك » .

كان الهلع المميت يُقرأ على قسمات وجهه ، لكن الأب لم يلحظه .

« اذهب ، اذهب » قال ساخطاً وهو يضحك .

« يا لها من خزعبلات غريبة ، مدرسة اللغات! لعلك تظنني مستشاراً تجارياً » .

لوّح رافضاً بشدة ، بحيث أن هانز استسلم وخرج حائراً .

« أي ولد هذا! » زعق في أعقابه صارخاً « كلا ، هل يوجد مثل هذا! والآن يريد الدخول إلى مدرسة اللغات بعد! في صحتك ، لقد خاب ظنك » .

جلس هانز نصف ساعة على افريز النافذة ، يحدّق في أرضية الصالة الملمّعة تواً ، وحاول أن يتصور كيف سيكون الأمر لو لم يعد للدرس ومدرسة اللغات والدراسة من وجود حقيقي . سيُرسل حتماً للعمل كمساعد في حانوت بيع الأجبان أو إلى مكتب ، وسيكون مدى الحياة واحداً من أولئك الناس العاديين المعدمين الذين يحتقرهم ويود أن يكون خارج دائرتهم تماماً . وجههُ التلميذي الذكي تحوّل إلى تقلصات تفيض بالغيظ والأسى ؛ انتفض بغضب ، بصق ، تناول كتاب مختارات تعليم اللغة اللاتينية الموضوع أمامه وقذف به بكل عنف الجدار المقابل .

ثم خرج في المطر .

« كيف حالك ؟ » سأل ناظر المدرسة ومدّ إليه يده .

« خلتك ستأتي إليّ البارحة . كيف كان الامتحان ؟ »

أطرق هانز إلى الأرض .

« ما الأمر ؟ هل كان سيئاً ؟ »« أظن ذلك »

« تجمّل بالصبر! » واسى السيد العجوز « من المفروض أن يأتي التقرير من شتوتغارد قبل ظهر هذا اليوم » .

كانت فترة ما قبل الظهر طويلة مزعجة . لم يأت التقرير بعد ، وكان هانز أثناء الغداء يجد صعوبة بالغة في ابتلاع الطعام بسبب نشيجه الداخلي . حينما دخل غرفة الدرس في الساعة الثانية بعد الظهر وجد مدرّس الفصل بانتظاره .

« هانز جيبنرات » نادى بصوت عال .

تقدم هانز . مدّ المدرس يده إليه .

« أهنئك ، يا جيبنرات . لقد نجحت في الامتحان وحققت المركز الثاني على المجموعة » .

ساد صمت احتفالي ، فُتح الباب ودخل ناظر المدرسة .

« أهنئك . والآن ماذا تقول ؟ » .

كان الصبي قد شُلّ من المفاجأة والفرحة .

« ماذا ، ألم تقل شيئاً »

« لو كنت أعلم » انطلق يتكلم « لأحرزت المركز الأول أيضاً » .

« والآن اذهب إلى البيت » قال الناظر « وأخبر أباك . لا حاجة بك للمجيء إلى المدرسة بعد ، وفي كل الأحوال ستبدأ العطلة بعد ثمانية أيام » .

خرج الشاب إلى الشارع دائخاً ، نظر إلى أشجار الزيزفون وساحة السوق وهي قائمة تحت أشعة الشمس ، كان كل شيء كما هو ، لكن كل شيء أصبح أجمل وأكثر دلالة وبهجة ، لقد نجح! وكان الثاني! وحينما هبّ نسيم الفرح الأول غمره إحساس بالامتنان الحار . لم يعد يخشى الآن تفادي طريق قس البلدة . أصبح الآن بمقدوره أن يدرس! ولم يعد يفكر بحانوت الأجبان أو المكتب التجاري! .

والآن بوسعه أيضاً أن يعود إلى مزاولة هوايته المحببة في صيد الأسماك . كان الأب يقف عند باب المنزل حينما عاد هانز إلى البيت .

« ماذا هناك ؟ » سأل الأب منبسطاً .

« ليس كثيراً . لقد طردت من المدرسة » .

« ماذا ؟ لِمَ ذلك ؟ »

« لأنني الآن طالب متفرغ » .

« صحيح ، أيها اللعين ، هل نجحت ؟ » أومأ هانز برأسه .

« هائل » .

« لقد أحرزت المركز الثاني » .

لم يكن العجوز يتوقع ذلك . لا يدري ماذا يقول ، أخذ يربّت على كتف الصبي بشكل مستمر ، كان يضحك ويهز رأسه ، فتح فمه ليقول شيئاً ، لكنه لم يقل ، بل عاد يهزّ رأسه .

« يا للروعة! » صاح أخيراً ، ثم مرة أخرى « يا للروعة! » اندفع هانز داخلاً البيت ، ارتقى السلّم وصعد إلى السطح ، فتح بقوة خزانة جدارية في غرفة السطح العارية ، نقّب الدرج مفتشاً ثم أخرج أنواعاً من العلب ولفّات الخيوط وقطع الفلين . كانت هذه أدوات صيده .

« بابا ، أعرني مطواتك! »

« لِمَ ؟ »

« أريد اقتطاع عصا لعمل سنارة الصيد »

دسّ البابا يده في جيبه .

« خذ » قال بوجه مشرق بهيج « هنا أربعة ماركات ، تستطيع أن تشتري مطواة خاصة بك . اذهب ولكن ليس إلى ماتفريد وإنما هناك عند بائعي السكاكين » .

انطلق في الحال . سأله بائع السكاكين عن الامتحان وعلم بالنبأ السعيد ، أعطاه بشكل خاص سكينة جميلة . عند منحدر النهر ، أسفل جسر « بروهل » كانت توجد شجيرات جميلة ، نحيفة من البندق والبتولا ، اقتطع منها بعد اختيار طويل عصا جيدة ، صلبة ، مرنة . ثم أسرع بها عائداً إلى البيت .

بوجه متورد وعينين لامعتين ، انهمك في العمل الممتع لتجهيز عدّة الصيد الذي كان يدخل البهجة إلى نفسه تماماً كعملية الصيد ذاتها . جلس طيلة وقت ما بعد الظهر والمساء أيضاً . أفرز الخيوط البيضاء

والبنية والخضراء ، فحصها بدقة وأصلحها وحررها من بعض العقد والتشعثات القديمة . قطع الفلين والريش ، جرّبها في كل الأشكال والأحجام ، أو قطعها من جديد ، سوى قطع الرصاص الصغيرة ذات الأوزان المختلفة بالمطرقة ، ثم هيّأها كقطع لتثقيل الخيوط . بعد ذلك جاء دور السنانير التي لم يبق منها إلا احتياطي قليل . ثبّت قسماً منها على خيط رباعي أسود عادي ، وقسماً على بقية من وتر أمعاء وقسماً آخر على خيط شعر حصان مفتول . حوالي المساء كان كل شيء قد تم إنجازه . واطمأن هانز على عدم شعوره بالملل خلال العطلة الطويلة التي ستستغرق سبعة أسابيع ، حيث سيمضي بسنارته اليوم عند ضفة النهر .

الفصل الثاني

هكذا ينبغي أن تكون العطلة الصيفية! كانت السماء ترتفع فوق الجبال بلون يختلط فيه الأزرق والأصفر ، وعلى مدى أسابيع تواصلت الأيام المشمسة الحارة يوماً بعد آخر ، وبين الحين والآخر يسود جو ممطر عاصف لا يستمر إلا فترة قصيرة . ومع أن النهر كان ينساب خلال الكثير من الصخور الرملية والظلال الصنوبرية والوديان الضيقة فإن الدفء كان يصل حداً يستطيع المرء فيه أن يسبح حتى في أواخر المساء . كان حول البلدة الصغيرة يفوح عبق الحشائش ورائحة حصاد الموسم الثاني ، وكانت الحزم النحيفة لبعض كميات محصول الذرة قد تحولت إلى اللون الأصفر والبني الذهبي ، وعند جداول النهر ترتفع بطول قامة الإنسان الشجيرات المخروطية البيضاء التي تتفتح أزهارها على شكل مظلّة غالباً ما تغطيها الخنافس ، وتُصنع من سيقانها المجوّفة النايات والغلايين . وعند طرف الغابة تتباهى في صف طويل وأبّهة ملكية الأزهار الصوفية الساطعة باللون الأصفر ، التي تدعى بـ«الشموع الملكية» حيث تتمايل على مدى الأفق بكسل على سيقانها الطويلة اللزجة فتغطي كل المنحدرات بضيائها الأحمر البنفسجي . وتبرز من تحت أشجار الصنوبر في الأسفل ، بوقار ودهشة ، نباتات الكستبان الحمراء السامّة العالية المنتصبة ذات الأوراق الفضية الصوفية العريضة المعرورقة والسيقان المتينة ، وكؤوس زهراتها المرتبة بشكل متسلسل

إلى الأعلى تشعّ باللون الأحمر الجميل . وإلى جانبها كانت هناك أصناف عديدة من الفطر : الاسفنجي الأحمر الفاقع ، الحجري الضخم العريض ، الأصفر السام ، المرجاني الأحمر الكثير الفروع ؛ والهليون الشربيني الغريب ، العديم اللون والسميك اللاذع . وكانت تتلألأ على الحافات الكثيرة القاحلة بين الغابة والمرعى شجيرات الأنكليكا الصلبة ذات الأزهار الصفراء المشعّة ، ثم الحزم الطويلة لشجيرات أجراس الحقل « أريكا » الحمراء البنفسجية ، إضافة إلى كل هذا تأتي الحقول ذاتها ، التي عادة ما تنتظر موسم حصادها الثاني وهي مغطاة بالعشب البري ، القرنفل الشمسي والأعشاب المحملة بالزيوت الأثيرية والمواد الشمعية والأعشاب القشرية الخشنة . وفي الغابة النفضية كانت طيور « الفرتكيلا » تغرد بلا توقف . أما في غابة أشجار التنوب فقد كانت السناجب الحمراء تتراكض خلال قمم الأشجار ، وعند حافات الأسطح والجدران والقبور القديمة تتنفس وتلتمع السحالي الخضراء بعذوبة في الجو الدافئ ، وهناك في الحقول يتعالى أزيز الجنادب المدوي الذي لا يعرف الكلل . كانت البلدة في هذا الوقت توحي بانطباع فلاّحي ؛ عربات العشب ، رائحة العشب ومناجل الحصاد تملأ الطرقات والهواء ؛ لو لم يكن في البلدة هذان المصنعان لظن المرء أنه يعيش في قرية .

في الصباح الباكر من اليوم الأول للعطلة ، كان هانز يقف في المطبخ نافد الصبر بانتظار القهوة في الوقت الذي لم تكد العجوز « آنّا » قد أفاقت بعد . ساعدها في تحضير النار ، جلب الخبز من الجرن ، دفع في جوفه سريعاً القهوة المبرّدة بالحليب ، ثم دسّ في جيبه قطعة من الخبز وانطلق مسرعاً إلى الخارج .

توقف عند أعلى جسر سكة القطار وأخرج من جيب بنطلونه علبة صفيح مدوّرة وبدأ متحمساً بصيد الجراد النطّاط . مرّ القطار من أمامه ، ولكن على مهل تام حيث الخط يرتفع هناك بشدّة . كانت فيه نوافذ كثيرة مفتوحة ، وفي داخله عدد قليل من المسافرين ، مضى مخلفاً وراءه سحابة مبهجة من الدخان ، سرعان ما تحولت إلى ضباب متموّج .

لاحق هانز بنظراته وراقب كيف يتماوج الدخان الأبيض ثم يتلاشى سريعاً في السماء الصافية المبكرة . ترى كم فاته من الوقت لم يشاهد فيه كل هذا! سحب نفساً عميقاً وكأنه يريد أن يعوّض عن الزمن الضائع ويعود بلا حرج أو كلفة إلى ذلك الصبي الصغير .

كان قلبه يخفق بسرور خفي ومرح صيّاد حينما سار ومعه علبة الجراد وسنارة الصيد الجديدة فوق الجسر ، ثم إلى المؤخرة وعبر الحدائق حتى وصل إلى بركة الجياد ، وهي أعمق موقع من النهر . كانت هناك بقعة يستطيع فيها أن يستند على جذع شجرة صفصاف ويصطاد السمك بهدوء لا يتوفر في أي مكان آخر . حلَّ الخيط وثبّت عليه كرة صغيرة من عجينة البرغل والذرة ثم سيّخ بقسوة جرادة سمينة على الشصّ ورمى السنارة لمسافة بعيدة باتجاه وسط النهر . وبعد ذلك بدأت اللعبة القديمة المعروفة : الأسماك الشفافة الصغيرة أخذت تحوم بأسراب حول الطُعم وهي تحاول انتزاعه من الشصّ . التُهم الطُعم في الحال . وجاء دور الجرادة الثانية ، ثم واحدة أخرى ، ورابعة وخامسة . كان يثبتها بحذر في الشصّ ، أخيراً أثقل الخيط بعجينة أخرى من البرغل . الآن جاءت السمكة الأولى تحاول التهام الطُعم ثانية . سحبته قليلاً ، أخلته ، أعادت المحاولة . ثم قضمت - يمكن للصياد الماهر أن يتحسس من خلال الخيط والسنارة الاهتزاز الذي ينتقل إلى اليد! جذب هانز جذبة فنية وأخذ يسحب بحذر تام . استقرت السمكة ، عندما تراءت له تعرف على سمكة « روتاجه » ، تعرف عليها حالاً من خلال قوامها العريض الأبيض الأصفر اللامع ، ورأسها المثلث ، وبخاصة اللاحقة اللحمية الحمراء الجميلة للزعانف البطنية . كم يقدّر وزنها ؟ وقبل أن يخمن خبطت بشكل يائس ، وأخذت تموج فوق سطح الماء وحرّرت نفسها . دارت ثلاث أو أربع مرات في الماء ثم اختفت كالبرق الفضي في الأعماق . لقد قضمت الطُعم ، ولكن بشكل غير موفّق .

انبعثت الآن في الصياد روح الإثارة والحماس المتقد للصيد . علّق نظراته بحدة وثبات على الخيط البني الرفيع الذي يمسّ الماء ، كان متورّد

الوجنتين ، مقتصداً في حركاته ، متوثباً وواثقاً من نفسه . جاءت سمكة أخرى من أسماك الـ« روتاجه » ، قضمت الطُعم وبرزت إلى الخارج ، ثم سمكة مشطية تثير الشفقة ، ومن بعدها ثلاث من الأسماك الزاحفة واحدة بعد الأخرى . سُرَّ للأسماك الزاحفة خاصة ، ذلك أن والده كان يفضل طعامها كثيراً . كانت لها أجسام سمينة ، حراشف صغيرة ، رأس كبير وذقن أبيض مضحك ، ولها عيون صغيرة ومؤخرة نحيفة . كان لونها يتراوح بين الأخضر والبني ويتحول عندما تكون على اليابسة إلى اللون المعدني الأزرق .

خلال هذه الأثناء ارتقت الشمس إلى الأعلى ، وكانت رغوة المياه عند الحاجز المائي تتلألأ بيضاء كالثلج ، وفوق الماء يتموّج الهواء الساخن ، وإذا ما رفع المرء بصره إلى الأعلى فإنه سرعان ما سيجد فوق الجبل الهادئ « موكبرغ » بضع سحب صغيرة تخطف الأنظار . أصبح الجو حاراً . لاشيء يفصح بتلك الشدة والوضوح عن حرارة يوم صاف من أيام منتصف الصيف مثلما تفصح عنه بضع سحب صغيرة بيضاء متوقفة عند منتصف ارتفاع السماء ، وهي مملوءة ومشبعة بالنور إلى الحد الذي يتعذر فيه على المرء أن يطيل النظر فيها . وعند غيابها لا يمكن إطلاقاً معرفة مدى حرارة الجو ،إن كان من خلال السماء الزرقاء أم من تلألؤ صفحة الماء . وحالما تُشاهد عدّة سحب شراعية بيضاء متجمعة وقت الظهر ، يشعر المرء فجأة بحرقة الشمس ، فيهرب باحثاً عن الظلال ويمرّر يده فوق جبينه المتصبب عرقاً .

تضاءل حماس هانز بالصيد تدريجياً . شعر بقليل من التعب ، وفي كل الأحوال كانت رغبة الصيد تتوقف تقريباً عند الظهر . كانت أسماك « الشبوط » وكذلك الأسماك القديمة والكبيرة تظهر في هذا الوقت عند السطح لأخذ « حمام شمسي » . تسبح حالمة في مجاميع كبيرة غامقة عكس تيار الماء وبالقرب من السطح تماماً ، وبين لحظة وأخرى يعتريها الفزع بلا سبب واضح وتنطلق ولكن ليس للبحث عن فرائسها .

علّق خيط السنارة على أحد أغصان شجرة صفصاف وتركه يتدلى

بعيداً عن سطح الماء ، ثم جلس على الأرض وأخذ يتطلع إلى النهر الأخضر . جاءت الأسماك تباعاً إلى الأعلى ، ظهر أسود إثر آخر يلوح عند السطح ، أسراب صامتة ، فاتنة ، تعوم بهدوء ، مأخوذة إلى الأعلى ، نحو الدفء . تلك هي من تستطيع أن تنعم بالماء الدافئ! خلع هانز حذاءه ، تاركاً قدميه تتدليان في الماء الفاتر عند السطح . كان يتأمل الأسماك السجينة التي تسبح في الإناء الكبير وتخبط هنا وهناك بصوت واطئ . كم هي جميلة! بيضاء ، بنية ، خضراء ، فضية ، ذهبية باهتة ، زرقاء وألوان أخرى زاهية تسطع عند كل حركة من حركات حراشفها وزعانفها .

ساد سكون شامل . بات من النادر سماع صوت العربات التي تمرّ فوق الجسر ، وكان صوت صرير أجنحة الطاحونة لا يُسمع من هنا إلا ضعيفاً ، واهناً . فقط الصوت المستمر الناعم للحاجز المائي الأبيض بفعل رغوة المياه كان يهدر هادئاً ، خافتاً ، ناعساً ، وعند القوائم الخشبية له كان يُسمع الصوت الرقيق لاضطراب المياه المنسحبة .

دروس اللغة اليونانية واللاتينية ، النحو وقواعد اللغة ، الحساب والمذاكرة وكل الضجيج العذب لعام دراسي طويل ، مقلق ومثير تغوص الآن بهدوء في عمق الزمن الغافي الدافئ . كان هانز يحسّ ببعض الصداع ولكن ليس بتلك الشدة المعهودة ، الآن توفّر له الجلوس مرة أخرى عند النهر ، تطلّع إلى الزبَد عند الحاجز الذي يرذّ بالماء ويكشف عن خيط السنارة ، وإلى جانبه تسبح الأسماك السجينة في الإناء . كم هي ساحرة وفاتنة . ثم فجأة تذكر أنه قد نجح في الامتحان وحقق المركز الثاني ، وهنا صفّق بقدميه العاريتين في الماء ، دسّ يديه في جيبي بنطلونه وأخذ يصفّر بلحن ما . لم يكن في الحقيقة قادراً على الصفير بشكل سليم وجيد ، الأمر الذي كان يشكل مصدر إزعاج له ويبعث على سخرية زملاء دراسته منه . كان يستطيع فقط أن يطلق صفيراً من خلال أسنانه وبصوت واطئ ، وهذا ما يفي بحاجته في المنزل ، لكنما الآن لا يسمعه أحد إذا ما صفّر . في هذه اللحظة كان بقية التلاميذ

يتواجدون في المدرسة ، وبالذات في درس الجغرافيا ، وكان هو الشخص الوحيد من بينهم الذي ينعم بالحرية والانطلاق . لقد تجاوزهم ، خلّفهم وراءه ، لقد سببوا له الكثير من المتاعب ، وباستثناء أوغست لم يتخذ من بينهم صديقاً آخراً ، لم يكن يشعر بمتعة حقيقية أثناء عبثهم ولعبهم ، فلهم الآن أن يعذروه ، هؤلاء الكلاب الأغبياء . شعر باحتقار شديد نحوهم بحيث أنه توقف لحظة عن الصفير وزمَّ شفتيه . بعد ذلك لفّ خيطه ، واضطر إلى الضحك لعدم وجود قطعة واحدة من الطُعم في الشصّ . أطلق سراح ما تبقى في العلبة من الجراد الذي تسلّل بحذر وتثاقل إلى الحشيش القصير . حلّ موعد استراحة الظهر في المدبغة التي إلى جواره ؛ آن أوان الذهاب لتناول طعام الغداء .

يكاد الصمت أن يكون مخيماً على مائدة الطعام .

« هل اصطدت شيئاً ؟ » قال الأب .

« خمس قطع »

« يا سلام ، هكذا ؟ عليك أن تحذر وتصطاد من الأسماك الكبيرة وإلا لا يبقى الكثير من الأسماك الصغيرة » .

لم تتجاوز المحادثة أكثر من هذا . كان الحر شديداً . ومن المؤسف أن لا يُسمح له بالسباحة بعد الطعام مباشرة . لِمَ في الحقيقة ؟ لأنها مضرّة! هل تسبب الضرر حقاً ؟ كان هانز يعلم ذلك جيداً ، لكنه رغم المنع فقد ذهب عدة مرات إلى السباحة . أما الآن فإن الحالة مختلفة ، لقد أصبح أعلى منزلة من هذه الأعمال الصبيانية . رباه ، لقد خوطب بصيغة الاحترام « أنتم » أثناء الامتحان .

لم يكن من السيئ إطلاقاً الاستلقاء لساعة من الزمن في الحديقة ، تحت أشجار التنوب الفضية . كانت هناك ظلال وفيرة ، وبوسع المرء أن يُطالع أو يمتّع نفسه بمشاهدة الفراشات . استمر جالساً في الحديقة حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، لا يفتقر إلى شيء ، وكاد أن يغفو . والآن

إلى السباحة! كان في موقع السباحة عدد من الصبية الصغار ، أما الكبار فقد كانوا في المدرسة . نظر إليهم هانز بعطف قلبي . خلع ملابسه بهدوء شديد وتسلل إلى الماء . كان يعرف كيف يتمتع بالدفء والبرودة بشكل متبادل ؛ مرة كان يعوم لفترة قصيرة ثم يغوص ويصفق الماء بيديه وأخرى يخرج من الماء ويستلقي على بطنه عند الضفة حيث يدع جلده يجفّ سريعاً تحت لهيب أشعة الشمس . كان الصبية الصغار يحومون حوله وينظرون إليه نظرات مليئة بالاحترام . أجل ، لقد أصبح الآن من المعروفين ، ومميزاً عن الآخرين . على الرقبة النحيفة التي لوّحتها أشعة الشمس كان ينتصب بتلقائية ورشاقة الرأس الرقيق ذو الوجه المفكّر والعينين المتأملتين . وبالمناسبة فقد كان هانز ضعيفاً جداً ، نحيل القسمات رقيقها ، وكان بمقدور المرء أن يحصي عدد الأضلاع البارزة في جانبي صدره وظهره ، وكانت عضلتا ساقيه ضامرتين تماماً .

أمضى حوالي كل وقت بعد الظهر بين الماء واليابسة ، رواحاً ومجيئاً . بعد الساعة الرابعة جاء على عجل وضوضاء أغلب زملاء فصله .

« أوه ، جيبنرات! يا لك الآن من سعيد الحظ » .

تمطّى بشيء من الارتياح « لابأس ، أجل » .

« متى تذهب إلى الحلقة الدراسية ؟ » .

« في سبتمبر ، الآن لديّ عطلة » .

كان موضع حَسَد الجميع . لم تحركه قط المزحة التي انطلقت عالياً من الخلف ، حينما أنشد أحدهم البيت التالي :

« آه ، لو كنت مثل العمدة ليزابيث* ،

أرقد أثناء النهار في البيت ،

* في الأصل بلهجة منطقة شفابن الألمانية .

لكن هيهات . . . » .

ضحك فحسب . أثناء ذلك خلع الصبية ملابسهم . قفز أحدهم بلا تردد في الماء ، كان بعضهم يبلّل نفسه قبل الدخول إلى الماء ، والبعض الآخر يتمدد على الحشائش قبل البدء بالسباحة . هلّل أحد الغطاسين الماهرين حينما اندفعت سمكة شوكية سامّة بشكل خاطف في الماء وصاح «النجدة» . . . أخذ بعضهم يطارد البعض الآخر ، وبدأوا يتراكضون ويسبحون وينثر بعضهم الماء على أجساد المستحمين الذين يجلسون على اليابسة . اشتد الخبط والزعيق . كانت مساحة عرض النهر تسطع بالأجساد المشعّة ، المبلّلة اللامعة . بعد مضي نصف ساعة على ذلك غادر هانز المكان .

حلَّ وقت المساء الدافئ ، حيث يطيب للأسماك تناول وجبة أخرى من الطعام . واصل صيده على الجسر حتى موعد العشاء ، وأخذه حماس الصيد بشكل لم يعهده من قبل . كانت الأسماك تلهث وراء السنارة ، وتلتهم الطُعم في كل لحظة ولا يبقى منه شيئاً عالقاً ، كان يضع في الشصّ حبات كرز كبيرة لكي تشاهدها الأسماك بوضوح . أخيراً توقف ، وقرر إعادة المحاولة في وقت آخر .

أُخبر أثناء تناول الطعام أن عدداً من المعارف جاؤوا لتهنئته ، لكنهم لم يجدوه . طالع الصحيفة الأسبوعية لهذا اليوم ، واستوقفته في زاوية «الرسميات» الملاحظة التالية :

«لامتحان القبول المقرر للحلقة الدراسية الدينية أرسلت بلدتنا هذه المرة مرشحاً واحداً فقط : «هانز جبينرات» . ببالغ السرور علمنا تواً أن المذكور أعلاه قد اجتاز الامتحان ونال المركز الثاني» .

طوى الصحيفة ، دسّها في جيبه ولم يقل شيئاً ، لكنه كان على وشك الانفجار لشعوره العظيم بالفخر والابتهاج . عاد إلى الصيد ثانية . في هذه المرة أخذ معه كطعم بعض قطع من الجبن ؛ كانت تروق للأسماك وتلاحظها بشكل جيد وقت الأصيل .

تخلى عن السنارة ، وأخذ معه شصاً يدوياً بسيطاً . كان هذا النوع من الصيد أحبّ الأنواع إلى نفسه : إمساك الخيط بدون عصا أو عوامة ، بحيث أن كل العملية تتألف من خيط وشصّ فقط . كانت العملية مرهقة قليلاً ، لكنها تحفل بكثير من المتعة . بهذه الطريقة يمكن للمرء السيطرة على أقل حركة تصدر من الطُعم ، ويحس بكل محاولة أو عملية التهام ، وبمقدوره عندما يتحرك الخيط مراقبة السمكة كما لو أنه يشاهدها أمامه . ومن الطبيعي لمن يريد اتباع هذه الطريقة عليه أن يمتلك يداً حاذقة وانتباهاً شديداً لا يقارن إلا بانتباه جاسوس .

خيّم الغسق مبكراً فوق الوادي النهري ، المتعرّج ، العميق الأخدود . كان الماء يرقد أسود ساكناً تحت الجسر ، وفي الأسفل ، عند الطاحونة لم يزل هناك بعض ضياء . كانت أصوات الأحاديث والغناء تصل عبر الجسر والأزقة ، الهواء ثقيلٌ نوعاً ما ، وفي النهر كانت تقفز بين لحظة وأخرى إحدى الأسماك الداكنة قفزة صغيرة إلى الأعلى . في مثل هذه المساءات كانت الأسماك تبدو مستثارة بشكل ملحوظ ، تنطلق مسرعة هنا وهناك ، تتطاير في الهواء ، تندفع إلى خيط الشصّ وترمي نفسها عشوائياً على الطُعم . حينما نفدت آخر قطعة صغيرة من الجبن كان هانز قد اصطاد أربع سمكات من سمك البني ؛ وهي الأسماك التي يريد أن يقدمها غداً إلى القس .

هبّت ريح حارة باتجاه منحدر الوادي . أصبح الظلام حالكاً ، لكن السماء لا تزال مضيئة . لم يكن يبرز من المدينة الغارقة بأكملها في الظلام غير برج الكنيسة وسطح القصر ، سوداوين وحادين في الفضاء الساطع ، وهناك في مكان ما بعيد كانت تبرق وتمطر ، ويُسمع بين الحين والآخر صوت رعد خافت يأتي من البعد .

حينما اعتلى هانز سريره في الساعة العاشرة أحسَّ بسريان خدرٍ لذيذ ناعس في رأسه وأعضائه لم يحس به منذ زمن بعيد . كانت تنتظره باطمئنان وإغراء أيام كثيرة جميلة حرة من أيام العطلة الصيفية ، أيام للتمشي ، للسباحة ، للصيد ، للأحلام . أمر واحد فحسب كان

يقضّ عليه مضجعه هو عدم نيله المركز الأول في الامتحان .

في وقت مبكّر من قبل الظهر كان هانز يقف أمام ثقب المفتاح في بيت قس البلدة ، حيث يريد تسليم سمكاته . خرج القس من حجرة دراسته .

« آه ، هانز جيبنرات! صباح الخير! أهنئك ، أهنئك من الأعماق- ماذا لديك هنا ؟ » .

« بضع سمكات فقط ، اصطدتها يوم أمس » .

« آه ، انظر ماذا يوجد هنا! جميل الشكر . والآن تفضل بالدخول » .

دخل هانز غرفة الدراسة المعروفة لديه جيداً . كانت في الحقيقة لا يبدو عليها الحجرة التي تناسب قساً . الرائحة المنبعثة منها لا تكشف عن البخور أو التبغ . مجموعة الكتب الثمينة تدلّ بوضوح على أنها جديدة ، نظيفة ، ملمّعة وذات أغلفة مذهبة ، ولم تكن مثل تلك المجلدات المهملة ، المعوجّة والمعرورقة التي يجدها المرء عادة في مكتبات القساوسة .

وإذا ما تطلّع المرء بدقة فإنه سيلاحظ أيضاً عناوين الكتب المرتبة ترتيباً أنيقاً ، تعود لفكر جديد ، فكر آخر يختلف عن ذلك الذي عاش في زمن السادة المحترمين القدماء من الجيل المنقرض . إن المؤلفات الأثرية القيمة لمكتبة دينية مثل مؤلفات بنغل ، أو تينغر ، شتاينهوفر التي تحتوي على أناشيد مغنين دينيين كالذين أشاد بهم موريكه* في « ديك البرج » لا وجود لها هنا ، أو أنها مختفية بين مجموعات المؤلفات الحديثة . وعموماً فإن محافظ المجلات ، المنضدة العالية ، طاولة الكتابة الكبيرة التي يمكن ثني أضلاعها كانت كلها تبدو عليها آثار العلم والجدّ . كان الجو يوحي بوجود أعمال كثيرة ينتظر إنجازها ، وأعمال

* موريكه : شاعر ألماني من العصر المتأخر .

أخرى أيضاً قد تم إنجازها بالفعل . من الطبيعي أن يكون نصيب كتب الواعظ والتعليم الديني ودروس الكتاب المقدس أقلّ من البحوث والمقالات المكتوبة للمجلات التعليمية والدراسات الأولية في الكتب الخاصة . وقد استُبعد من هذا المكان التصوّف الحالم والتأمل الداخلي ، وكذلك التدين العاطفي الذي ابتعد كثيراً عن مداخل العلم واتجه صوب نفوس الناس العطشى بإثارته للحب والشفقة وبدلاً من ذلك كله فإن العمل يجري هنا بجهد وحماس على نقد الكتاب المقدس والدفاع عن «تاريخ المسيحية» .

هكذا إذن الحال مع الدين ، ليس هناك أكثر مما هو موجود . هناك دين فن وآخر دين علم ، أو على الأقل يطمح في أن يكونه . لقد كان الحال في القديم كما هو شأنه اليوم ، وكان العلماء غالباً ما يهدرون النبيذ القديم من خلال الخراطيم الجديدة ، فيما كان الفنانون يقومون بلا أدنى عناء ، عند حدوث بعض الهفوات الظاهرية ، بدور المواسين الصامدين وصانعي الفرح لكثير من الناس . إنه صراع غير متكافئ بين النقد والخلق ، بين العلم والفن ، حيث الكل يجد نفسه على حق ، دون أن يخدم بذلك أحداً ، ويسعى على الدوام بنشر بذور الإيمان والحب والمواساة والجمال والإحساس بالخلود ، ودائماً ما يجد الأرض الصالحة لها . ذلك أن الحياة أقوى من الموت ، والإيمان أعظم من الشك .

لأول مرة يجلس هانز على الأريكة الجلدية الصغيرة الواقعة بين المنضدة العالية والنافذة . كان القس لطيفاً للغاية . بروح صداقية غامرة تحدث عن الحلقة الدراسية وعن طبيعة الحياة والدراسة في الدير المنتظر .

«الجديد والمهم» قال أخيراً «الذي ستجده هناك هو المدخل إلى الوصية الجديدة في اللغة اليونانية . سيشرق عليك من خلالها عالم جديد ، حافل بالكثير من العمل والمتعة . في بداية الأمر سيكون عليك بذل أقصى الجهود في اللغة ؛ إنها ليست لغة أتيكا* اليونانية ، بل لغة

* اتيكا : جزيرة يونانية ، يتكلم أهلها لهجة يونانية خاصة ، تتميز بروح النكتة والفكاهة .

جديدة . انبثقت من فكر جديد » .

أصغى هانز بانتباه شديد ، وشعر بالفخر من اقترابه إلى العلم الحقيقي « إن المدخل التعليمي لهذا العالم الجديد » استطرد القس « له في بعض الأحيان سحره الخاص . لعل ما سيشغلك في الحلقة الدراسية بالذات درس اللغة العبرية . إن كنت ترغب تستطيع أن نبدأ في هذه العطلة بداية صغيرة . سترتاح بعد ذلك في الحلقة الدراسية ، حيث ستوفّر الوقت والجهد للدروس الأخرى . من الممكن أن نقرأ معاً بضعة أجزاء من إصحاح لوقا ، وفي الوقت ذاته سيتيسر لك الإلمام قليلاً بموضوع اللغة . من الممكن إعارتك قاموس اللغة . إذن يمكن الاتفاق يومياً على ساعة من الدرس ، أو ساعتين على أكثر تقدير . ولكن ليس أكثر من ذلك . إذ عليك قبل كل شيء التمتع بعطلتك التي تستحقها عن جدارة . إن ما أطرحه عليك هو مجرد اقتراح فقط ، ليس بودي طبعاً أن أفسد عليك الإحساس الجميل بالعطلة » .

من الطبيعي أن يوافق هانز على هذه المقترحات ، غير أن درس لوقا هذا قد ظهر له كالسحابة الشفافة في سماء حريته الرائعة المشرقة ، وامتلكه الخجل من أن يرفض ذلك . إضافة إلى هذا فإن تعلم لغة جديدة أثناء العطلة كان بالتأكيد أكثر متعة من العمل . لا ريب أنه كان يحس بقليل من الخوف أمام العديد من المواد الجديدة التي سيُقبل عليها في الحلقة الدراسية ، خاصة درس اللغة العبرية .

بشعور لا يخلو من القناعة والرضا غادر هانز غرفة القس ، وأخذت قدماه تطرقان الأرض خلال طريق الأشجار الشوكية باتجاه الغابة . نسي ما عكّر مزاجه قبل قليل ، وكان كلما أمعن الفكر في المسألة ، كلما لقيت قبولاً متزايداً لديه ، حيث كان يعلم جيداً ما سيترتب عليه في الحلقة الدراسية من عمل مثابر وعنيد إذا ما أراد أن يتفوق على زملائه حقاً . وهذا ما كان يطمح إليه بالضبط . ولكن لماذا في الواقع ؟ إنه ذاته لا يعلم . فمنذ ثلاث سنوات كانت الأنظار جميعاً متجهة إليه : المعلمون ، القس ، الأب ، وناظر المدرسة بشكل خاص . كانوا جميعهم

يثيرون فيه روح التوثّب والحماس ، ويحبسون عليه أنفاسه . كان دائماً الأول على فصله بلا منازع ، والآن تمتم عليه كبرياؤه أن يكون في المقدمة أيضاً ، ويتحدى من يقف أمامه منافساً وبخاصة بعدما اختفى منه شعور الخوف الغبي من الامتحان .

أن يتمتع بالعطلة فهذا في الواقع أجمل ما كان يتمناه : كم هو مفرح أن تعود الغابة لجمالها الأخّاذ مرة أخرى في ساعات الصباح هذه ، حيث لا وجود لمتنزه آخر سواه! صفوف من أشجار التنوب تمتد بعضها جنب بعض ، ممرات لا تنتهي يغطيها لون أزرق يميل إلى الأخضر . كان هناك دغل قليل ، تنتشر فيما بينه نشارة سميكة من التوت الشوكي ، تقابلها أرض طحلبية رخوة ، فطرية واسعة تتألف من جذور الكرز البري ونباتات الأريكا . كان الندى قد تبخّر ، وبين الجذوع القائمة كالمسمار يتماوج هواء الغابة الصباحي الغريب الذي تمتزج فيه حرارة الشمس وبخار الندى وأريج الأعشاب ورائحة التبغ وأشواك التنوب والفطر الذي يلتصق متملقاً ، عذباً وبحذر رقيق مع كل الأحاسيس . ألقى هانز نفسه على الطحالب ، ارتمى على شجيرات الكرز الأسود الكثيف ، أصغى لنقّار الخشب وهو ينقّر على الجذوع وإلى أصوات طيور الوقواق الغيورة . كانت السماء تطل من بين قمم أشجار التنوب الغامقة زرقاء صافية ، وفي البعد تتزاحم عمودياً آلاف مؤلفة من الجذوع لتشكل جداراً مهيباً بنيّ اللون ، وتتناثر هنا وهناك على الأعشاب بُقع شمسية صفراء حارة ، لامعة .

كان هانز في الواقع يودّ القيام بنزهة طويلة تمتد على الأقل حتى ساحة «لوتسل» أو حقل الزعفران ، غير أنه استلقى الآن على الأعشاب ، وأخذ يأكل الكرز الأسود ويحدق في الهواء . راعهُ الإجهاد الكبير الذي أصابه . كانت جولاته في الماضي تستغرق ثلاث أو أربع ساعات ولا يشعر خلالها بشيء من التعب . أخيراً قرّر أن يستجمع قواه ويقوم بجولة مفيدة ، فخطا بضع مئات من الخطوات ثم استلقى ثانية على العشب وهو لا يدري كيف يحدث له ذلك . ظل مستلقياً ، وزاغ بصره

شارداً خلال الجذوع وقمم الأشجار والأرض الخضراء . آه ، كم يبعث هذا الهواء على النعاس!

عند طريق عودته إلى البيت حوالي الظهر ، أحسّ بالصداع مرة أخرى . كانت عيناه تؤلمانه أيضاً ، وفي ممر الغابة رأى الشمس تخطف البصر وتبعث فيه الاضطراب . أمضى نصف وقت بعد الظهر ضجراً في البيت ، وبعدما استحم عاد إليه نشاطه . والآن حان موعد الذهاب إلى القس .

في طريقه إلى القس شاهد الاسكافي فلايغ الذي كان جالساً عند نافذة ورشته على كرسي ذي ثلاثة أرجل . ناداه للدخول .

« إلى أين يا بُني ؟ لم نعد نراك! »

« يجب أن أذهب الآن إلى القس » .

« أما زلت حتى الآن ؟ الامتحان وقد انتهى » .

« أجل ، لكنْ هناك موضوع آخر . الوصية الجديدة . لقد ترجمت إلى اللغة اليونانية ، وهي لغة يونانية تختلف تماماً عن تلك التي تعلمتها . وهي اللغة التي ينبغي أن أتعلمها الآن » . سحب الاسكافي طاقيته بعيداً خلف رأسه ، وقطّب جبينه الذي تحوّل إلى تغضنات سميكة . تنهّد ثقيلاً .

« هانز » قال بصوت خافت « أودّ أن أسرّ لك بشيء . لقد التزمت الصمت حياله حتى الآن بسبب امتحانك ، لكنني الآن يجب أن أحذّرك . في الحقيقة ينبغي أن تعلم بأن القس إنسان ملحد . بالتأكيد سيتحدث إليك وسيلفت أنظارك إلى الكتب التي يعدها محض كذبة وخطأ ، وإذا ما كنت تريد أن تقرأ معه الوصية الجديدة فاعلم بأنك ستفقد الإيمان من حيث لا تدري » .

« ولكن يا سيد فلايغ ، الموضوع لا يتعدى أكثر من اللغة اليونانية ، وفي كل الأحوال ينبغي عليّ دراستها في الحلقة الدراسية » .

« هذا ما تظنه أنت . لكن للمسألة وجهين ، وتعتمد على يد من تدرس الكتاب المقدس . أعلى يد مدرس وَرِع تقي أم على يد شخص لم يعد يؤمن بالله العزيز ؟ » .

« أجل ، لكننا لا ندري إن كان لا يؤمن به حقاً » .

« بالتأكيد ، هانز ، إنها للأسف حقيقة » .

« وماذا ينبغي أن أفعل ؟ لقد اتفقت معه سلفاً للذهاب إليه » .

« إذن يجب أن تذهب ، أنا أفهم ذلك . لكنه إن تحدث بما يمسّ الكتاب المقدس وأشار إلى أنه كذبة ومن صنع البشر ولم يبعث من فكر مقدس ، عندئذ تعال إليّ لنبحث في هذا الأمر . هل ستفعل ذلك ؟ » .

« أجل سيد فلايغ . لكنني أعتقد أن المسألة لن تصل إلى هذا الحد » .

« سترى . فكّر بما قلته لك » .

لم يعد القس إلى البيت بعد ، كان هانز يجلس بانتظاره في غرفة الدراسة وفيما كان يتأمل عناوين الكتب المذهّبة تذكر كلمات الأسطة فلايغ . كان قد سمع مرات عديدة بمثل هذه التصريحات التي تدور حول القس وحول الأفكار الحديثة بشكل عام . غير أنه الآن يشعر لأول مرة بأنه قد زَجّ نفسه في هذه المسائل بفضول وترقب . لم تكن مثل هذه المسائل تعني له شيئاً مثلما تعني للاسكافي . وقد وجد الآن الفرصة سانحة ليدس نفسه في هذا السرّ القديم الكبير . ففي سنوات تلمذته الماضية أثارت في نفسه مسألة وجود الله وخلود الروح والشيطان وغير ذلك تأملاً خيالياً ، لكنها تلاشت جميعها في السنوات الأخيرة النشطة الصارمة ، ولم تستيقظ معتقداته المدرسية إلا بعد المناقشات التي أخذت تدور أحياناً بينه وبين الاسكافي حول بعض الأمور الحياتية الشخصية . كان من المضحك أن يقارنه مع القس . لم يستطع الصبي أن يدرك أن مأساة الاسكافي وصراعه هي من أجل كسب قوت حياته خلال السنوات

المريرة ، ومن المناسب هنا التأكيد على أن فلايغ كان يتمتع بذكاء شديد ، غير أنه إنسان بسيط ومحدود الأفق ، وكان دائماً موضع سخرية الجميع بسبب تعصبه الديني . فخلال اجتماعات الجمعية الأخوية كان يطرح نفسه كقاض أخوي متزمت وكمفسّر كبير للكتاب المقدس ، ويتجول في القرى ملقياً دروساً في الإرث ، وفيما خلا ذلك فهو مجرد عامل يدوي بسيط ومحدود مثل بقية الآخرين . أما القس فقد كان على العكس منه تماماً ، ليس لبقاً ومتحدثاً جيداً وخطيباً فحسب ، وإنما مجتهد وعالم ضليع أيضاً . كان هانز يرسل نظره برهبة إلى حيث أعمدة الكتب .

ثم سرعان ما جاء القس ، وغيّر لباسه وارتدى سترة بيت سوداء بسيطة ، ناول التلميذ النص اليوناني لإنجيل لوقا ودعاه لقراءته . كان النص يختلف تماماً عن النص اللاتيني . قرأ جملاً قليلة ترجمت حرفياً بدقة متناهية ، وأوضح القس ببراعة وبلاغة السمات الفكرية لهذه اللغة على ضوء أمثلة مجردة ، وتكلم عن زمن وأسلوب تأليف الكتاب ، ومنح الصبي في درس واحد مضموناً جديداً عن التعلم والقراءة . بهذا تعرف هانز على مدى التعقيد والمهام التي تكمن وراء كل بيت وكلمة ، ومدى الجهود المضنية التي بذلها آلاف من العلماء والمفكرين والباحثين منذ الأزمنة القديمة من أجل هذه العلوم ، وشعر بنفسه في هذا الدرس وقد التحق بدائرة الباحثين عن الحقيقة .

أعاره القس معجم وكتاب قواعد اللغة ، واستمر هانز على العمل طيلة المساء في البيت . الآن فقط أدرك عبر أي جهد من العمل والمعرفة يؤدي الطريق إلى البحث الحقيقي ، وأصبح على استعداد أن يطرق هذا الطريق وليس الاستلقاء عليه . خلال ذلك نسي أمر الاسكافي .

لعدة أيام استمر ينهج هذا المنهج الجديد . في كل يوم كان يذهب إلى القس وفي كل يوم كانت تكشف له المعرفة الحقيقية عن نفسها بشكل أجمل ، وأشقى وأبلغ طموحاً . كان يذهب في ساعات الصباح الباكر إلى صيد السمك ، وبعد الظهر إلى السباحة ، وفيما عدا ذلك لا

يخرج من البيت إلا نادراً .

استيقظ الطموح الذي كان يكمن وراء الخوف والنجاح في الامتحان مرة أخرى وأخذ يقلقه . في نفس الوقت بدأ يثيره ثانية الشعور الخفي في الرأس الذي دائماً ما كان يحسّ به في الأشهر الأخيرة . لم يكن شعوراً بالألم ، بل اندفاع عات لنبض متسارع وجهد مضطرب عنيف ، وتوق جامح منطلق إلى أمام . كان من الطبيعي أن يأتي من أعقاب ذلك الصداع ، وكانت تلك الحمى الرقيقة تدفعه إلى المذاكرة والدرس برغبة شديدة ، فقرأ أعقد الجمل في كتاب أكسينوفون التي كانت تستغرق منه الجملة الواحدة في الماضي ربع ساعة من الوقت ، ولم يعد يستخدم قاموس الكلمات تقريباً ، وأخذ يطوي الصفحات الصعبة بفرح واستيعاب تام وبصيرة نافذة . من خلال حمى العمل المتصاعدة هذه وظمأ المعرفة برز لديه شعور الاعتداد بالنفس ، وكأنه قد تسامى على المدرسة والمدرسين وسنوات الدراسة منذ زمن طويل ، طريقه الخاص نحو قمة العلم والمعرفة .

عاد إليه النوم الهادئ والمتقطع معاً ، الذي تتخلله أحلام في غاية الوضوح والشدة . حينما كان يفيق من نومه في الليالي شاعراً بصداع خفيف يمنعه من مواصلة النوم يستحوذ عليه كبرياء طاغ ومتأمل ، ثم يفكر كم هو أرقى من جميع التلاميذ ، وكيف ينظر إليه المدرسون وناظر المدرسة بعين الاحترام ، بل والدهشة .

من الأسباب الخفية لسرور الناظر هو أن يرى كيف يقود ويرعى هذا الطموح الجميل الذي تبناه . من غير العدل القول ان المدرسين متحجرون ، لا قلب لهم ، أو متحذلقون قساة! أوه ، كلا ، فحينما يرى المدرس كيف تنطلق مواهب طفل ظلت حبيسة لفترة من الزمن ، وكيف يتخلى صبي عن لعبة السيف الخشبي والمقلاع والقوس والنشّاب والألعاب الصبيانية الأخرى ، وكيف تجعله جديّة العمل يتحوّل من صبي فظّ ، منتفخ الأوداج إلى صبي رقيق ، رزين ، يكاد يكون زاهداً ، ووجهه يصبح أكثر نضوجاً وتعقلاً ، ونظراته أعمق وأكثر وعياً ، ويده

أكثر بياضاً وهدوءاً عندئذ تبتهج روحه من الفرح والكبرياء . إن مهمته والمسؤولية المناطة به من قبل الدولة تكمن في أن يكبح في نفوس الفتيان الشباب الاندفاع الفظ ويقتلع الشهوات الفطرية ، ويزرع بدلاً منها المُثل الهادئة المتواضعة المعترف بها اجتماعياً . وبدون هذه التربية والمساعي المدرسية يصبح مثل البعض من المواطنين القانعين في الوقت الحاضر أو الموظفين الطموحين ضيقاً ، مندفعاً ، نكرة أو حالماً حسياً عديم الفائدة! شيء ما فيه ، شيء وحشي ، غير منظّم ، متخلف ، يجب أن يُحطّم ، شعلة خطرة يجب أن تُطفأ ، أن يُداس عليها . إن الإنسان كما خلقته الطبيعة كائن غامض ، خطير ، لا يمكن التكهن به ، إنه تيار مندفع من جبال غير معروفة ، غابة قديمة غير منتظمة ، لا طرق فيها ولا مسالك . ومثل الغابة القديمة يجب أن يُضاء وينظف ويُحدد بعنف ، هكذا يجب على المدرسة أن تكسر شوكة الإنسان البدائي وتنتصر عليه وتحدّه بقوة ؛ ومن مهماتها أن تصيّره عضواً نافعاً في المجتمع وفق الأسس المتعارف عليها وأن توقظ فيه الصفات التي تتوّج تربيتها التامة حينئذ بإنهاء أخلاق الثكنة العسكرية الدقيقة .

يا لروعة التغيير الذي طرأ على الصغير جيبنرات! لقد تخلى عن التسكع واللعب ، وانقطع عن الضحك في الفصل ، وتوقف عن ممارسة البستنة والركض وراء الأرانب وصيد الأسماك المزعج . ذات مساء ، ظهر السيد الناظر فجأة في بيت جيبنرات . بعد أن تملّص بأدب من مجاملات الأب دلف إلى حجرة هانز ، فوجد الصبي منكباً على إنجيل لوقا . حيّاه بودّ .

« هذا جميل منك يا جيبنرات أن تعاود نشاطك مرة أخرى . ولكن لماذا لم تعد تُشاهد بعد ؟ كنت بانتظارك يومياً » .

« كان بودي المجيء » اعتذر هانز « ولكن كنت أنتظر حتى أجلب لكم سمكة جميلة على الأقل » .

« سمكة ؟ أي نوع من السمك ؟ »

« أظن سمكة شبوط أو ما شابه » .

« إذن هكذا ، أجل ، هل عدت إلى الصيد مرة أخرى ؟ » .

« أجل ، تقريباً ، لقد سمح لي الوالد بذلك » .

« هـ . . .م ، هكذا . أتستمتع بالصيد كثيراً ؟ »

« نعم ، بالتأكيد » .

« جميل ، جميل جداً ، تستحق التمتع بعطلتك عن جدارة . هل لديك الآن ربما قليل من الرغبة في الدراسة بعد ؟ »

« أوه ، نعم ، أيها السيد الناظر ، طبيعي » .

« لا أود أن أثقل عليك إذا لم تكن لديك الرغبة الشخصية » .

« نعم ، أيها السيد الناظر ، لدي الرغبة بالتأكيد » .

سحب الناظر بضعة أنفاس عميقة ، مسّد لحيته الناعمة ثم جلس على أحد المقاعد .

« انظر يا هانز » قال « الموضوع كالآتي : إنها تجربة قديمة ، وأعني أن امتحاناً موفقاً غالباً ما يعقبه إخفاق مفاجئ . سيكون عليك في الحلقة الدراسية الاهتمام بعدة مواد دراسية جديدة ، وسيأتي إلى هناك العديد من التلاميذ الذين ذاكروا أثناء العطلة ، أغلبهم ممن لم يبذل جهداً كبيراً في الامتحان ، وسيرتقون فجأة إلى الأعلى على حساب أولئك الذين استلقوا مطمئنين خلال العطلة على أكاليل مجدهم » . تنهّد ثانية .

« والآن أقترح عليك أن تحضّر قليلاً خلال هذه العطلة . طبعاً باعتدال! ولك كل الحق والواجب أن تتمتع ما وسعك . أظن أن ساعة أو ساعتين في اليوم سيكون مناسباً ، وإلا سيجد المرء نفسه وقد مال عن الحظ وعندئذ سيحتاج إلى أسابيع طويلة كي يلحق بالقطار . ماذا تقول ؟ » .

« إنني على استعداد تام أيها السيد الناظر ، ولكن إن كنتم تتكرمون . . . »

« حسناً . في الحلقة الدراسية ستفتح لك اللغة العبرية وبالذات لغة هوميروس عالماً جديداً ، ستتذوقه بمتعة مضاعفة إذا وضعنا له الآن أساساً متيناً وثابتاً . إن لغة هوميروس ذات اللهجة الأيونية القديمة* وعلم عَروضها الهوميروسي تمتلك خصوصية متميزة جداً . إنها عالم قائم بذاته ، وعلى المرء أن يبذل أقصى الجهد والمثابرة إذا ما أراد أن يتذوق هذا الشعر تذوقاً حقيقياً » .

بالتأكيد كان هانز تواقاً للدخول إلى هذا العالم الجديد ، ووعد ببذل أفضل مساعيه .

لكن الخاتمة المكثفة جاءت فيما بعد . تنحنح الناظر وأضاف يقول :

« بصراحة أودّ أيضاً لو أنك تفرغت بضع ساعات لدروس الرياضيات . إنني لا أشك بمقدرتك الجيدة في الحساب ، لكنك لا زلت غير متمكن من دروس الرياضيات . إن الحلقة الدراسية ستبدأ بدرس الجبر والهندسة ، وسيكون من المفيد جداً لو باشرت ببعض الدروس التمهيدية » .

« بالتأكيد ، أيها السيد الناظر » .

« فيما يخصني أنت على الرحب والسعة ، أظنك تعلم ذلك سلفاً . لي الشرف أن أرى منك ما يثمر عن شيء مفيد ، وفيما يتعلق بدرس الرياضيات عليك أن تتوجه إلى والدك بالرجاء ليجري لك دروساً خصوصية لدى السيد المدرس . لعل ثلاثة أو أربعة دروس تكفي » .

« بالتأكيد ، أيها السيد البروفيسور » .

الآن تم وضع برنامج العمل في أبهى صوره ، وكان هانز يشعر

---

* ايوني : نسبة إلى إحدى القبائل اليونانية الرئيسية الثلاث .

بتأنيب ضمير في كل مرة يذهب بها إلى صيد السمك أو التنزه بين الحين والآخر . وها هو الآن أضاف الساعة الاعتيادية المخصصة للسباحة إلى درس الرياضيات .

رغم كل الجهد الذي كان يبذله ، لم تدخل دروس الجبر هذه أي متعة إلى نفس هانز . إن ما يبعث إلى الاستياء حقاً أن لا يذهب في منتصف بعد الظهر القائظ إلى السباحة وإنما إلى حجرة الأستاذ الحارة لكي لا يفعل شيئاً سوى أن يردّد في الجو المعتم الذي يئزّ فيه البعوض ورأسه دائخ وصوته جاف :

أ زائداً ب وأ ناقصاً ب . كان يختفي في جو الغرفة شيء ينم عن صمت شديد ، شيء خانق يمكن أن يتحول في أي لحظة إلى حالة من الكآبة والقنوط . على أية حال وجد في درس الرياضيات ما يدعو إلى التساؤل والدهشة . لم يكن هانز تلميذاً منغلقاً ممن يتقبلون المسائل الرياضية على علاتها ، كان في بعض الأحيان يجد حلولاً جديدة موفقة وذكية ، تدخل المتعة إلى نفسه . إن ما راق له في الرياضيات هو عدم تقبلها للخطأ والتحايل ، ليس فيها احتمالات الانحراف عن الموضوع الأساس والتحوّل عنه بشكل مخادع إلى موضوع جانبي . ولنفس الأسباب راق له أيضاً درس اللغة اللاتينية ، إذ أن هذه اللغة هي لغة واضحة ، واثقة ، صريحة ، لا تعرف الشك إطلاقاً . أما في الحساب فحتى إن كانت جميع النتائج متطابقة فهذا لا يعني في الواقع أنها صحيحة بشكل مؤكد . كانت العمليات الحسابية والدروس التعليمية تبدو له كالتجوال على طريق ريفي منبسط ؛ يتم التقدم فيه كل يوم ، ويستوعب المرء كل يوم شيئاً جديداً لم يستوعبه بالأمس ، ذلك أن المرء لا يستطيع إطلاقاً التقدم إلى جبل ويتطلع أن تنكشف له المناظر مرة واحدة من بعيد .

في دروس ناظر المدرسة كانت هناك بعض الحيوية . أما القس فقد كان يعلم كيف يجعل من اللغة اليونانية الجامدة للوصية الجديدة مادة أكثر جاذبية وبهاءً من تلك اللغة الهوميروسية الفتية الطرية . غير أنه

هوميروس أولاً وأخيراً الذي تستمر مفاجآته ومسراته تظهر مباشرة بعد إشكالاته وتعقيداته الأولى دائماً ويستمر إغراؤه الذي لا يقاوم . كثيراً ما كان هانز يجلس مرتعشاً ، عاجزاً ، متوتراً أمام بيت شعر غامض ، ذي إيقاع جميل ، عسير على الفهم ، ولا يستطيع بما لديه من سرعة استخدام القاموس أن يجد المفاتيح التي تفتح له أبواب الفردوس الهادئ المشرق .

تجمعت لديه الآن الكثير من الواجبات المدرسية ، كان يجلس في بعض الأماسي إلى طاولة العمل ، مأخوذاً بمسألة ما ، حتى وقت متأخر من الليل . كان الأب جيبنرات ينظر إلى هذا الاجتهاد بعين الفخر والاعتداد . ومثل العديد من الناس الآخرين المحدودي الأفق كانت تعشش في رأسه الثقيل عميقاً ، فكرة أن يرى فرعاً من جذعه ينمو إلى الأعلى ، لكي يقدم له طقوس العبادة ويجلّه الاجلال العظيم .

في الأسابيع الأخيرة من العطلة أظهر ناظر المدرسة والقس اهتمامهما وتعاطفهما المفاجئ تجاه الصبي ، فسمحا له بالذهاب إلى التنزه ، وأوقفا دروسهما وأكدا على أهمية دخوله الحياة الجديدة بروح مفعمة بالنشاط والانتعاش .كان هانز قد ذهب بضع مرات إلى صيد السمك . وكان الصداع يلازمه في أغلب الأحيان . كان يجلس بلا تركيز على ضفة النهر الذي يعكس الضوء الأزرق للسماء الخريفية المبكرة . كان الجو ساحراً ، وهذا سبب سروره البالغ آنذاك عندما يحل موعد العطلة الصيفية . لكن سروره الآن أصبح محدوداً بانتهاء العطلة كي يذهب إلى الحلقة الدراسية . حيث الحياة الجديدة والمدرسون الجدد . ولشرود فكره وعدم اهتمامه لم يصطد ولا سمكة واحدة ، وحينما سخر منه الأب ذات مرة حول ذلك تخلى عن الصيد تماماً وأعاد صنارته إلى الخزانة الموضوعة في غرفة السطح .

في الأيام الأخيرة خطر بباله أنه لم يتفقد الاسكافي فلايغ منذ أسابيع عديدة . أرغم نفسه على الذهاب إليه . كان الوقت مساءً والأسطة يجلس عند نافذة غرفة معيشته ، واضعاً طفلاً صغيراً على كل

ركبة من ركبتيه . ومع أن النافذة كانت مفتوحة فقد اندفعت من الغرفة رائحة الجلود ودهان الأحذية لتغمر كل أرجاء البيت . بخجل وضع هانز يده في اليد الخشنة العريضة اليمنى للأسطة .

« وبعد ، كيف حالك ؟ » سأل الاسكافي « هل اجتهدت لدى القس ؟ »

أجل ، كنت أذهب إليه يومياً ، وتعلمت الكثير » .

« ماذا تعلمت ؟ »

« بشكل أساسي اللغة اليونانية ، إلى جانب أشياء كثيرة أخرى »

« أما أن تأتي إليَّ فلا يخطر في ذهنك هذا ، ألَمْ تعد ترغب في المجيء عندي بعد ؟ »

« كلا ، أرغب فعلاً سيد فلايغ ، ولكن لم تتهيأ الظروف المناسبة لذلك . عندي ساعة من الدرس لدى القس بشكل يومي ، ولدى الناظر ساعتان ، وأربع مرات في الأسبوع لدى مدرس الحساب » .

« كل هذا الآن ، في العطلة ؟ شيء غير معقول! » .

« لا أعلم . هكذا يريدون . لكن الدروس لم تكن صعبة » .

« ربما » قال ذلك فلايغ وتناول ساعد الصبي « ما يتعلق بالدروس كل شيء على ما يرام ، ولكن ما أمر هذين الساعدين الفقيرين ؟ وهذا الوجه النحيل ؟ ألا زلت تعاني من الصداع ؟ » .

« أحياناً » .

« غير معقول ، هانز ، وإنه لإثم فوق ذلك . إن من في مثل عمرك ينبغي أن يتمتع بالهواء الطلق والحركة والاستمتاع الحقيقي ، لِمَ تُمنحون العطلة إذن ؟ بالتأكيد ليس للاعتكاف في حجرة ومواصلة الدرس . لم يبق منك سوى العظم والجلد! » .

«على أية حال ستجتاز كل هذا . وما هو مفيد يبقى مفيداً . وكيف سارت الأحوال مع دروس القس ؟ ماذا قال ؟»

«قال الكثير ، ولكن لم يقل ما هو سيئ إطلاقاً . إنه يعرف الكثير جداً» .

«ألم يتحدث ما يحطّ من شأن الكتاب المقدس ؟» .

«كلا ، ولا مرّة واحدة» .

«جيد . دعني أخبرك! من الأفضل أن يُفسد الجسد عشر مرات على أن تُخدش الروح مرة واحدة! أنت تريد أن تصبح قساً في المستقبل ، وإنها لمهنة نادرة ، وتحتاج إلى شباب مثلكم . ربما ستكون أنت الشخص المناسب وتصبح ذات مرة المُعين والمعلم للروح . هذا ما أتمناه من القلب وسأصلي من أجله» .

نهض بثبات ووضع كلتا يديه فوق كتف الصبي .

«لتنعم بالصحة يا هانز ، وليعم عليك الخير! ليباركك الله ويرعاك . آمين» .

إن هذا الاحتفاء والدعاء والخطبة الفصيحة الكلام قد أثقلت روح الصبي وأحرجته . إن القس لا يفعل مثل ذلك حتى عند الوداع .

في غمرة تحضيرات السفر وإلقاء تحايا الوداع أخذت الأيام القليلة المتبقية تمضي بسرعة وهدوء . وكان قد أرسل سلفاً صندوق مليء بالشراشف والبياضات والملابس والكتب ، وتم الآن أيضاً تجهيز كيس السفر . في صباح بارد غادر الأب والابن إلى ماولبرون . إنه لشيء موحش وكئيب أن يغادر المرء موطنه ، وينتقل من البيت الأبوي متوجهاً إلى دير غريب .

الفصل الثالث

في شمال غرب البلاد ، بين التلال المكسوة بالغابات وبين البحيرات الساكنة يقع دير التأهيل الديني مولبرون . من بعيد تلوح للناظر بشموخ ورهبة الأبنية الجميلة القديمة التي تغري المرء بالسكنى لما لها من أبهة وفخامة من الخارج والداخل ، ولما آلت عليه عبر السنين وتطوّرت حتى أصبحت بهذا الشكل الأنيق الذي يتناسب ومحيطها الأخضر الهادئ الجميل . إن من يريد زيارة الدير عليه أولاً أن يدخل عبر الباب المُشرّع الزاهي الذي شُيد وسط جدار عال حيث يصل إلى ساحة فسيحة هادئة . في هذه الساحة تُشاهد نافورة للمياه وأشجار قديمة وقورة ، على جانبيها بيوت صخرية قديمة راسخة ، وفي العمق واجهة الكنيسة الرئيسية وبهوها الساحر من العصر الروماني المتأخر يطلق عليه اسم «الفردوس» . يمتطي سطح الكنيسة المتين برج مدبب مضحك ، ليس بوسع المرء أن يتصور كيف يمكنه حمل الناقوس . إن رواق الدير بحد ذاته عملٌ فنيٌ رائعٌ يضم كتحفة نادرة قبّة النافورة ؛ قاعة الطعام المزيّنة بقوس صلب رشيق ، غرفة المناقشات الخاصة ، غرفة الرهبان ، غرفة إدارة السكن وكنيستان فخمتان تلتصقان معاً . جدران زاهية ، أبنية خارجية ، أبراج ، حدائق ، طاحونة هواء ، دور سكن ، جميعها تحيط بشكل بهيج ومفرح بالمبنى القديم البارز . أما الساحة الواسعة فإنها تغفو هادئة خالية ، تداعبها أثناء هدأتها ظلال أشجارها ؛

وفقط أثناء وقت ما بعد الظهر تمرّ من فوقها مظاهر الحياة بشكل عابر ، حيث تخرج من الدير ثلّة من الشباب وتضيع فوق الساحة الشاسعة ، مثيرة معها بعض الحركة ، فتنطلق من هنا وهناك النداءات والأحاديث والضحكات ، وتلعب بالكرة ثم تختفي بعد انتهاء الحصة بسرعة وبلا أثر خلف الجدران . كان منهم من يظن أن هذه الساحة هي البقعة المشرقة للحياة والمسرّة ، وفيها يمكن أن ينشأ ما هو حياتي ومفرح ، ويستطيع أن يفكر الناضجون والطيبون من الناس بأحلامهم السعيدة ويبدعون الأعمال القيّمة النادرة .

منذ عهد طويل كان هذا الدير النائي الذي يتوارى خلف التلال والغابات قد خصص ليضم تلاميذ الحلقة الدراسية البروتستانتية الدينية ، وليضفي على القادمين الجدد شعور الجمال والراحة ويوفر لهم الإقامة الطيبة ، وفي ذات الوقت ليمنع عنهم تأثيرات المدنية الملهية وحياة العائلة ، وليبعد عنهم الواقع المُسيء لأنشطة الحياة المختلفة . وفي هذا الدير سيتاح للشباب على مدى سنوات عديدة دراسة اللغة العبرية واليونانية ودروس ثانوية أخرى بشكل جاد باعتبارها هدفاً دنيوياً مهماً ، وسيتم تطهير نفوس الشباب الظمأى وتوجيههم نحو الدرس والمتعة المثاليين . ويأتي بالإضافة إلى ذلك عامل مهم آخر هو طبيعة الحياة في القسم الداخلي ، والحاجة إلى التعليم الذاتي والشعور بالانتماء إلى الجماعة . إن هذا المعهد الذي يتكفل معيشة ودراسة تلاميذ الدورة الدراسية يحرص على أن يربي تلامذته كي يصبحوا نخبة الشباب المفكر ممن يمكن الاعتماد عليهم في أية لحظة في المستقبل ، وهي تربية جيدة ومضمونة . وباستثناء بعض الطائشين الذين تعصف بهم أحياناً روح التمرد يمكن للمرء التعرف على كل تلميذ مشارك من منطقة شفابن وهو يمضي في طريق حياته على هذا النحو .

إن التلاميذ الذين كانت لديهم أمهات سينظرون طيلة فترة حياتهم الدراسية في الدير بعين الرضا والامتنان إلى تلك الأيام الخوالي ، حينما كانوا يعيشون تحت ظلال عطف الأم وحنانها . أما هانز فقد كان يفتقد

إلى هذا العطف والحنان ، غير أنه كان يلاحظ الأعداد الكبيرة من الأمهات اللواتي جئن مع أبنائهن ، حيث تيسّر له أن يكوّن مثل هذا الانطباع .

كانت الصناديق والسلال مبعثرة هنا وهناك في الردهات الكبيرة التي تدعى بالعنابر والمحاطة بالخزانات الجدارية ، فيما كان الفتيان وذووهم منهمكين في فتح وترتيب أمتعتهم . كان كل تلميذ قد أُرشد إلى خزانة ملابسه ورفوف كتبه المرقمة في غرفة الدراسة . انحنى الأبناء وذووهم على الأرض لإخراج الأمتعة حينما كان مساعد الأستاذ يتجول بينهم كفارس نبيل ويلقي نصائحه المفيدة عليهم ، بُسطت الملابس المستخرجة وطويت القمصان ونضدت الكتب ورتبت الأحذية والخفوف بالتسلسل . كانت التجهيزات الرئيسية متشابهة بالنسبة للجميع ، حيث أن الحد الأدنى لقطع الغسيل الخاصة وبقية الأدوات المنزلية الأساسية المسموح بها قد حددت سلفاً وفق لائحة معينة .

ظهرت أواني الغسيل المعدنية التي نقشت عليها أسماء التلاميذ ونقلت إلى قاعة الغسيل ووضعت إلى جانبها قطع الإسفنج وقوالب الصابون والأمشاط وفرش الأسنان . وكان كل تلميذ قد جاء معه بمصباح وإبريق كيروسين وأدوات الطعام .

كان الفتيان جميعاً في أشد حالات الانهماك والاضطراب . أما الآباء فلم يكن لديهم سوى الابتسام ومحاولة تقديم المساعدة والتطلع المستمر إلى ساعات جيوبهم ، ومن حين لآخر كان الملل يتسلل إلى نفوسهم فيضطرون إلى السيطره عليها . غير أن روح النشاط كله كانت لدى الأمهات . كنّ يتناولن الملابس والبياضات قطعة قطعة ، يُسَوّين الثنايا ، يسحبن الأشرطة بانتظام ويوزعن القطع بعناية ويجربن وضعها في خزائن الملابس بأكبر قدر من الدقة والعملية . وكنّ أثناء عملهن يوجهن لأبنائهن الإرشادات والاقتراحات الرقيقة .

«يجب أن تترفق بالقمصان الجديدة خاصة ، إن سعرها ثلاثة

ماركات ونصف »

« ابعث لنا بقطع الغسيل كل أربعة أسابيع بواسطة القطار ، وإن كنت على عجل بالبريد . القبعة السوداء لأيام الآحاد فقط » .

امرأة بدينة ، مبتهجة تجلس على أحد الصناديق وتحاول تعليم ابنها كيفية خياطة الأزرار .

« إن شعرت بالغربة » قالت من جانب آخر « فما عليك إلا أن تكتب لي . لن يمر وقت طويل حتى تحين عطلة عيد الميلاد » .

امرأة شابة نوعاً ما ، وجميلة كانت تتطلع إلى خزانة ولدها الصغير وتمرر يدها مربتة فوق كومة البياضات والثياب والسراويل . وحينما انتهت من ذلك أخذت تمسّد ، مدللة شعر صبيها المكتنز الوجه . اكتسى وجه الصبي بحمرة الخجل وتمنّع مرتبكاً يضحك ودسّ ، كي لا يبدو عاطفياً كلتا يديه في جيبي بنطاله . كانت لحظة الوداع أكثر إيلاماً للأم مما هي له .

أما بالنسبة للتلاميذ الآخرين فقد كان الأمر مختلفاً ، كانوا ينظرون إلى أمهاتهم المنشغلات بصمت وحيرة ، ويبدو عليهم وكأنهم يفضلون العودة معهن إلى البيت ثانية . كان الخوف من لحظة الوداع بادياً على الجميع ، والشعور المتنامي للعاطفة والتعلق كان في صراع عنيف مع الخجل أمام الحاضرين من جهة ومع الشعور بالاعتداد العنيد لأول تجربة رجولية من جهة أخرى . كان البعض يود لو يجهش باكياً ، والبعض الآخر يعكس وجهاً لا مبالياً وأفعالاً يظهر فيها أن الأمر لا يعنيه . ورغم كل هذا كانت الابتسامات تعلو وجوه الأمهات .

باستثناء بعض المواد الضرورية والكمالية ، أخرج الجميع تقريباً من صناديقهم كيس تفاح صغير ، سجقاً مدخّناً ، سلة صغيرة من المعجنات وأشياء صغيرة مشابهة . كان أغلبهم قد جاء معه بأحذية التزلج . مشهد مثير كان صاحبه فتى صغير ، نشيط الحركة حينما أخرج قطعة

كاملة من اللحم المقدد لم يستطع إخفاءها إطلاقاً .

كان من السهولة بمكان أن يميّز المرء بين هؤلاء الفتية أيهما جاء مباشرة من البيت وأيهما يقيم من قبل في المعهد والقسم الداخلي . غير أن الاضطراب والتوتر كان يبدو حتى على التلاميذ القدامى .

شارك السيد جيبنرات ولده بفتح الأمتعة بشكل حاذق وعملي . أنهى عمله قبل الآخرين ثم وقف لفترة من الزمن مع هانز ، يشعر بالملل ولا يدري ما الذي يفعله بعد في العنبر . لكنه حينما وجد الآباء في كل زاوية يرشدون ويوجهون والأمهات يواسين وينصحن وأبناؤهم يصغون إليهم بوجل فقد رأى من المجدي أن يدلي هو أيضاً بدلوه ويمنح ولده بضع كلمات قيّمة من أجل شق طريق حياته المستقبلية . فكّر طويلاً بضيق مراوغ جنب الصبي الصامت ثم اندفع فجأة وأفرغ ما في جعبته من الكلام المبجل الذي أصغى إليه هانز بدهشة وصمت ، حتى رأى قساً يقف إلى جواره ويبتسم ساخراً على الخطاب الأبوي ؛ حينئذ خجل القس ونحى الخطيب جانباً وقال لهانز : « إذن ، أليس صحيحاً من أنك سترفع شأن عائلتك ؟ وتطيع أوامر والديك ؟ » .

« أجل ، طبيعي » قال هانز .

صمت الأب وسحب نفساً عميقاً . بدأ يشعر بالملل مجدداً ، وكان يبدو على هانز كما لو أنه كان ضائعاً . فتارة كان ينظر بفضول واكتئاب عبر النافذة إلى الرواق الهادئ ، حيث الوقار والطمأنينة الأثرية المنعزلة تبرزان بشكل متميز وعلى النقيض من اللغط وفوضى الصبية في الأعلى ، وتارة يتأمل بنظرة خجلة الزملاء المنهمكين الذين لا يعرف منهم أحداً حتى الآن . يبدو أن رفيق الامتحان الذي التقاه في شتوتغارد لم يوفق في الامتحان رغم ذكائه الكوبنغري في اللغة اللاتينية ، إذ لم يشاهد له من أثر هنا . كان يتأمل زملاءه المستقبليين بلا كثير اهتمام . رغم تشابه التجهيزات كماً ونوعاً بالنسبة لجميع الفتيان فقد كان من اليسير تمييز أولاد المدينة عن أولاد الفلاحين والأغنياء عن الفقراء .

بطبيعة الحال كان دخول أولاد الأغنياء إلى الحلقة الدراسية نادراً ، حيث أن جانباً من المسألة يعتمد على وعي ومدى عمق نظرة الوالدين والجانب الآخر على موهبة الأبناء أنفسهم ؛ لكن بعض الأساتذة أو الموظفين الكبار كانوا يرسلون أبناءهم أحياناً إلى ماولبرون فقط تذكراً بسنوات دراستهم السابقة في الدير . من هذا كانت بين الأربعين بدلة من البدلات السوداء اختلافات متعددة في نوعية القماش والخياطة ، وأكثر من هذا كان القادمون الجدد يتميزون فيما بينهم من خلال الأسلوب واللهجة والسلوك . كان من بينهم القادم من منطقة الغابة السوداء ذوو الأطراف الصلبة ، وأبناء جبال الألب اليافعون وسكان السهوب الشُقر والواسعو الفم ، السريعو الحركة ، ذوو الطبيعة المنطلقة المرحة ، ثم الشتوتغارديون الذين يرتدون الأحذية المدببة ويتكلمون اللهجة المشوّهة أو بالأحرى المهذبة . وكان خُمس هؤلاء الشباب تقريباً يضعون النظارات الطبية . أحدهم ، الشتوتغاردي النحيل الأنيق المدلّل الذي يضع قبعة سميكة لطيفة من اللبّاد كان سلوكه يتصف بالكبرياء والتعالي ، لكنه لم يدرك أن هيئته الغريبة هذه قد دفعت فيما بعد ، ومنذ اليوم الأول الجريئين من التلاميذ للسخرية منه أثناء اللهو والألعاب العنيفة . إن أي مراقب لماح يمكنه ببساطة أن يستشف أن هذه الشلّة المتخوفة لا تشكل على أية حال الاختيار السيئ من شباب البلد . فهذا الأفق من الرؤوس التي يتعرف عليها المرء من بعيد على الطاقيات المخروطية النورمبرغرية لا تفتقد في الواقع إلى رقة ولا لصلابة وإصرار الفتيان الذين تختفي وراء جباههم الملساء حياة راقية لا زالت في منتصف الحلم . وربما كان من بينهم هذا أو ذاك ممن يتمتع بدهاء وصلابة رأس شفابي* ، فيزج نفسه بمرور الزمن - كما يحدث أحياناً - في خضم العالم الكبير ، ويجعل من الأفكار الجافة أو الجامحة نوعاً ما نقطة انطلاق لتأسيس نظام جديد متين . ذلك أن الشفابي يعني بما يفعل ، وأن العالم لا يضم رجال دين متعلمين فقط ، وإنما أيضاً على قدرات

---

* نسبة إلى منطقة شفابن ، جنوب غرب ألمانيا .

تقليدية في التأمل الفلسفي الذي يؤدي إلى بروز العديد من القديسين الورعين والمربين المخادعين معاً . وهكذا تمارس الأرض الطيبة التي لا زالت تتجذر عميقاً في تربتها التقاليد العريقة تأثيراً راسخاً على العالم وذلك على الأقل فيما يتعلق بالحقول الفكرية للتعاليم الربانية والفلسفية . إضافة إلى ذلك انغرست في نفوس الناس أيضاً ومنذ القدم الفرحة في الشكل الشعري الجميل الحالم ، مما برز من وقت لآخر النظّامون والشعراء الذين لا تمت لهم صلة بالآخرين السيئين .

لو ألقينا نظرة عابرة على حلقة ماولبرون الدراسية لما وجدنا من أثر للنظم والعادات الشفابية ، فإلى جانب الأسماء اللاتينية المتبقية من أيام الدير القديمة لا زالت هناك بعض الأعراف الكلاسيكية التي ثبتت حديثاً . فالعنابر التي وزّع عليها المنتسبون الجُدد والتي أطلق عليها أسماء : فوروم* ، هيلاس ، أثينا ، إسبارطة ، إكروبوليس ، والعنبر الأصفر والأخير جرمانيا تعني أن هناك ما يدعو المرء جاهداً لأن يجعل من الحاضر الجرماني رؤيا رومانية – يونانية . بيد أن ذلك من جانب آخر ليس إلا مجرد مسألة ظاهرية ، أما واقع الحال فإن الأسماء العبرية كانت تبدو أكثر ملاءمة ، وهكذا أرادت الصدفة المحضة ألا يكون عنبر أثينا عنبر رحيبي الصدر وفصيحي اللسان ، وإنما استقبلت للسكنى وبالذات بضعة أفراد من التلاميذ المملين المحافظين ، وعنبر إسبارطة لم يسكنه المحاربون والزهّاد ، وإنما ملء قبضة يد من التلاميذ المستمعين المرحين المترفين . أما هانز جيبنرات فكان نصيبه عنبر هيلاس للسكن سوية مع زميل جديد .

أحسَّ بوقع غريب في نفسه حينما دخل لأول مرة في المساء مع الزميل الجديد إلى قاعة النوم الباردة المقفرة ، واستلقى على سريره الضيق المقرر . كان يتدلى من السقف قنديل زيتي كبير ، يخلع التلاميذ ملابسهم تحت ضوئه الأحمر ، ويُطفأ من قبل مساعد الأستاذ في الساعة العاشرة والربع مساءً . كان كل فرد يضطجع جنب الآخر ، وبين

* فوروم : وتعني ساحة المحكمة في روما القديمة . ساحة العلن .

كل سريرين كرسيٌ وضعت عليه ملابسهم ، ومن القائم يتدلى حبل يتم سحبه عند قرع جرس الصباح . كان هناك اثنان أو ثلاثة من الفتيان الذين يعرفون بعضهم من قبل يثرثرون برهبة بضع كلمات هامسة ، ثم سرعان ما التزموا الصمت . أما الآخرون فقد كانوا غرباء ، وكل منهم يرقد في سريره مكتئباً وفي سكون تام . كان النائمون منهم يصدرون أصوات تنفس عميق ، أو أن أحدهم يحرك ذراعه نائماً فتحدث خشخشة في قماش الغطاء ؛ ومن كان لا يزال مستيقظاً تمسك بالصمت التام . ظل هانز مسهداً لفترة طويلة ، كان يصغي لتنفس جاره ؛ ثم سمع بعد حين لغطاً مفزعاً غريباً من السرير الذي ما بعد جاره ؛ كان أحدهم يرقد هناك ويبكي ، ساحباً الغطاء فوق رأسه ، والنشيج المكبوت الذي ينبعث كما لو من مسافة بعيدة أثار في نفس هانز ألواناً من الشجن والآلام . كان شخصياً لا يشعر بالحنين إلى البيت لكنه كان يفتقد إلى حجرته الصغيرة الصامتة التي خصصت له في البيت ؛ ثم شعور الخشية من الفتيان الجدد الغريبين والزملاء الآخرين . لم تكد الساعة تتجاوز منتصف الليل حتى غطّ الجميع في نوم عميق .

كان الفتية النائمون يرقد بعضهم جوار بعض ، الوجنات غائرة في الوسائد المخططة ، وجنات حزينة صارمة ، مرحة وهيّابة ، هائمة في ذات الهدأة والنسيان الجميلين العميقين . كان الهلال يرتفع شاحباً فوق السطوح القديمة الحادة ، الأبراج ، بروزات البناء الخارجية ، الأعمدة ، الشرفات الدائرية القصديرية ؛ يغمر بضوئه الأخاديد والعتبات ، وينهمر فوق النوافذ الغوطية والأبراج الرومانية ويترجرج بلون ذهبي باهت على القبّة المقدسة الكبيرة لنبع ماء رواق الدير . بضعة خطوط صفراء ، وبقع ضوئية كانت تسقط أيضاً من خلال النوافذ الثلاث لقاعة نوم هيلاس لتستقر مجاورة لأحلام الصبية النائمين كما كانت قبل قليل مجاورة لأسرّة الرهبان .

في اليوم التالي أقيم حفل انتساب التلاميذ الجدد في قاعة الخطابة . جاء المعلمون في بزاتهم الرسمية ، وألقى كبير الأمناء خطابه ، فيما

كان التلاميذ قد اتخذوا مقاعدهم مطرقين متأملين ، محاولين بين لحظة وأخرى الالتفات إلى الوراء حيث يجلس ذووهم على مسافة غير بعيدة عنهم . كانت الأمهات يتطلعن بشعور من الحرص ويبتسمن لأبنائهن ، أما الآباء فقد انتصبت قاماتهم وأخذوا يتابعون الخطاب وعلى وجوههم ارتسمت ملامح الجد والرزانة . نفخوا صدورهم زهواً واعتزازاً بالآمال الجميلة ، وما من أحد فيهم يفكر في هذه اللحظة أن يبادل ابنه بمال الدنيا كلها . وفي الختام نودي على كل تلميذ واحداً بعد الآخر ، ليصطف في طابور أمام كبير الأمناء فيصافحه ويتكفل - فيما إذا سلك سلوكاً حسناً - العناية به رسمياً وتوفير السكن له حتى مماته . لم يخطر في ذهن أحد ، إن كان كل هذا ربما يذهب سدى - في ذهن الآباء على الأقل .

ثم حانت اللحظة الأكثر جدية وتأثيراً ، لحظة الوداع . وضيعت العجالة في إدراك وسائط النقل التي تنوعت ما بين السير على الأقدام وعربات الخيل وأنواع أخرى من وسائل النقل لحظة وداع الأبناء المساكين ، فأخذت المناديل تلوّح طويلاً خلال هواء سبتمبر العليل ، وأخيراً احتضنت الغابة المسافرين ، وعاد الأبناء بهدوء وتأمل إلى الدير .

« إذن ، غادر الآن السادة الأهل » تفوّه مساعد الأستاذ .

بدأ الآن بعض التلاميذ في التطلع والتعرف على البعض الآخر ، وأخيراً تلاميذ كل عنبر مع الآخر . ملئت المحابر بالحبر ، والمصابيح بالزيت ، ورتبت الكتب والدفاتر ، وكل منهم يحاول التكيّف في جو الحجرة الجديد . في هذه الأثناء أخذ البعض ينظر إلى الآخر في فضول ، ثم بدأ الحديث وسأل أحدهم عن مدينة الآخر وعن آخر مدرسة له ، وتحادثوا عن الامتحان الجماعي المرهق . تشكلت حول طاولات المذاكرة مجموعات مثرثرة ، وانطلقت من هنا وهناك قهقهات الفتيان ، وحينما حلّ المساء كان رفاق السكن قد تعرفوا على بعضهم بشكل لم يتيسر حتى لمسافري سفينة عند نهاية رحلة بحرية .

من ضمن الزملاء الجدد الذين يقيمون مع هانز في عنبر هيلاس كان هناك أربع شخصيات ، أما البقية فكانوا ينتمون بهذا الشكل أو ذاك إلى صنف التلاميذ الاعتياديين الطيبين . كان أول هذه الشخصيات أوتو هارتنر ، ابن أستاذ من شتوتغارد ، فتى موهوب ، هادئ ، واثق من نفسه ، سلوكه لا غبار عليه . ضخم الهيئة ، رُبع القامة ، حسن الملبس ، يضفي على العنبر جواً مبهراً عند دخوله الواثق الواسع الخطى .

ثم كارل هامل ، ابن اسكافي قرية صغيرة من قرى الألب ، وقد تطلب الأمر بعض الوقت للتعرف عليه جيداً ، إذ أنه كان يزخر بالعديد من المتناقضات . ومن الصعب أن يفصح عن مزاجه الحقيقي ، ثم إنه كان حاداً ، حيوياً ، عنيفاً ، لكن ذلك لم يدم طويلاً ، وسرعان ما عاد إلى نفسه مذعناً ، ولم يُعرف عنه بعدئذ إن كان قد أصبح متأملاً صامتاً أو أنه مجرد سرّ غامض .

شخص ملفت للنظر ، رغم أنه أقل تعقيداً من غيره ، كان هرمان هايلنر ، شاب من منطقة الغابة السوداء ، سليل عائلة عريقة . وقد لوحظ عنه منذ اليوم الأول أنه شاعرٌ ومتذوق للأدب ، ويروى أنه كتب موضوع إنشاء الامتحان شعراً سداسياً . كان متحدثاً لبقاً ، حيوياً ، لديه آلة كمان جميلة ، ويبدو أنه يحمل ما في أعماقه إلى السطح ، والأهم من ذلك كان مزيج فتى غير ناضج لكتلة من العواطف الجياشة والتهوّر . غير أنه كان ينطوي على شيء من العمق . وكان قد تجاوز عمره عقلاً وجسداً ، وبدأ يخوض غمار تجاربه الخاصة .

لكن أغرب شخصية من شخصيات عنبر هيلاس كان بالتأكيد أميل لوسيوس ، صبي منزوٍ ، أشقر شاحب ، أعجف ، نشيط وجاف مثل فلاح هرم . وعلى الرغم من بنيته وملامحه غير المكتملة فإنه يخلف انطباع صبي ، بل وكأن ثمة رجلاً ناضجاً يختفي وراء كل جانب من جوانبه ، أو كما لو لم يعد يمكن أن يتغير فيه شيء بعد . ففي الأيام الأولى مباشرة ، حينما كان التلاميذ الآخرون يحاولون تزجية أوقات فراغهم في التحادث أو التكيّف على الجو الجديد كان لوسيوس يجلس

صامتاً وحيداً إلى كتاب قواعد اللغة ، واضعاً إبهاميه في أذنيه ويذاكر بلا توقف وكأنه يستعيد عاماً دراسياً ضائعاً . لقد أمكن الوقوف على سرّ هذا الغريب الأطوار شيئاً فشيئاً ، واتضحت فيه شخصية ذلك البخيل الماكر والأناني الذي يظن أن اكتمال شخصيته وبالذات من خلال هذه الرذائل قد تكسبه نوعاً من الاحترام أو على الأقل شيئاً من التسامح . كان يتّبع نظام توفير وفائدة تتسمان بالمكر والدهاء بحيث لا يمكن كشف تفاصيل حذلقاتهما إلا بشكل تدريجي وبصورة تثير الدهشة . كان يستيقظ كل يوم مبكراً ويذهب إلى قاعة الغسيل إما أول أو آخر تلميذ لكي يستخدم منشفة شخص آخر وإن تيسر صابونته أيضاً ، ويحتفظ بالحاجيات التي تخصه دون استخدام . وبهذا كان يحرص على إبقاء منشفته نظيفة دائماً لمدة أسبوعين أو أكثر ، وكانت العادة أن تغيّر المناشف كل ثمانية أيام ، ويقوم كبير المساعدين بالتأكد من ذلك قبل ظهر يوم الإثنين . وبهذا كان لوسيوس في الصباح الباكر من كل يوم إثنين يحظى هو أيضاً بمنشفة جديدة تعلق على مشجبه الذي يحمل رقمه الخاص ، إلا أنه كان يذهب ويأخذها أثناء استراحة الظهر فيطويها نظيفة ويضعها في صندوق ملابسه ويعلق بدلاً منها منشفة قديمة . أما صابونته فقد كانت صلبة ، قاسية ، قليلة الرغوة ، ولذلك تتوفر له إمكانية استخدامها لعدة أشهر . لم يكن أميل لوسيوس مهملاً في مظهره الخارجي ، بل كان على الدوام يبدو نظيفاً ، أنيقاً ، يمشّط ويفرق شعر رأسه الناعم بعناية كبيرة ، ويحافظ على غسيله وملابسه على أفضل حال .

ثم من قاعة الغسيل يتم الانتقال إلى قاعة الطعام لتناول وجبة الإفطار التي تتألف من قدح من القهوة ، قطعة سكّر ورغيف خبز . كان غالبية الفتيان لا يجدون في هذا الفطور ما يدعو إلى البذخ ، حيث أنهم اعتيادياً ، وبعد فترة نوم تمتد إلى ثماني ساعات ، يمتلكهم جوع صباحي هائل . كان ذلك مصدراً لسرور لوسيوس الذي يحتفظ بقطعة سكره اليومية وغالباً ما يجد لها زبوناً : قطعتان من السكر مقابل فينيك* واحد

* فينيك : قطعة نقود ألمانية صغيرة كالقرش .

أو خمسة وعشرون قطعة مقابل دفتر مدرسي . لم يكن غريباً إذن أن يجلس للمذاكرة على ضوء مصابيح زملائه الآخرين لكي يوفر مبلغ استخدام وقود المصباح الثمين . والأغرب من ذلك أنه لم يكن ينتمي إلى عائلة فقيرة وإنما إلى وسط ثري جداً ، فماذا يقول إذن أولاد الفقراء الذين قلما يدركون معنى الاقتصاد والتوفير ، ويستهلكون أكثر مما يملكون وليس بمقدورهم أن يوفروا شيئاً .

غير أن منهج أميل لوسيوس هذا لم يكن يقتصر على المسائل المادية فقط ، وإنما حاول أن يتجاوزه إلى مملكة الفكر أيضاً لكي يجني ثماره حيث يستطيع . لذلك كان حريصاً على ألا ينسى بأن كل المكتسبات الفكرية ما هي إلا قيمة نسبية ، فسخّر نشاطه الحقيقي في المواضيع المدرسية التي تعود عليه بالفائدة في امتحانات قادمة ، واكتفى من المواضيع الثانوية الأخرى بنتائج ذات معدلات مقبولة فقط . كان يقارن كل ما يتعلمه ويحققه مع ما يتعلمه ويحققه زملاؤه الآخرون ، ويفضل أن يفوز بالمركز الأول بنصف المعرفة على أن يفوز بالمركز الثاني وهو يمتلك ضعف هذه المعرفة . لذا كان يشاهد عند المساء منكباً على عمله بصمت دؤوب بينما زملاؤه يمضون الوقت بالتسلية واللعب أو المطالعات الخارجية . لم تكن ضوضاؤهم تزعجه إطلاقاً وإنما على العكس كان يلقي عليهم بين الحين والآخر نظرة مستمتعة ، لا يضمر فيها أي شيء من الحسد . وكان يحسب أن جهد مذاكرته قد يذهب سدى إذا ما جلس زملاؤه للمذاكرة أيضاً .

لم يكن صاحبنا الطموح ، الشاطر ينظر إلى كل هذا المكر والخداع باعتباره عملاً من الأعمال غير اللائقة . ثم سرعان ما اتخذ خطوة حمقاء ، شأنه شأن كل المبالغين والنفعيين حينما فكر أن يستغل دروس الدير المجانية ويبدأ بتعلم العزف على آلة الكمان ، ليس لأنه يمتلك بعض المعرفة أو الأذن الموسيقية أو الموهبة أو أي تذوق موسيقي لذلك! كان يظن أن بوسع المرء تعلم العزف على الكمان مثلما يتعلم اللغة اللاتينية أو الحساب . إن للموسيقى – كما سُمع عنه يقول – فوائد

جمّة في الحياة المستقبلية . وتكسب صاحبها الحب والاحترام في أوساط المجتمع ، وفي كل الأحوال فهي ليست بالأمر المكلف ، خاصة وأن الحلقة الدراسية جعلت تعلّمها أمراً في متناول يد الجميع .

كان استياء مدرس الموسيقى قد بلغ أقصاه حينما جاء إليه لوسيوس طالباً دروساً في تعلم الكمان ، ذلك أنه كان على علم بقدراته الموسيقية منذ دروس الإنشاء التي نال لوسيوس أثناءها على إعجاب زملاء فصله ، لكنه لم ينل أبداً إعجاب المدرس . حاول المدرس جاهداً أن يثني الشاب عن قراره ، لكن محاولاته باءت بالفشل . ابتسم لوسيوس ابتسامة لطيفة واثقة ، وأكّد حقه المشروع في هذا الدرس وأفصح عن رغبته الجامحة في تعلم الموسيقى . وهكذا كانت له أسوأ التمارين ، وخصصت له حصتان في الأسبوع ، ونصف ساعة من التمارين اليومية . بعد الساعة الإضافية الأولى عبّر له الزملاء عن استيائهم من العزف في العنبر وأخبروه بأن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي يعزف فيها هنا . وبهذا وضعوا حداً لتأوهات الكمان المؤلمة المزعجة . وأخذ بعد ذلك يتمرن على العزف في كل مكان وفي كل زاوية هادئة ، ومن هناك كانت تأتي فوضى الأصوات الغريبة التي تزعج الجيران . وفي هذه المناسبة علّق الشاعر هايلز بقوله إن الأصوات تنبعث كما لو أن الكمان العتيق المُعذّب يستنجد يائساً من أعماق تسوّسه طالباً الرحمة . بعد ذلك ، حينما لم يظهر لوسيوس أي تقدم في العزف أصبح المدرس المُحرج في مزاج عصبي سيئ ، لكن لوسيوس استمر في تمارينه يائساً وبدت على وجهه الصغير المقتنع أمارات الحزن والأسى . كانت مأساة حقيقية ، فحينما أوضح له المدرس أخيراً عدم استعداده على مواصلة الدروس ، اختار التلميذ الولهان هذه المرة آلة البيانو ، وأخذ يكابد من عذابها لعدة أشهر دون جدوى حتى أنهك وتخلى عنها بصمت وهدوء . في السنوات المقبلة ، حينما سيدور الحديث بعدئذ عن الموسيقى ، سيكون أيضاً لديه ما يشير به إلى ذلك الزمان الذي تعلّم فيه العزف على الكمان وكذلك البيانو ، وسيستدرك متأسفاً لما آلت عليه الموسيقى شيئاً فشيئاً

حتى أصبحت غريبة عليه في خضم هذه الضروب الكثيرة من الفنون الجميلة .

هكذا كان عنبر هيلاس ، دائماً على استعداد للضحك على ساكنيه الغريبي الأطوار ، إذ حتى المتأدب هايلنر كان يقوم بعرض بعض المشاهد المُسلية . أما كارل هامل فقد كان يلعب دور المراقب الساخر ، الذي يستهزئ من الأحداث . كان يكبر الآخرين عاماً واحداً ، ويشعر بشيء من الترفع والكبرياء ، لكن ذلك لم يكن يضفي على شخصيته أيما احترام ؛ كان مزاجياً ، يلبي كل ثمانية أيام تقريباً حاجته إلى اختبار قوة جسده وذلك بالدخول في إحدى المشاجرات التي تجعله يتحول إلى وحش كاسر .

كان هانز جيبنرات يتأمل كل ذلك بدهشة وذهول ، وكانت له طبيعته الخاصة كتلميذ نجيب وهادئ . كان مجتهداً كاجتهاد لوسيوس ، ويحظى باحترام زملاء عنبره ، ما خلا هايلنر الطائش العبقري الذي يسخر منه أحياناً ويلقبه بالطموح . عموماً كان جميع الفتيان على وئام فيما بينهم خلال عامهم الدراسي السريع التطوّر ، مع أن الاشتباك بالأيدي في قاعات النوم عند المساء لم يكن نادر الوقوع . كانوا يطمحون برغبة شديدة للشعور بأنهم رجال بالغون ، وكانت مناداة المعلمين لهم بصيغة الاحترام «أنتم» تدفعهم إلى التصرف العلمي الرزين والسلوك الناجح الحسن ، وكانوا ينظرون إلى هذا الدير النائي بكبرياء وتعاطف مثل طلاب معهد اللغات . لكن خلف هذه الكبرياء المصطنعة كانت تظهر من وقت لآخر بعض الأعمال الصبيانية الحقيقية التي تطالب بالتنفيس عن ذاتها ، فتدوي حينئذ قاعة النوم بضربات الأقدام وتقاذف أنواع مختلفة من الشتائم المستهجنة .

كان من المفيد والممتع معاً لمدير أو مدرس معهد كهذا أن يراقب مجموعة الفتيان بعد الأسابيع الأولى من حياتهم الجماعية التي تشبه خليطاً كيمياوياً مركباً يضم الكتل والنتف المترجرجة التي تتحلل ثم تتشكل ثانية حتى تنشأ منها مجموعة من الأشكال الثابتة . فبعد تجاوز

مرحلة الخجل الأولي وتعرّف الجميع فيما بينهم بشكل جيد ، بدأ الرواح والمجيء والتداخل ، وتشكلت الجماعات ، وتكشفت الصداقات والكراهيات . نادراً ما كانت الصداقات تعقد بين أبناء الريف والتلاميذ الأوائل ، كان أغلبهم يتجه نحو علاقات جديدة ، أبناء المدن نحو أبناء الفلاحين ، أبناء جبال الألب نحو أبناء السهول ، أي نحو عناصر غير معروفة من أجل التنوع والاستزادة . كانوا يتلمسون طريقهم بحذر واحداً بعد الآخر ، ثم ظهرت ، على الرغم من الوعي بالمساواة ، روح التمايز ، واستيقظ عند بعض الفتيان لأول مرة التكوين الجنيني للشخصية من منبع الطفولة . كانت تحدث حالات لا توصف من الإثارة والغيرة ، وتتطور إلى تكتلات صداقية وخصومات علنية حادة ، تنتهي بعد ذلك حسب الحالة إما إلى إقامة علاقات ودية أو إلى معارك عنيفة بالأيدي . لم يكن هانز على ما يبدو يحبذ المشاركة في مثل هذا العبث . لقد عرض عليه كارل هامل صداقته بصراحة ووضوح ، لكنه أعرض عنها خائفاً . وعلى إثر ذلك اتجه هامل وعقد علاقة صداقة مع أحد نزلاء عنبر إسبارطة وظل هانز وحيداً . بشعور عنيف من الغبطة كان يتراءى له في الأفق عالم الصداقة بألوانه الجذابة الزاهية ويسحبه إليه بصمت . غير أن شيئاً من التردد والخشية كان يقف حائلاً دون تحقيق ذلك . لقد فقد طيلة سنوات طفولته المتشددة الخالية من العطف الأمومي قابلية التعلق بالآخرين ، وكانت المؤثرات الخارجية تثير في نفسه أشد أنواع الفزع والمخاوف ، وهكذا ظل متمسكاً بزهده ومواظبته على الدرس ، وفي نفس الوقت يتملكه الحسد والغيرة كلما رأى الآخرين ينعمون بروابط صداقة متينة . كارل هامل لم يكن الصديق المنتظر ، ولو أن أحداً آخر سواه قد جاءه وحاول استمالته بشدة لاستجاب له بلهفة عظيمة .ومثل فتاة خجولة مكث ينتظر أن يأتي من يسحبه إليه ، شخص أقوى وأجرأ من هامل ، له القدرة على اجتياحه ، وارغامه على السعادة .

إلى جانب تفاصيل ومشكلات المواد الدراسية ، وخاصة درس اللغة

العبرية ، كان هناك الشيء الكثير . مضى وقت الفتيان الأولي بسرعة كبيرة . كانت البحيرات والبُرك الصغيرة العديدة التي تحيط بماولبرون تعكس صورة سماء الخريف المتأخر الباهتة وأشجار الدردار الذابلة والبتولا والبلوط ، وصور أوقات الغسق الطويلة ، وخلال الغابة الجميلة تنطلق بغنج ومرح رقصات احتفالات بدء فصل الشتاء ، حيث الثلج قد سقط عدة مرات نتفاً صغيرة قبل ذلك .

كان الأديب هايلنر يبحث بلا جدوى عن صديق عبقري . يبدأ تجوله لوحده يومياً أثناء ساعة الخروج خلال الغابات ، وكان مكانه الأثير بحيرة الغابة ، وهي بحيرة شاعرية بنيّة اللون ، تحيط بها أشجار الغابة من كل جانب وتنحني عليها قمم أوراق الأشجار . كانت زوايا الغابة الجميلة الحزينة قد جذبت إليها هذا الهائم بشدة . هنا كان يتسنى له العبث في الماء الراكد ويحدث فيه دوائر متتابعة حينما يحركهُ بعصا ، حالماً . وهنا كان يتوفر له قراءة أناشيد ليناو* عن الغابة ، أو يستلقي على أسل الشاطئ المنخفض ويفكر بالمواضيع الخريفية عن الموت والعدم فيما تتساقط الأوراق ، وحفيف أعالي الأشجار الجرداء يبعث أنغاماً حزينة . في هذا المكان ، كان غالباً ما يُخرج من جيبه دفتراً صغيراً أسود ويدون فيه بقلم الرصاص بيتاً أو بيتين من الشعر .

كان يفعل ذلك أيضاً في منتصف وقت الظهر الساطع من أواخر أكتوبر ، حينما دخل هانز جيبزات نفس المكان للتنزه وحده . شاهد الشاعر الشاب جالساً على اللوح الخشبي لمهبط الماء الصغير ، ودفتره ذاك في حضنه وقلم الرصاص المدبب في فمه وهو يفكر . كان هناك كتاب مفتوح إلى جانبه . اقترب منه بهدوء .

« حيّاك الله يا هايلنر! ماذا تفعل ؟ »

«اقرأ هوميروس . وأنت أيها الجيبنرات الصغير ؟ » .

* ليناو : نيكولاس : (١٨٠٢-١٨٥٠) شاعر نمساوي ، من أبرز الشعراء الغنائيين في عصره ، يعبر شعره عن تشاؤم وحزن عميق .

« لا شيء . . . إنني أعلم ماذا تفعل » .

« هكذا ؟ » .

« بالطبع . . . تكتب شعراً » .

« أتظن ذلك ؟ »

« بالتأكيد »

« اجلس هنا! »

جلس جيبنرات جنب هايلنر على اللوح الخشبي . مدّ ساقيه تتدليان فوق الماء ، وأخذ يتأمل كيف تهوي ورقة بنيّة اللون هنا وأخرى هناك خلال الهواء الساكن البارد ثم تغوص بلا صوت مخترقة سطح الماء المغطى باللون البني .

« الجو هنا يبعث على الحزن » قال هانز .

« أجل ، أجل . . »

استلقى الاثنان على ظهريهما ، ولم يعد يُرى من المحيط الخريفي غير بضعة نهايات من أشجار متدلية ، برزت من خلالها السماء الزرقاء المضيئة التي تسبح فيها بهدوء جزر من الغيوم .

« ما أجمل هذه الغيوم! » قال هانز وهو ينظر إليها بغبطة .

« أجل ، يا جيبنرات الصغير » تنهّد هايلنر .

« آه ، لو كنا كهذه الغيمة! »

« وبعد ذلك ؟ »

« لأبحرنا هناك مثل سفينة جميلة فوق الغابات والقرى ومكاتب الدولة والبلدان . ألم تشاهد سفينة من قبل ؟ » .

« كلا ، وأنت ؟ »

«أنا ، نعم . ولكن يا إلهي أنت لا تفقه شيئاً في مثل هذه المسائل . أنت لا تستطيع غير أن تذاكر وتطمح وتعتكف! » .

« إذن ، هل تعتبرني جملاً ؟ »

«لم أقل هذا » .

« إنني لست غبياً إلى ذلك الحد الذي تظنه . على أية حال استمر في حديثك عن السفن » .

دار هايلنر على نفسه بحيث أصبح رأسه يتدلى في الماء . ثم تمدد على بطنه وغمد ذقنه بين يديه واستند على كوعيه .

« على نهر الراين » تابع « كنت قد شاهدت أثناء العطلة مثل هذه السفن . كان ذلك في إحدى ليالي أيام الآحاد ، حيث الموسيقى تصدح من السفينة والمصابيح الملونة تشعّ . كانت الأضواء تنعكس على الماء ، سارت بنا السفينة مع الموسيقى ضد مجرى النهر . ثمّ قُدّم النبيذ الأحمر ، وكانت فتيات يرتدين الملابس البيضاء » .

كان هانز يصغي ولم تند منه أي حركة ، أغمض عينيه وتراءت له السفينة تجري خلال الليل الخريفي ، مع الموسيقى والأضواء الحمراء والفتيات اللواتي يرتدين الملابس البيضاء .

تابع الآخر حديثه :

« أجل ، كانت الأحوال غير ما عليها الآن . من يعي مثل هذه الأمور هنا ؟ مجموعة من المملّين ، الخانعين! يستنسخون وينهكون أنفسهم ولا يعرفون أكثر من حدود الأبجدية العبرية . وأنت لا تختلف عنهم » .

صمت هانز . هذا الهايلنر ، كان حقاً إنساناً غريباً . إنسان حالم ، شاعر . وكان دائماً ما يثير دهشته . كان هايلنر ، مثلما يعلم الجميع ، قليل المثابرة ، لكنه يعرف الكثير ، كانت إجاباته صحيحة غير

أنه لا يبدي احتراماً لهذه المعرفة .

« هنا نقرأ هوميروس » واصل حديثه بتهكم « كما لو كانت الأوديسا كتاباً لتعلم الطبخ . نتناول في الحصة الواحدة بيتين شعريين فقط ثم يجتران ويعالجان حتى يصاب المرء بالقرف . وفي نهاية كل حصة يكرر كالعادة : ها أنتم ترون كيف عالج الشاعر هذين البيتين بحسٍ رهيف ، وتسنى لكم معرفة مكنون الإبداع الشعري! لم يكن ذلك إلا شيئاً زهيداً في التعرف على الحروف وأفعال المضارع كي لا يغوص المرء كلية في الموضوع الأساس . وأما عن الأسلوب فليذهب هوميروس إلى الشيطان . إذن ما الذي يعنينا حقاً من هذه المسألة اليونانية القديمة ؟ لو حاول أحدنا مرة أن يحيا الحياة اليونانية لطرد من الدير . أمن أجل هذا يحمل عنبرنا اسم هيلاس ؟ إنها لسخرية حقيقية! لماذا لا يسمى « سلة المهملات » أو « سجن العبودية » أو « مدخنة الرعب » ؟ إن كل هذا العبث الكلاسيكي ما هو إلا خدعة مُضلّلة » .

بصق في الهواء . « هل كتبت أبياتاً شعرية من قبل ؟ » قال هانز .

« أجل »

« حول ماذا ؟ » .

« هنا ، حول البحيرة والخريف » .

« دعني أرها! »

« كلا ، لما تكتمل بعد » .

« إذن ، حين تكتمل ؟ » .

« أجل ، ليكن هذا » .

نهضا وسارا ببطء عائدين إلى الدير .

« هل رأيت قبل ذلك ما هو أجمل من هذا ؟ » قال هايلنر .

حينما مرّا من أمام «الفردوس» . «قاعات ، نوافذ مقوّسة ، أروقة ، غرف طعام غوطية ورومانية - كل شيء يزخر بالفتنة والروعة ، ومن صنع فنان . لمن كل هذا السحر ؟ أمن أجل ثلاث دزينات من الصبية البائسين الذين ينتظر منهم أن يصبحوا قساوسة في المستقبل ؟ في حين أن الدولة لديها منهم ما يفيض عن الحاجة!» .

ظل هانز يفكر بهايلنر طيلة وقت بعد الظهر : إلى أي صنف من الناس ينتمي ؟ لم تكن لهايلنر مثل تلك الاهتمامات والرغبات التي لدى هانز . كان لهايلنر أفكاره ومعتقداته الخاصة ، يحيا حياة أكثر دفئاً وحرية ، يعاني من هموم غامضة ، ويحتقر كل ما يدور حوله . كان يتمتع بجمال الأعمدة والجدران ، يمارس فناً ساحراً فريداً ، وكانت روحه تتجلى في شعره ، مؤسسة عالمها الخيالي الخاص بها . وكان بالإضافة إلى ذلك حاضر البديهة ، واسع الأفق ، يلقي يومياً من المزح والفكاهة أكثر مما يلقيه هانز في عام بأكمله ، وكان سوداوياً ، تتسم أشجانه الشخصية بطابع الغموض والغرابة والمتعة .

في مساء ذات اليوم أسفر هايلنر أمام كل من في العنبر عن شخصيته الغريبة المعقدة . كان أحد تلاميذ العنبر ممن يتصفون بالطيش وبذاءة اللسان ، اسمه اوتو فنجر ، قد بدأ شجاراً ، ظل هايلنر خلاله لبرهة من الزمن هادئاً ، ساخراً ومفكراً . بعد ذلك اندفع فجأة وسدّد له ضربة على وجهه ، واشتبك الخصمان بحدة والتحما معاً ، واندفعا بعنف مثل سفينة هائمة تتقاذفها الأمواج ، يدوران ويتأرجحان خلال عنبر هيلاس ، ويرتطمان بالجدران والكراسي ، ويتمرغان على الأرض ، ويلهثان بصمت ويزبدان ويعربدان . خلال هذه الأثناء كان زملاء العنبر يتابعون هذا المشهد المثير باهتمام شديد ، محاولين تفادي الضربات وحماية سيقانهم ومكاتبهم ومصابيحهم من الأذى ، منتظرين بنفاد صبر النهاية الحاسمة . بعد بضع دقائق نهض هايلنر مجهداً . وانتزع نفسه من المعركة ووقف يلهث . كان في حالة يرثى لها : عيناه محمرتان ، ياقة قميصه ممزّقة ، وثقب في ركبة بنطلونه . أراد خصمه مهاجمته من

جديد ، لكن هايلنر شبك يديه على صدره وقال بكبرياء واضحة : « لا أرغب في الاستمرار أكثر – فلننه المعركة إن كنت تريد ذلك أيضاً » . خرج اوتو فنجر شاتماً . استند هايلنر على طاولته ، استدار نحو المصباح القائم وأدخل يديه في جيوب بنطاله ، وبدا عليه على نحو ما وكأنه يستعيد تفكيره . على حين فجأة انهمرت الدموع من عينيه ، واستمرت تنهمر أكثر فأكثر . كان ذلك حدثاً لا سابقة له . ذلك أن البكاء كان يعتبر أسوأ ما يمكن أن يقوم به تلميذ من الحلقة الدراسية . لم يفعل شيئاً لإخفائه ، ولم يغادر العنبر ، بل ظل واقفاً بلا حَرَج ، ووجهه الشاحب باتجاه المصباح ؛ لم يمسح حتى دموعه ، ولم يخرج يديه من جيوب بنطاله ولا مرة واحدة . كان الآخرون يقفون من حوله ، يتطلعون بخبث وفضول حتى تقدم هارتنر ووقف أمامه وقال : « أنت ، يا هايلنر ، ألا تخجل ؟ » تطلّع الباكي حوله وكأنه استيقظ تواً من نوم عميق « أنا أخجل – منكم ؟ » قال ذلك بصوت عال وازدراء كبير « كلا يا عزيزي » ثم مسح وجهه ، ابتسم ابتسامة غاضبة ، نفخ مطفئاً مصباحه وخرج من العنبر .

كان هانز قد مكث في موقعه طوال المشهد ، ينظر بدهشة وفزع إلى هايلنر ، بعد مضي ربع ساعة تجرأ على اللحاق به ، وجده في قاعة النوم المظلمة الباردة جالساً على حافة نافذة واطئة ، ينظر إلى الأسفل ، حيث رواق الدير . ومن الخلف ، بدا على كتفيه ورأسه النحيف المدبب طابع الجدّ والرزانة . لم تصدر عنه أيما حركة حينما اتجه نحوه هانز ووقف عند النافذة ، وبعد برهة من الوقت سأل بصوت أجشّ ودون أن يرفع وجهه إلى الأعلى :

« من هناك ؟ »

« أنا » أجاب هانز بتردد .

« ماذا تريد ؟ »

« لا شيء » .

«هكذا ؟ إذن تستطيع أن تغادر» .

شعر هانز بالإهانة ، وقرّر أن يذهب بالفعل . لكن هايلنر استدركه . «توقف» قال بصوت مصطنع يميل إلى الدعابة «لم أقصد هذا» .

الآن فقط تيسّر لكل منهما أن ينظر في وجه الآخر ، وربما هي المرة الأولى التي يحاول كل منهما في هذه اللحظة أن يتخيل أن خلف هذه الملامح الفتية الملساء تكمن حياة خاصة في طباعها وروح متميزة تختلف عن الآخر .

بهدوء مدّ هرمان هايلنر يده ، تلمّس كتف هانز وجذبه إليه حتى بات وجه كل منهما ملتصقاً بالآخر . شعر هانز برهبة مباغتة وهو يرى الشفاه الغريبة الأخرى تلامس فمه .

أخذ قلبه يخفق بخوف غريب . كان هذا اللقاء في قاعة النوم المعتمة وهذه القبلة الفجائية شيئاً أشبه بالمغامرة ، شيئاً جديداً ، وربما خطيراً ؛ وفكّر ، كم سيكون الأمر مروعاً لو ضبط متلبساً ، وكم ستكون قبل الشخص الآخر أكثر سخرية وخزياً من البكاء الذي حدث قبل قليل . لم يقل شيئاً . لكن الدماء الحارة صعدت إلى رأسه ، وفضل أن يغادر المكان .

لو أن شخصاً بالغاً رأى هذا المشهد الصغير ، فلربما سيستمتع بصمت لهذه الرقّة المستحية المرتبكة لإعلان صداقة خجلة ، ولهذين الوجهين الفتيين الرزينين النحيلين اللذين يتميزان بالوسامة ، ويوعدان بالأمل ، وسيتذوق تارة جمال الطفولة وأخرى سيحلّق عالياً مع عنفوان الشباب الخجول ، الجميل .

مع مرور الأيام وجدت المجموعة الشابة نفسها تعيش حياة مشتركة . كانوا قد تعرفوا بشكل جيد فيما بينهم ، وأصبح لكل واحد منهم بعض الإلمام والتصورات بشؤون الآخر ، وعقدت جملة من

الصداقات . كان هناك أزواج من الأصدقاء يتذاكرون في المفردات العبرية ، وأزواج أخرى تمارس الرسم أو تخرج للتنزه أو تقرأ شيلر معاً ، كان الجيدون في اللغة اللاتينية والرديئون في الحساب قد عملوا سوية مع الرديئين في اللاتينية والجيدين في الحساب لكي يقطفوا ثمار العمل المشترك . منهم من أسس علاقاته الصداقية وفق أسلوب آخر من التعامل والملكية العامة ، وهكذا وجد مالك اللحم المقدد الذي يحسده الكثيرون نصفه المكمل في ابن بستاني من « شتامهايم » يمتلئ صندوقه بالتفاح اللذيذ ، وحدث هذا عندما طلب صاحب اللحم المقدد من صاحب التفاح تفاحة لشعوره بالظمأ أثناء تناوله اللحم ليقايضه بدلاً منها بقطعة من اللحم ، فجلس الاثنان وأسفر ذلك عن حديث حذر ، وكان اللحم المقدد أو التفاح حينما ينفد فإنه يعوّض على الفور وبشكل مستمر من قبل العائلة حتى حلول الربيع ، وبهذا خرجت إلى الوجود علاقة متينة راسخة ، إذ إن بعض العلاقات الحميمة ، المثالية الجارفة تستمر لأمد طويل .

كان القليل من ظل وحيداً ، من ضمنهم لوسيوس الذي كان عشقه النهم للفن قد بلغ ذروته .

من ضمن هذه العلاقات ، كانت هناك أيضاً علاقات غير متكافئة . ومثال ذلك علاقة هرمان هايلنر وهانز حيبنرات ، اللذين كانا أقلهم تكافؤاً : الطائش والمتعقل ، الشاعر والطموح . وفي الواقع كانا الأكثر ذكاءً وموهبة ، وكان هايلنر قد اكتسب شبه صفة تهكمية خبيثة كعبقري ، بينما الآخر كان يعتبر ضمن دائرة الطلبة النموذجيين . وقد تركا إلى حد ما في دعة وسلام . ذلك أن كل فرد كان حريصاً على رعاية صداقته ويسعى للاحتفاظ بها .

وعلى الرغم من كل هذه الاهتمامات الشخصية والأحداث اليومية فلم يكن هناك من يفرّط بحق الدراسة والدرس . فقد كانتا تشكلان الثقل والإيقاع الأكبرين إذا ما قورنتا بموسيقى لوسيوس . كان هايلنر ينظر في بعض الأحيان إلى هذه التحالفات والمشاجرات والمعارك

كمسرّات صغيرة ، وتفاصيل حياتية جزئية ، كان في مقدمة الاهتمامات درس اللغة العبرية . إن لغة يهوا النادرة القديمة هذه ما هي إلا شجرة جافة ، صلدة ، وفي نفس الوقت معقّدة وحيّة . لقد بدت أمام أعين الفتيان أشبه بشجرة غريبة ، ناتئة وغامضة ، تلفت الأنظار بفروعها البديعة وتثير الدهشة بأوراقها العجيبة الزاهية العطرة . أغصانها تمتلئ بالتجاويف والعروق ، مخيفة أو وديعة ، أشباح عمرها آلاف السنين : تنانين خيالية مرعبة ، أساطير بدائية محببة ، رؤوس عجائز مجعدة ، قاسية ، جافة جنب فتيان جميلين وفتيات ذوات عيون ساجية أو نساء محاربات . إن ما كان إيقاعه في إنجيل لوثر عميقاً وحالماً يكتسب الآن في اللغة البدائية الحقيقية الدم والنبرة والحياة المعتقة الخاملة ، وكذلك الرهيبة ، الشديدة التماسك . هكذا بدا الأمر ، على الأقل بالنسبة لهايلنر الذي كان يلعن جميع الأسفار الخمسة يومياً وفي كل ساعة ، مع أنه وجد فيها الكثير من الحياة والروح ، وعلمته المعرفة والصبر والمفردات التي لم يعد يُخطئ في قراءتها بعد .

وبعد هذا كانت هناك الوصية الجديدة ، التي تم التعامل معها بشكل أرقّ وأكثر بساطة ، وكانت لغتها أقل قدماً وعمقاً وثراءً ، لكنها كانت تزخر بفكر جديد متقد وحالم .

ثم الأوديسا بأبياتها العذبة ، المتماسكة ، المتسقة التدفق ، التي تشبه زنداً أبيض ممتلئاً لحورية بحر ، يرتفع إلى الأعلى معلناً عن انبثاق حياة مغمورة سعيدة ثرية ، ذات شكل واضح ، تتلألأ مرة محددة ، مجسّمة ، وعلى نحو ما بملامح خشنة واضحة المعالم ، ومرة أخرى كحلم فقط ، وشعور جميل يتألف من بضع كلمات وأبيات شعرية . وقد غاب عن كل هذا المؤرخان اكسينوفون ولوفيوس* أو أنهما تنحيّا بتواضع كضوءين خافتين يكادان أن يكونا قد انطفأ .

---

* لوفيوس ، تيتوس : (٥٩ق .م-١٧) ، مؤرخ روماني مغمور السيرة . أمضى أربعين عاماً يكتب تاريخ روما منذ إنشائها حتى وفاة دوريوس (٩ ق .م) في ١٤٤ جزءاً بقي منها ٣٥ .

لاحظ هانز بدهشة كيف أن كل شيء كان يبدو لصديقه بشكل يختلف عما يبدو له . كان هايلنر لا ينظر إلى الأشياء بشكل مجرد إطلاقاً ، فإذا لم يستطع تصوره ، أو تلوينه بألوان خيالية فإنه يدعه على حاله غير راغب فيه . كانت مادة الرياضيات تعني له كاللغز المحيّر ، يحمل وجه أبو الهول ، الذي يأسر ضحيته بنظرته الباردة الخبيثة ، لذا فقد كان يتجنب هذا المارد الجبّار .

كانت علاقة الصديقين تتسم بطابع غريب . فبالنسبة لهايلنر كانت تعني شيئاً من المتعة ، والترف ، ضرباً من البذخ أو بالأحرى من المزاجية ، أما بالنسبة لهانز فإنها من ناحية تعني له مثل كنز يتباهى ويزهو به ، ومن ناحية أخرى عبئاً ثقيلاً ينوء تحته . كان هانز حتى هذا الوقت يستغل ساعات المساء للعمل دائماً ، لكن هرمان أخذ يأتي إليه الآن كل يوم تقريباً عندما يحلّ من العمل فيأخذ منه كتابه ويلهيه عن المذاكرة . كان هانز يرتعد خوفاً حين مجيئه مساء كل يوم - أهكذا إذن يكون حب الصديق ؟ - الأمر الذي يضطره إلى مضاعفة التركيز والعمل أثناء الدروس الإلزامية لكي يعوّض عن الواجبات البيتية . وكان الأكثر من كل هذا إزعاجاً حينما بدأ هايلنر يتحدى نشاطه نظرياً .

« إنه عقاب يومي » قال له « يقيناً إنك لا تؤدي كل هذا العمل برغبة وطواعية وإنما بدافع الخوف أمام مدرسيك أو ذويك . ما الذي ترجوه إن حققت المركز الأول أو الثاني ؟ إنني في المرتبة العشرين ولست بهذا أغبى منكم أيها الطامحون » .

كذلك استاء هانز من هايلنر حينما اكتشف لأول مرة كيف كان يعبث بكتبه المدرسية . فذات مرة نسي كتبه في قاعة المحاضرات فاضطر إلى استعارة أطلس هايلنر حيث كان عليه التحضير لدرس الجغرافيا المقبل . عندئذ اشمأز من رؤيته جميع صفحات الأطلس ملوثة بقلم الرصاص . كان الساحل الغربي لشبه جزيرة البرانس قد تحوّل إلى لوحة جانبية ، حيث الطرف الذي يمتد من بورتو وحتى لشبونة والبقعة

الواقعة عند نهاية الكاب قد شكّلت على هيئة زخارف ودوائر ملوّنة ، في حين بدا كاب سان فينسنت على شكل لحية مدبّبة جميلة ذاوية . وهكذا كان الحال من صفحة إلى أخرى ؛ على ظهر الصفحات البيضاء للأطلس رسمت صور كاريكاتيرية ودونت أبيات شعر ساخرة غير محتشمة ، أما عن بقع الحبر فحدث ولا حرج . كان هانز قد تعوّد على معاملة كتبه وكأنها أشياء مقدسة وجواهر ثمينة صغيرة ، لذا فقد وجد هذا التطاول من جانب هايلنر أشبه بتدنيس معبد ، أو عملاً إجرامياً يتطلب جرأة كبيرة للقيام به .

من هذا ، يبدو أن التلميذ الطيب جيبنرات لم يكن يمثل بالنسبة لصديقه أكثر من لعبة مسليّة ، أو لنقل أحد أنواع القطط الأليفة ، وكان هانز في بعض الأحيان يعي ذلك أيضاً . لكن هايلنر من ناحية أخرى كان متعلقاً به ، لحاجته إليه . كان يود أن يكون لديه شخص ما يثق به ويستمع إليه ويدهش له . كان بحاجة لمن يصغي إليه بصمت وتشوّق عندما يتحدث أحاديثه الثورية عن المدرسة والحياة . ويحتاج أيضاً لمن يواسيه ويلقي برأسه في حضنه حين تلمّ به الكآبة ومثل جميع من تغلب عليهم هذه الطبيعة كان الشاعر الشاب يعاني من حالات كآبة عبثية لا أساس لها من الواقع يكمن جزء منها في وداعه الخفي لروح الطفولة وجزء في فيض الموهبة والأحاسيس والاستحواذ التي لا هدف لها ، وجزء آخر في البواعث المبهمة الغامضة لبلوغ مرحلة الرجولة . وفوق كل هذا كان بحاجة مرضية للعطف عليه وتدليله . كان في السابق يحظى بتدليل أمه ، لكنه الآن ولعدم اكتمال نضوجه لحب النساء اتخذ من صديقه المطيع سلوى له .

في كثير من الأوقات كان يأتي إلى هانز في المساء وهو في غاية الشقاء ويسلب منه وقت عمله للذهاب معه إلى قاعة النوم . وهناك في القاعة الباردة أو في غرفة المذبح العالية الغاسقة كانا يتمشيان معاً رواحاً ومجيئاً أو يجلسان مرتعدين من البرد داخل أحد النوافذ . كان هايلنر يبث بألوان أحزانه وشقائه على طريقة الشبيبة الرومانتيكية من

قـراء هاينه* ، ويغلف نفسـه بسحب أحـزان طفولتـه التي لم يـكن هانز قادراً على استيعابها بشكلها الصحيح ، لكنها كانت تؤثر فيه ، وحتى أنهـا في بعض الأحـيان تـنقل عدواها إليه . كـان المتـأدب الحسـاس في الواقع يمر بإحدى مراحله السوداوية ، وغالباً ما كانت الكآبة والأنين تبلغ ذروتها عند أوقات المسـاء ، حيث تتعكر السمـاء بغيوم أواخر الخريف المطرية ، ومن خلفها يرنو القمر خلال الشقـوق والضياء البـاهتة وهو يمضي في حال سبيله . ثم يسرح في جو أسطوري ويذوب في حسـرات عميـقة لتنهال على شكل زفرات وخطب وأبيـات شعر على رأس هانز المسكين .

ويخرج هانز من هذه المشاهد الحزينة مثقلاً ومعذباً بالهموم لكي يندفع فيما تبقى له من السويعات بنشاط محموم إلى العمل الذي دائماً ما يعانـي من وطأته الشيء الكثيـر . ليس غريباً إذن أن تداهمه حالة الصداع القديم ؛ كان أكثر ما يرهقه ويزعجه هو حينما يكون لديه غالباً وقت خامل وغير مستثمر ثم فجأة يجب عليه إنجاز عمل ضروري . وفي الواقع كان يشعر بعدم ارتياح لهذه العلاقة التي أنهكته مع هذا الغـريب الأطوار وأسـاءت إلى جانـب ما في طبيعته لم يُمسّ حتى الآن ، وكان كلما أصبح أكثر قتامة وشكوى ، كلما زاد صديقه حزنه عليه وأصبحت مشاعره أكثر رقّة وإصراراً للتعلق به .

وفضلاً عن ذلك كان يعي بشكل جيد أن هذا الكائن النائح المتذمّر ما هو إلا نتـاج عوامل سطحيـة غير صحيـة ، لا تنتمي في الواقع إلى جوهر هايلنر الذي أعجب به بصدق وإخلاص . حينما كان الصديق يلقي أشعاره أو يتحدث عن قدوته من الشعراء أو يـنشد مونـولوجات شعرية من شيلر وشكسبير بـولع شديد وحركات تمثيلية مجسّدة ، كان هانز يشعر كما لو أن هذه القدرة التي يفتقد هو نفسه إلى موهبتها السحرية تهيم في الهواء ، وتتحرك بحرية إلهية وحماس متقد ، تحلّق هادئة على

* هاينريش هانيه : (١٧٩٧-١٨٥٦) ، شاعر رومانسي ألماني ثوري ، ويقال على طريقة هاينه .

أقدام مجنّحة مثل رسول سماء هوميروسي . كان هانز حتى ذلك الوقت قليل المعرفة بعالم الشاعر ، ولم يكن يعني له شيئاً ، لكنه الآن أحسّ لأول مرة بإذعانه أمام الهيمنة المخادعة للكلمات المعسولة المتدفقة ، والصور المضللة والقوافي المتزلفة ، وأن احترامه لهذا العالم الذي انفتح جديداً أمامه من خلال إعجابه بصديقه قد تطوّر بشكل متداخل إلى شعور خاص فريد من نوعه .

جاءت أيام نوفمبر العاصفة المظلمة التي لا يستمر العمل أثناءها إلا ساعات قليلة بدون ضوء مصباح ، وكذلك الليالي الحالكة حيث العواصف تسوق أمامها جبال السحب الكبيرة المتدحرجة خلال السماء العابسة ، وتندفع متأوهة أو مُرعدة حول مبنى الدير القديم الشامخ . ومن أشجار البلوط الهائلة ، البارزة ، المتفرعة ، ملكة أشجار الطبيعة ، لم يبق سوى صوت حفيف أوراق قممها الذابلة الذي كان يُسمع بشكل أعلى وأكثر تجهماً من جميع الأشجار الأخرى . كان هايلنر يشعر بكآبة شديدة ، وفي الآونة الأخيرة فضل بدلاً من الجلوس عند هانز أن يقتحم عرين الكمان في حجرة التمارين البعيدة أو الشروع بالمشاجرات مع الزملاء .

ذات مساء ، حينما دخل تلك الحجرة ، وجد التلميذ المجتهد لوسيوس منكباً على تمارينه أمام حامل دفتر النوتات الموسيقية . فخرج غاضباً ، ثم عاد بعد نصف ساعة ولوسيوس ما زال يتمرن .

« يجب أن تتوقف الآن » قال هايلنر باستياء « هناك من يريد أن يتمرن أيضاً . إن عزفك النشاز إساءة للذوق العام بلا شك » . لم ينسحب لوسيوس . ازداد هايلنر حدة ، وحينما عاد الآخر بلا مبالاة إلى عزفه النشاز ضرب هايلنر حامل النوتات بقدمه فتطايرت الأوراق في الحجرة وأصاب الحامل وجه لوسيوس . انحنى والتقط الأوراق من الأرض .

« سأشكيك عند السيد كبير المساعدين » قال بحزم .

« حسناً » صاح هايلنر مزمجراً « وقل له أيضاً بأنني قد ألقمتك ركلة كلب مجاناً » وهمّ بفعل ذلك على الفور .

قفز لوسيوس إلى الجانب متفادياً الضربة وأدرك الباب . كان مطارده يعدو خلفه ، ودارت مطاردة حامية عنيفة خلال الممرات وفوق السلالم وعبر الدهاليز وحتى أبعد جناح من أجنحة الدير ، حيث سكن كبير المساعدين ، المقام على بقعة فخمة وهادئة . ثم أدرك هايلنر الملتجئ بالقرب من غرفة دراسة المساعد ، وحينما طرق لوسيوس الباب المُشرع ووقف أمامه ، تلقى في اللحظة الأخيرة الركلة الموعودة واندفع دون أن يتسنى له غلق الباب خلفه ، كالقنبلة ، في حاضرة العاهل المقدسة . كانت هذه الواقعة من الوقائع المشهودة التي لا نظير لها من قبل . في صباح اليوم التالي ألقى كبير المساعدين خطاباً حول انحطاط الشباب ، أصغى إليه هانز بسرور وتأثر عميقين ، وتلقى هايلنر عقوبة الحبس المدرسي الصارمة .

« منذ سنوات عديدة » زمجر كبير المساعدين في وجهه « لم تحدث هنا مثل هذه العقوبة . سأحرص على أن تتذكروها بعد عشر سنوات . وإليكم ، أنتم الآخرون ، هذا الهايلنر كمثال رادع على ذلك » .

تحوّلت جميع أنظار التلاميذ بوجل إليه ، حيث كان يقف هناك شاحباً متحدياً ، لا تحيد عنه نظرة المساعد . رغم ذلك ظل واقفاً بصمت أدهش الكثيرين ، حتى نهاية الدرس وامتلاء الممرات بالضوضاء ، وحيداً منبوذاً كالمجذوم .

كان الأمر يتطلب جرأة كبيرة للوقوف إلى جواره في هذه اللحظة . حتى هانز جيبنرات لم يجرؤ على فعل ذلك . وكان يفترض به هذا ومن واجبه ، وقد أدرك ذلك في الحال وأخذ يعاني من إحساسه بالجبن . كان يود الذهاب إلى صديقه ، لكن عليه أن يبذل الكثير من الجهد كي لا يلاحظه أحد . كانت عقوبة الحبس الشديد في الدير تعتبر كالوشم ، ويستمر تأثيرها لفترة طويلة . ومنذ هذه اللحظة أصبح معلوماً بأنه

سيراقب مراقبة خاصة ، ومن الخطورة ودواعي السمعة السيئة محاولة الاتصال به . من الطبيعي أن تتناسب الجهود التي تقوم بها الدولة تجاه رعاياها مع التربية المتشددة الصارمة التي يمارسها مسؤولو الدير ، وقد قيل هذا الكلام من قبل ، أثناء حفل الانتساب الكبير . وكان هانز يعلم ذلك أيضاً . لقد وجد نفسه في صراع محتدم بين مستلزمات الصداقة وبين السلوك القويم ، وبرز من خلاله أولوية نموذجه مرة واحدة : النجاح في الامتحان وتأدية دوره ولكن ليس بشكل عاطفي محفوف بالخطر . وهكذا ظل لائذاً ، خائفاً بزاويته ، في الوقت الذي لا زال بإمكانه أن يخرج منها ويتحلى بالشجاعة ، غير أن المسألة أخذت تزداد صعوبة من لحظة إلى أخرى ، وبدا خذلانه واضحاً عليه قبل أن يقدم على فعل ذلك .

لاحظ هايلنر هذا المشهد بشكل واضح . شعر الصبي المندفع كيف تخلى عنه زملاؤه ، بيد أنه كان يعوّل على هانز . وعلى الرغم من الألم والاستياء بدت له معاناته العديمة الجدوى حتى الآن فارغة ومضحكة . للحظة وقف جنب جيبنرات . كان الشحوب والكبرياء واضحين عليه ، ثم قال بصوت واطئ :

« أنت جبان حقير يا جيبنرات - يا للعار! » وخرج يصفّر عالياً ويداه في جيبي سرواله .

كان من المفيد أن ينشغل الشباب بأفكار واهتمامات أخرى . بعد بضعة أيام على تلك الحادثة بدأ الثلج بالسقوط فجأة ، وخيم جو شتائي قارس ، حيث اللعب بكرات الثلج والتزلج على الجليد ، كذلك لاحظ الجميع بغتة وتحدثوا عن قرب حلول عيد الميلاد والعطلة . قلَّ الاهتمام بموضوع هايلنر . كان يسير بهدوء وتحدّ ، وبرأس شامخ ووجه متكبر ، لا يرغب في محادثة أحد . يدوّن الكثير من الأشعار في دفتر مدرسي ذي غلاف من المشمّع الأسود يحمل عنوان : « أناشيد راهب » .

كان الثلج يتدلى صقيعاً متجمداً وبأشكال رقيقة خيالية من أشجار

البلوط والتنوب والزان والصفصاف ، ويُسمع أزيزه على البحيرات والبرك أثناء عملية التجلّد . كان منظر رواق الدير يشبه حديقة رخامية صامتة . وجو العنبر تسوده حركة احتفالية فرحة ، وكانت البهجة بمقدم عيد الميلاد قد أشاعت حتى في نفس الأستاذين الوقورين المثاليين ومضة صغيرة من الرقة والإثارة . لم يكن بين المدرسين والتلاميذ من أحد لا يعنى بعيد الميلاد ، وحتى هايلنر بدا أقل تجهماً وكآبة ، أما لوسيوس فكان يفكر بما سيأخذه معه في العطلة من الكتب والأحذية ، كانت الرسائل التي وردت من الأهل تتضمن أشياء جميلة ، تنم عن ذوق رفيع : السؤال عن أحبّ الأمنيات ، تقارير عن أيام تناول المعجنات والكاتو ، إشارة إلى المفاجآت المرتقبة ، وفرحة اللقاء .

قبل حلول سفرة العطلة عاشت المجموعة الدراسية ، وبخاصة عنبر هيلاس حدثاً سعيداً . فقد تم الاتفاق على دعوة هيئة التدريس إلى أمسية احتفالية لمناسبة عيد الميلاد تقام في عنبر هيلاس باعتباره أكبر العنابر . أعدّ خطاب الحفل ، تلاوة أناشيد ، عزف ناي منفرد وعزف ثنائي على الكمان ، إضافة إلى فقرة ترفيهية . تبودلت الاستشارات والمداولات والاقتراحات ولكن دون التوصل إلى اتفاق موحد . عندئذ تحدث كارل هامل واقترح أن يقدم اميل لوسيوس عزفاً منفرداً على الكمان ضمن الفقرة الترفيهية . لكن لوسيوس تردد في الموافقة ، وبعد التوسلات والوعود والضغوط أمكن إقناع الموسيقي البائس وإرغامه على الاستسلام ، ثم ثبت البرنامج وأرسل إلى المدرسين مع بطاقة دعوة مؤدبة تتضمن الفقرة الخاصة التالية : «ليلة هادئة ، أغنية للكمان يقدمها اميل لوسيوس ، عبقري موسيقى الحجرة» والجملة الأخيرة يدين بها لتمارينه النشيطة في حجرة الموسيقى البعيدة تلك .

دُعي إلى الحفل . الناظر ، الأساتذة ، المدرسون ، مدرس الموسيقى وكبير الأمناء ، ولبوا جميعهم الدعوة . أخذ العرق يتصبب من جبين مدرس الموسيقى حينما ظهر لوسيوس وتقدم بتكاسل ، يرتدي بذلة سوداء استعيرت من هارتنر : مرتب الشعر . مكوي الملابس ، وعلى

وجهه ابتسامته الرقيقة المتواضعة ، وحتى إيماءة رأسه كانت كالدعوة إلى الانبساط والانشراح . خرج لحن أغنية «الليلة الهادئة» من بين أنامله بعويل صارخ ، ثم تحول إلى لحن حزين متأوه نائح ؛ عزف اللحن مرتين بشكل متفكك ، متكسر ، ينقّر الإيقاع بأقدامه ، وأخذ يعمل عليه مثل عامل غابة في جو صقيعي قارس . بسرور أومأ كبير المساعدين لمدرس الموسيقى الذي شحب لون وجهه من الغضب .

وعندما أخفق لوسيوس في عزفه للمرة الثالثة أنزل كمانه ، ثم اتجه إلى الجمهور وأخذ يعتذر : «لا أستطيع الاستمرار ، لم أكن قد بدأت العزف إلا في الخريف الماضي» .

«أحسنت يا لوسيوس» صاح الناظر «نشكركم على جهودكم . عليكم الاستمرار وبذل جهود أفضل» .

في الرابع والعشرين من ديسمبر ، كانت الحياة والضوضاء ، ابتداءً من الساعة الثالثة صباحاً ، تدبّ في جميع أرجاء قاعات النوم . على النوافذ تفتحت صفوف متلاصقة ذات أوراق رقيقة من الزهور الثلجية ، تجمّد ماء الغسيل ، وفوق رواق الدير كانت تفوح ريح خفيفة باردة حادة ، لم يكترث بها أحد . وفي قاعات النوم كان البخار يتصاعد من دلاء القهوة ، ثم سرعان ما أصبح التلاميذ يُشاهدون في معاطفهم وأوشحتهم فوق الحقل الأبيض الخافت الإضاءة وهم يتجهون ، خلال الغابة الصامتة ، إلى محطة القطار البعيدة . كانوا جميعهم يثرثرون ويتقاذفون بالنكات والضحكات العالية ، وكل واحد منهم غارقاً بأمنياته الخفية ومسراته وتوقعاته . كانوا يعلمون أن هناك بعيداً في أقصى البلاد ، في المدن والقرى والقصور الموحشة من ينتظرهم من الآباء والأمهات والأخوان والأخوات في الغرف الدافئة المزينة . كان هذا العيد بالنسبة للكثيرين منهم العيد الأول الذي يعودون فيه من بعيد إلى أهاليهم ، الذين كانوا ينتظرونهم بحب واعتزاز .

في المحطة الصغيرة ، وسط الغابة الثلجية ، كانوا ينتظرون القطار

تحت لسعات البرد القارس ، لم يُشاهد عليهم من قبل مثل هذا الفرح والمرح والتآلف . ومن بينهم جميعاً ظل هايلنر وحيداً صامتاً ، وعندما وصل القطار ، انتظر صعود جميع التلاميذ حتى ذهب وحده واستقل عربة أخرى . رآه هانز ثانية حينما توقف القطار في المحطة التالية لصعود المسافرين ، وتلاشى منه الآن الشعور السطحي للخجل والندم في غمرة الانفعال وفرحة رحلة العودة إلى البيت .

عندما وصل إلى البيت وجد الأب وقد علت وجهه ابتسامة الرضا والسرور ، وكانت بانتظاره مائدة تكريم عامرة . إلا أن جو احتفال مسيحي حقيقي لم يكن موجوداً في بيت جيبنرات . فقد كان يفتقد إلى الغناء والحماس الاحتفالي ، والأم وشجرة الصنوبر . كان السيد جيبنرات لا يجيد فن إقامة الاحتفال . غير أنه كان يشعر بالفخر لصغيره ولم يبخل هذه المرة بالهدايا . ولم يكن هانز متعوداً على غير ذلك ، ولم يفتقد إلى شيء .

وجد الأب أن ابنه لم يكن في حالة جيدة ، فقد أصبح هزيلاً ، شاحباً ، وسأله إن كانت وجبات طعام الدير قليلة ، فنفى هانز ذلك بشدة وأكد بأن أحواله حسنة ، ما عدا الصداع الذي ينتابه في كثير من الأحيان . طمأنه القس حول هذا الموضوع وذكر له بأنه شخصياً كان يعاني منه في سنوات صباه ، لكنه اختفى فيما بعد واستقر الحال بشكل جيد .

كان النهر قد تجمّد ملتمعاً ، وامتلأ بالمتزلجين خلال أيام العطلة . كان هانز يمضي طيلة اليوم تقريباً خارج البيت ، مرتدياً بذلته الجديدة ، وطاقية الحلقة الدراسية الخضراء فوق رأسه ، مرتقياً عالماً أسمى ، يُحسد عليه ، فوق مستوى زملائه القدامى .

الفصل الرابع

من المعروف أن كل حلقة دراسية اعتادت أن تفقد زميلاً أو زميلين خلال سنوات الدراسة الأربع في الدير . أحياناً كان يتوفى أحدهم ، فيشيّع بالتراتيل وينقل إلى ذويه برفقة الأصدقاء . وفي أحيان أخرى كان ينطلق تلميذ ما ويهرب أو يُطرد من الدير نتيجة ارتكابه إثماً معيناً ، وفي بعض الحالات - وهذا ما يقع نادراً وفي الصفوف المتقدمة فقط - يجد أحد الفتيان القلقين ممن يعاني من متاعب الشباب طريق خلاصه المأساوي القصير من خلال طلقة أو قفزة في نهر .

كان من ضمن ساكني هذا العنبر صبي متواضع ، أشقر يدعى هندنغر ، يطلق عليه التدليل «هندو» ، وهو ابن رئيس خياطين من إحدى أماكن منطقة «الكوير دياسبورا» . كان مواطناً هادئاً ، يترك بعد انصرافه مجالاً للحديث عنه قليلاً ، وقد أدى اشتراكه في مقعد دراسي واحد جنب العبقري الموسيقي البخيل لوسيوس إلى عقد علاقة صداقة بسيطة معه كانت أوثق مما مع الزملاء الآخرين . وفيما عداها لم تكن له علاقة أخرى . بداية بعد فقدانه تبين كم كان وقعه محبباً في عنبر هيلاس ، وكم هو متواضع وطيب وأكثر من جار ، وكم هي أهميته باعتباره مرتكز هدوء في حياة العنبر الصاخبة الكثيرة الضوضاء .

ذات يوم في يناير انضم إلى مجموعة المتزلجين على الجليد الذين

ذهبوا للتزلج خلف بحيرة روس . لم يكن يملك أحذية للتزلج ، لكنه كان يود التمتع بالمشاهدة فقط ، بدا فرحاً بذلك ؛ ووقف عند طرف ساحة التزلج يدفئ نفسه . ومن هناك أخذته قدماه وتوغل في الحقل وتاه ، ولم يجد نفسه إلا وقد وصل إلى بحيرة صغيرة أخرى مغطاة بثلج هش . وغير صلبة التجمد بسبب دفء وشدة حركة ينابيعها . سار فوق الثلج الهش ، وبعد خطوات قليلة سقط بالقرب من طرف البحيرة لصغره وخفة وزنه ، ثم أخذ يقاوم ويصرخ لفترة من الزمن حتى غاص إلى الأسفل في البرودة المظلمة دون أن يلاحظه أحد .

لم يُلاحظ غيابه إلا في الساعة الثانية ، حينما بدأ أول درس في دروس ما بعد الظهر .

« أين هندنغر ؟ » سأل المدرس .

لم يجب أحد .

« انظروا في عنبر هيلاس » .

ما من أثر له هناك .

« على أية حال سيأتي متأخراً ، لنبدأ الدرس بدونه . كنا قد توقفنا عند الصفحة الرابعة والسبعين ، البيت السابع . ولكن أرجو أن لا يتكرر مثل هذا مرة أخرى . من المهم أن تلتزموا بدقة المواعيد! » حينما أعلنت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهندنغر لما يزل غائباً ، امتلك الخوف المدرس وأرسل في طلب الناظر . وصل الناظر إلى قاعة الدرس بأسرع مما يستطيع ، وبدأ بطرح أسئلة مهمة ، ثم أرسل بعد ذلك عشرة تلاميذ برفقة المدرس للقيام بعملية البحث عنه . وألزم ما تبقى من التلاميذ بكتابة تمرين إملائي .

عند الساعة الرابعة دخل المدرس إلى قاعة الدرس دون أن يطرق الباب ، وهمس بتقريره في أذن الناظر .

« انتباه! » التمس الناظر . وكان التلاميذ يجلسون بسكون إلى

طاولاتهم ، ولاحظوا خيبة الأمل ترتسم على وجهه . «يبدو أن زميلكم هندنغر» أضاف بصوت واطئ «قد غرق في إحدى البرك . يجب عليكم الآن المشاركة في البحث عنه . سيقودكم السيد البروفيسور ماير ، وعليكم طاعته بدقة وبشكل حرفي ، وأن لا يقوم أحد منكم بأي حركة غريبة ، مهما كان نوعها» .

انطلق الجميع بفزع وهمس ، وعلى رأسهم السيد البروفيسور . انضم إلى المجموعة بعض الرجال من أهالي البلدة مصطحبين معهم الحبال والقضبان الخشبية ، وكان البرد شديداً ، والشمس تقف عند أطراف الغابة . أخيراً ، وحينما عثر على جسد الصبي المتجمد ، المغمور بالوحل الثلجي ووضع على النقّالة ، كان الغسق العميق الداكن قد خيّم على الغابة . وقف التلاميذ حوله فزعين مثل الطيور المرتجفة ، يحدقون في الجثة ويدلكون أصابعهم الزرقاء المتجمدة . وفي اللحظة التي نقل من أمامهم الغريق وساروا خلفه صامتين فوق حقول الثلج اهتزت فجأة أرواحهم الوجلة مرتعشة ، وتوجّست الموت الخفي ، كما يحدث للغزالة أمام عدوها .

خطا هانز جيبنرات وسط الجمع النائح صدفة جنب صديقه القديم هايلنر . كانا في نفس اللحظة يتطلعان إلى الجيران الذين من حولهما ، لأنهما كانا يسيران مبعثرين فوق نفس الخط المتعرج للحقل . لعل هيئة الميت قد هزمته ، وللحظة أدرك تفاهة كل هذه الأنانية وحب الذات ، وشعر هانز حينما نظر فجأة بوجه الصديق الشاحب عن قرب بألم غامض عميق ، ثم وبحركة سريعة أمسك بيد هايلنر ، غير أن هايلنر سحب يده رافضاً ، وأشاح بوجهه غاضباً إلى الجانب الآخر ، وفي ذات الوقت فتش عن مكان آخر واختفى في الصف الأخير من الطابور .

أخذ قلب الصبي المثالي هانز يخفق بألم وخجل ، ولم يستطع أثناء سيره المتعثّر على الحقل الجليدي أن يحول دون انسياب الدموع الساخنة على وجنتيه الزرقاوين من البرد ، لقد أدرك أن هناك آثاماً ومآخذ لا يمكن للمرء أن ينساها أو يتغاضى عنها ، وبدا له أن الذي على النقالة

المرفوعة في المقدمة ليس ابن الخياط هندنغر الصغير ، وإنما صديقه هايلنر الذي رحل إلى العالم الآخر وحمل معه الألم والغضب لعدم إخلاصه له ، حيث لا مكان هناك للشهادات والامتحانات والنجاحات ، بل إما للنقاء أو تلوث الضمير .

في غضون ذلك وصلوا إلى الطريق الريفي ، ثم أسرعوا في الدخول إلى الدير ، حيث كان المدرسون جميعهم وعلى رأسهم الناظر باستقبال هندنغر ، الذي لو كان حياً لولى هارباً لمجرد التفكير بمثل هذا التكريم والاحتفال .

دائماً ما كانت نظرة المدرسين إلى التلميذ المتوفى تختلف تماماً عن نظرتهم إليه وهو حي ، ذلك أنهم سيدركون للحظة قيمة واستحالة عودة كل حياة وكل شاب طالما أثموا بحقه ومارسوا ضغوطهم عليه بلا مبالاة .

وحتى في المساء ، وطيلة اليوم التالي ، كان تأثير الحضور غير المرئي للجثة كالسحر ، فقد هدأت ولطّفت ، وأضفت الحزن على كل الأقوال والأفعال ، بحيث اختفت أثناء هذا الوقت المشاجرات والانفعالات والضوضاء والضحك مثل عرائس البحر حينما تختفي في لحظة من على سطح الماء وتكمن ساكنة وكأنها عديمة الحياة . فحينما كان الحديث يدور حول الغريق بين اثنين من التلاميذ فإنهما يأتيان على ذكر اسمه كاملاً ، إذ أن اسم التدليل « هندو » لم يعد يليق بمقامه ، وهندو الصامت هذا الذي لم يُذكر ولم يعنى به أحد في السابق بين المجموعة قد رحل وانتهى ، لكن اسمه وحادث مماته يملآن الآن كل أرجاء الدير الكبير .

في اليوم التالي وصل والد هندنغر . اختلى بضع ساعات لوحده في الغرفة التي يرقد فيها ابنه ، ثم دعاه الناظر إلى تناول الشاي ، وبعد ذلك ذهب وأمضى ليلته في دار استراحة « هيرشن » .

ثم أقيمت مراسم الدفن . كان النعش موضوعاً في قاعة النوم ،

والخياط الكويري* يقف بجانبه ويراقب الجميع . كان شكله شكل خياط حقاً ، نحيف بشكل مخيف وناتئ ، يرتدي معطفاً أسود مائلاً إلى الخضرة وبنطلوناً رثاً ضيقاً ، وفي يده يحمل قبعة عتيقة . كان وجهه الصغير النحيف يبدو مهموماً ، حزيناً واهناً مثل لهب شمعة صغيرة في مهب الريح ، وكان مرتبكاً ، ويبدي احتراماً كبيراً أمام الناظر والسادة الأساتذة .

في اللحظة الأخيرة ، وقبل أن يُرفع النعش ، تقدم الرجل الحزين مرة أخرى ومسّ غطاءه بحركة رقيقة خجولة مترددة . وقف عاجزاً يقاوم دموعه وسط القاعة الكبيرة الصامتة مثل شجرة جرداء في عزّ الشتاء ، كان مشهداً يحزّ القلب ويشقي النفس وهو يقف هكذا ، وحيداً ، خائباً ، مستسلماً . تناول القس يده ووقف إلى جانبه ، وضع قبعته المقوسة الخرافية على رأسه وسار في المقدمة خلف النعش ، نزل الموكب السلم ثم عبر رواق الدير والبوابة القديمة حتى الأرض الثلجية البيضاء باتجاه سياج باحة الكنيسة الواطئ . كان أغلب التلاميذ الذين ينشدون الكورال عند القبر لا ينظرون إلى يد المدرس التعبى وهي توزّع اللحن ، وإنما إلى الجسد الواهي المهجور للأسطة الخياط الصغير الذي يقف حزيناً ، متجمداً في الثلج ويستمع إلى الخطب التأبينية لرجال الدين والناظر ومراقب الفصل برأس منحن ، ويومئ شارداً للمنشدين ، وأحياناً بيده اليسرى بعدما دسّ منديله في جيب سترته ولم يخرجه مرة أخرى .

« يجب أن أتصوّر كيف سيكون الأمر لو أن والدي هو الذي يقف هناك بدلاً منه » قال اوتو هارتنر ذلك فيما بعد وأيّده الجميع « أجل ، تصوّرت نفس الموقف تماماً » .

ثم جاء الناظر بعد ذلك إلى عنبر هيلاس ومعه والد هندنغر « هل كان لأحدكم علاقة خاصة بالراحل ؟ » سأل الناظر وهو يدخل إلى

---

* نسبة إلى منطقة الكويرا دياسبورا .

العنبر . في البدء لم يعلن أحد عن نفسه ، وكان والد هندو يتطلع بوجل في وجوه الصبية . عندئذ تقدم لوسيوس ، تناول يده والد هندنغر ، احتفظ بها بعض الوقت ، لا يدري ماذا يقول ، ثم انطلق سريعاً بانحناءة رأس خاشعة إلى الخارج ، ثم سافر ، وكان عليه أن يمضي يوماً طويلاً في رحلته خلال الأراضي الشتائية قبل أن يصل إلى البيت ويحدث زوجته عن ابنها كارل ، وفي أي بقعة يرقد الآن .

عادت الحياة الطبيعية إلى الدير مرة ثانية . وعاد المدرسون إلى ممارسة نشاطهم ، وأخذت الأبواب تصطفق ثانية ، والهيليني الراحل ما عاد يذكر كثيراً . أصيب البعض بالزكام جراء الوقوف الطويل أثناء مراسم الدفن ، ونقلوا إلى غرفة المرضى ، وكان البعض الآخر ينتعل خُفوفاً من اللّباد ويشدّ أربطة حول الأعناق . أما هانز فقد سلمت قدماه وعنقه ، وبدا منذ اليوم المشؤوم أكثر جدية ونضجاً . كان شيء ما في داخله قد أصبح مختلفاً ، تحوّل من صبي إلى شاب ، كأن روحه انتقلت إلى أرض أخرى وأخذت ترفرف فوقها بخوف وخشية ولما تزل لا تستطيع أن تجد لها مستقراً . لم يحدث هذا نتيجة رعب الموت أو الحزن على الولد الطيب هندو ، وإنما لشعوره بالإثم إزاء هايلنر الذي استيقظ فجأة في نفسه .

كان هايلنر يرقد مع مريضين آخرين في غرفة المرضى ، ووصف له تناول الشاي الساخن . كان لديه متسع من الوقت لتنظيم انطباعاته التي أحسّ بها أثناء موت هندنغر ، كيما يوظفها فيما بعد في أعماله الشعرية . لكن الذي يبدو أنه لم يكن يعنى بها كثيراً أو بالأحرى كان يائساً ، كئيباً ، يكاد لا يتبادل كلمة واحدة مع زميليه في المرض . فمنذ عقوبة حبسه المدرسي التي أدت به إلى العزلة ، خُدشت طبيعته الحساسة التواقة جداً للاتصال وآلت إلى طبيعة متذمرة مريرة . كان المدرسون ينظرون إليه كثوري غاضب عنيف . والتلاميذ يتحاشون الاحتكاك به . ومساعد المدرس يعامله بأسلوب ساخر ، أما أصدقاؤه فكانوا شكسبير ، شيلر وليناو الذين كشفوا له عن عالم عظيم رائع

يختلف عن هذا العالم التعسفي المُذِل الذي يحيط به . من دفتر أشعاره « أناشيد راهب » الذي لم تكن بدايته غير تجربة شعرية لصوت سوداوي زاهد تجمعت شيئاً فشيئاً مجموعة أشعار لاذعة وساخطة على الدير والمعلمين والتلاميذ . لقد ذاق في عزلته طعم التضحية المرّ ولم يكتف منه بعد ، وبدا في أناشيد راهبه الهجائية القاسية مثل شويعر ساخر .

بعد ثمانية أيام على مراسم الدفن ، وبعدما برأ الزميلان من مرضهما وبقي هايلنر وحده في غرفة المرضى زاره هانز . حياه بخجل ، ثم سحب كرسياً وجلس جنب السرير وتناول يد المريض الذي أشاح بوجهه عنه نحو الجدار ، غير راغب وأبدى مكابرة واضحة . لكن هانز لم يتراجع . شدّ على يده بقوة وأرغم صديقه القديم على النظر إليه .

زمّ هايلنر شفتيه غاضباً .

« ماذا تريد حقاً ؟ » .

« يجب أن تصغي إليّ » . قال « لقد كنت آنذاك جباناً فخذلتك . لكنك تعلم ما أنا عليه : إن هدفي الواضح هو البقاء على قمة المجموعة الدراسية وأحرز المركز الأول . لقد وصفت ذلك بالطموح ، ليكن ، ولك الحق ؛ غير أن هذا هو أسلوبي في القدوة ولا أعرف سبيلاً أفضل منه » .

كان هايلنر قد أغمض عينيه ، فيما كان هانز مستمراً ، بصوت منخفض جداً : « انظر ، إنني آسف ، لا أدري إن كنت ترغب في صداقتي مرة أخرى ، لكنك يجب أولاً أن تسامحني » .

ظل هايلنر صامتاً ، ولم يفتح عينيه . كل ما كان يتمتع به هانز من روح طيبة مرحة ، كان يسخر منها هذا الصديق الذي تعود على حالة البؤس والوحدة ، وفضل أن يضع قناعاً أمام وجهه . لم يستسلم هانز .

« أرجو أن تحاول يا هايلنر! إنني أحبذ أن أكون الأخير في المجموعة الدراسية على أن أستمر أكثر من هذا في السعي وراءك . فإن كنت ترغب ، يمكننا أن نعود أصدقاء ثانية ، نبرهن للآخرين بأننا في

غنى عنهم » .

عندئذ أجاب هايلنر بضغط يده وفتح عينيه .

بعد بضعة أيام على ذلك ترك هايلنر هو الآخر السرير وغادر غرفة المرضى ، ولم تحدث في الدير أية ردود فعل حول طبخة الصداقة الجديدة هذه . استقبل الصديقان أسابيع حافلة دونما إشكالات تذكر ، أسابيع مفعمة بشعور الانتماء والفرح والتفاهم الصامت الكامن . أصبح كل شيء يختلف عن السابق . لقد غيّر الانفصال الذي دام عدة أسابيع من طبيعة الصديقين . أصبح هانز أكثر رقّة وشوقاً ؛ واكتسب هايلنر مظهراً أكثر قوة ورجولة ، وكلاهما تاق للآخر بشدة في الآونة الأخيرة ، وبدا تحالفهما الجديد وكأنه حدث كبير وهبة لا تقدر بثمن .

بشعور من الخجل تذوّق الصبيان المبكرا النضوج ، ودون أن يدركا ، بعض الأسرار الشفّافة للحب الأول . لذا فقد كان لعودتهما الجديدة طعم الإثارة المرّة للرجولة الناضجة وفي الوقت ذاته طعم التوابل اللاذع لشعور التحدي ضد كل الزملاء الذين لم يكونوا يميلون إلى هايلنر ولا يفهمون هانز ، وكانت علاقاتهما السابقة معهم قبل هذا عديمة الجدوى ولم تمثل سوى لعب من ألعاب الطفولة .

كلما كان تعلق هانز بصداقته أكثر شدة وابتهاجاً ، كلما بعدت غربته أكثر من الدير . لقد اندفع تيار السعادة الجديد اندفاعاً عاصفاً كالنبيذ الطازج خلال دمه ووجدانه ، وفقد إلى جانبه ليفيوس وكذلك هوميروس أهميتهما وبريقهما . وجد المدرسون بقلق أن التلميذ المستقيم حتى الآن جيبنرات قد تحوّل إلى كائن معقد وأخذ يخضع للتأثيرات السيئة السمعة للشخص المشبوه هايلنر ، وأصيبوا بفزع شديد أمام الظواهر الغريبة التي طرأت على شخصيته وهو يتخطى أخطر مرحلة من مراحل انطلاقة الشباب . بلا شك كانت نظرتهم إلى هايلنر منذ البداية على أنه نابغة – ومعروف منذ عهد قديم أن بين النابغة وجماعة المدرسين هوّة عميقة ، وكل ما كان يأتي به هؤلاء النوابغ من

أعمال في المدرسة يعتبرها المدرسون أساساً نوعاً من الفضائح . إن النوابغ يعنون لهم أولئك الأشرار الذين لا يظهرون أمامهم أي احترام ، ويبدؤون التدخين في سن الرابعة عشرة ، ويدخلون عالم الحب في الخامسة عشرة ، ويرتادون الحانات في السادسة عشرة ، ويقرؤون الكتب الممنوعة ويكتبون الموضوعات الفاضحة ويسخرون من مدرسيهم ، وتسجل أسماؤهم في دفتر الملاحظات اليومية على أنهم مثيرو الشغب ويرشحون للحبس المدرسي الشديد . إن أي ناظر مدرسة كان يفضل بعض الحمير في صفه على وجود نابغة واحد فقط ، ويضع نصب عينيه أن مهمته لا تنحصر إطلاقاً في تنشئة شيطان غريب الأطوار فحسب وإنما تنشئة لغويين ومحاسبين قديرين ورجال مستقيمين . ولكن ليس بوسع المرء أن يتحقق عن الذي يعاني أكثر وأشد تحت وطأة الآخر ، المدرس أم التلميذ ، ومن هو أكثر تعسفاً ومشاكسة ، ومن الذي يُفسد ويخرّب الجوانب الأخرى من روحه وحياته دون أن يشعر بالسخط والخجل من شبابه ونفسه ؟ بيد أن ذلك ليس من شأننا ، ولنا عزاء في أن الجُرح يلتئم دائماً عند النوابغ الحقيقيين ، ويبرز منهم أناس يتخذون من المدرسة كتحد لتحقيق أعمالهم الفذة ، ثم بعد ذلك يرحلون عن هذه الدنيا ويملؤون الأفق بهالة قدسية جميلة تتخذ منها الأجيال القادمة قدوة ومثالاً نادراً ورائعاً يحتذى به : وهكذا تتكرر من مدرسة إلى أخرى مسرحية الصراع بين القانون والفكر ، ونرى باستمرار أن الدولة والمدرسة تسعيان بجهد لتمزيق جذور هذه النخبة من المفكرين العميقين النادرين الذين يظهرون عاماً إثر عام . وهذه النخبة تتألف بشكل خاص من المغضوب عليهم من قبل نظراء المدارس ، ومن المدانين والفارين والمفصولين الذين سيعملون فيما بعد على إثراء تراث الشعب . غير أن بعضهم - من يدري كم يبلغ عددهم ؟ - يستهلك نفسه في عناده الصامت ويختفي .

كان من المفروض ، حسب ما تنص عليه اللوائح التربوية القديمة الصائبة أن يضاعفوا من حبهم تجاه الشابين الصديقين الغريبين ، لكنهم

بدلاً من ذلك ، وكما تسربت الأنباء ، ضيقوا الخناق من حولهما ، وزادوا من قسوتهم عليهما ، وفقط ناظر المدرسة الذي كان فخوراً بهانز كأفضل تلميذ في درس اللغة العبرية قام بمحاولة غير موفقة لإنقاذ الموقف فاستدعاه إلى غرفة مكتبه ، الغرفة الخارجية الجميلة الزاهية لمبنى السكن القديم ، حيث تقول الأسطورة إن الدكتور فاوست قد احتسى بضعة كؤوس من الشراب المحلي «الفنغر» بالقرب من كنتلنغن . لم يكن الناظر إنساناً ملتوياً أو عديم الرؤيا ويفتقد إلى التفكير العلمي ، وإنما كان يتسم بالطيبة مع تلاميذه ويميل إلى مخاطبتهم بصيغة المفرد . لكن عيبه الوحيد هو شعوره الشديد بالزهو الذي دائماً ما كان يدفعه أمام المنصّة للقيام بحركات بهلوانية تحمل طابع الغرور ، فتكشف بذلك عن شخصيته وسلطته في أضيق حدودها ، وتبعث على التشكيك بهما . لذلك كان يميل إليه الأشخاص العديمو الإرادة أو ممن يفضلون الصمت ، لكن الآخرين وبالذات التلاميذ الأشداء والصريحين منهم كانوا يجدون صعوبات بالغة في تقبله ، ويثيرهم هذا التناقض الواضح في شخصيته . إن دور الصديق الأبوي ، والنظرة الحريصة والصوت الرخيم المطمئن كان يؤديه بمهارة فائقة ، وها هو الآن يضطلع به أيضاً .

«تفضل بالجلوس يا جيبنرات» تكلم بودّ بعدما ضغط بشدة على يد الصبي الخجول الداخل إليه .

«بودي التحدث معكم قليلاً ، ولكن هل من الممكن مخاطبتكم بصيغة المفرد ؟ »

«تفضل ، أيها السيد الناظر» .

«ربما وجدت بنفسك يا عزيزي جيبنرات أن نشاطك قد تدنى في الآونة الأخيرة ، على الأقل في درس اللغة العبرية . لقد كنت حتى الآن أفضل تلميذ لدينا في العبرية ، لذا يؤسفني منك هذا التردي المفاجئ . لعلك لم تعد تجد المتعة الحقيقية في هذا الدرس ؟ » .

«أوه ، كلا ، أيها السيد الناظر» .

« فكّر إذن! كيف يحدث مثل هذا ؟ ربما أصبحت تميل إلى فرع خاص آخر ؟ » .

« كلا ، أيها السيد الناظر » .

« حقاً ؟ إذن يجب أن نبحث عن سبب آخر . هل لك أن تساعدني في إيجاد الأثر ؟ » .

« لا أعلم . . لقد كنت أنجز أعمالي باستمرار . . . »

« بالطبع يا عزيزي ، بالطبع . لكن الاختلاف يكمن في هذا التناقض* . من الطبيعي أن تنجز أعمالك ، إنها بالتأكيد من الواجبات المفروضة عليك ، غير أن نتاجك في السابق كان أكثر ، ربما كنت أكثر نشاطاً ، وعموماً أكثر اهتماماً . لا يسعني الآن إلا أن أتساءل عن هذا الهبوط المفاجئ في حماسك . ألست مريضاً ؟ » .

« كلا »

« أم تعاني من الصداع ؟ أراك قليل النضارة والانتعاش » .

« أجل ، أشعر بالصداع أحياناً » .

« هل يجهدك العمل اليومي كثيراً ؟ » .

« أوه ، كلا ، إطلاقاً . . . »

« أو أنك تفرط في مطالعات خاصة ؟ كن صريحاً! » .

« كلا ، أيها السيد الناظر ، أكاد لا أقرأ شيئاً » .

« إذن ، لا أفهم ذلك إطلاقاً يا صديقي الشاب . لا بد وأن هناك خللاً في موضع ما . أتعدني ببذل قصارى جهدك ؟ » .

وضع هانز يده في اليد الممتدة اليمنى للناظر المتجبر الذي رمقه

---

* النص الأصلي في اللغة اللاتينية .

بنظرة جادة وهادئة .

« إذن لنبق على هذا الاتفـاق المثـمـر يا عـزيـزي . وعليك أن لا تتهاون ولا تضعف وإلا سقطت تحت العجلة » .

ضغط على يد هانز الذي سار إلى الباب وهو يتنفس الصعداء . ثم نودي عليه ثانية .

« شيء آخر يا جيبنرات . أليس صحيحاً من أن لك علاقات واسعة مع هايلنر ؟ » .

« أجل ، واسعة إلى حد ما » .

« أكثر مما مع الآخرين ، كما أعتقد ، أم لا ؟ » .

« بالتأكيد ، نعم ، إنه صديقي »

« كيف تم ذلك ؟ إنكما في الواقع من طبيعتين مختلفتين تماماً » .

« لا أدري ، إنه الآن صديقي وحسب » .

« لعلك تعلم بأنني لا أميل إلى صديقك هذا كثيراً . إنه مخلوق متذمر ، مضطرب ؛ ربما يكون موهوباً لكنه لا يفعل شيئاً ، وله تأثير سيئ عليك . سأكون مسروراً جداً لو تبتعد وتمتنع عنه – ماذا تقول ؟ »

« لا أستطيع ذلك ، أيها السيد الناظر » .

« لا تستطيع ؟ كيف إذن ؟ »

« لأنه بالذات صديقي . وببساطة لا أستطيع خذلانه » .

« هـ . . .م . لكن في مقدورك أن تنضمّ إلى الآخرين . أنت الوحيد الذي وقع تحت تأثير هذا الهايلنر السيئ ، والنتائج التي أمامنا الآن تؤكد ذلك . ما الذي يغريك فيه بهذا الشكل ؟ » .

« أنا شخصياً لا أدري . لكننا نودّ بعضنا كثيراً ، وسيكون من

الجبن لو تخليت عنه» .

«هكذا إذن . لا أريد إرغامك على ذلك ، لكنني آمل أن تنفصل عنه تدريجياً . سأرحب بذلك ، سأرحب بذلك كثيراً» .

اختلفت لهجة الناظر الأخيرة عما كانت عليه من رقّة ولطف حينما بدأ حديثه أول الأمر . الآن أصبح على هانز أن يذهب .

بعد هذه المقابلة مباشرة انكبّ هانز على العمل مجدداً . لكن عمله هذا لم يكن مدفوعاً بالنشاط والحماس كما كان في السابق وإنما عملٌ مضن لا يطمح منه شيئاً سوى اللحاق بالركب ، أو على الأقل كي لا يتأخر عن زملائه كثيراً . لقد وجد أن جانباً من علاقة صداقته قد مُسّ ، لكنه لم ير في ذلك ضرراً كبيراً ، بل على العكس وجد في تلك الصداقة كنزاً يعوّض من خلالها عن كل الفرص الضائعة ، حياة راقية دافئة ، لا تقارن بتلك الحياة المتزمتة العملية . كان يحسُّ كالفتى العاشق ؛ ووجد في نفسه القدرة على القيام بالأعمال البطولية الجسيمة وليس إنجاز الواجب اليومي الممل الصغير الشأن . وهكذا أصبح دائم الاضطراب تحت وطأة الجهد والإنهاك اللذين يدفعانه إلى اليأس والإحباط – لم يستطع أن ينافس هايلنر الذي ينجز أعماله بشكل عفوي ، ويلمّ بما هو ضروري بسرعة هائلة – ولما كان صديقه يشغله في ساعات فراغه كل مساء تقريباً فقد اضطرّ أن يستيقظ في الصباح قبل الموعد بساعة واحدة ويتصارع مع قواعد نحو اللغة العبرية كما يتصارع مع خصم عنيد . وفي الواقع لم تعد الدروس الأخرى تثير اهتمامه ومتعته سوى هوميروس ودرس التاريخ . ومثل الذي يلتمس طريقه في الظلام أخذ يقترب من فهم وإدراك العالم الهوميروسي ، وفي درس التاريخ توقف الأبطال عنده بشكل تدريجي في أن يكونوا أسماءً وأرقاماً ، وأصبحت العيون التي ينظرون بها عيوناً قريبة مشعّة ، وشفاههم حيّة ، حمراء ، وكأن لدى كل منهم وجهاً وأيادي – أيادي حمراء ، سميكة خشنة ، وأيادي ساكنة – باردة ، متحجرة وأخرى نحيفة ، حارة ، دقيقة العروق . كذلك عند قراءة الكتاب المقدس في نصه اليوناني كان يجد

نفسه في بعض الأحيان مباغتاً بقوة تجسيد وقرب الشخصيات ، بل ومأخوذاً بها ، وبخاصة الجملة الواردة في إصحاح ماركوس السادس حينما يغادر السيد المسيح السفينة مع حوارييه «لقد تعرفوا عليه في الحال وساروا في أثره» . حيث يشاهد هو أيضاً ابن الإنسانية يغادر السفينة ، لكنه لم يتعرف عليه في الحال ، لا من خلال هيئته ولا من وجهه ، وإنما من خلال التجويف المُشع لعينيه الوديعتين ، ومن خلال الحركات الرشيقة الملوحة أو بالأحرى المشجعة والمرحبة بحرارة ليديه الواهنتين الجميلتين السمراوين حيث تبدوان وقد خلقتا وبوركتا من روح شفافة وعظيمة ، ثم تظهر معاً حافة ماء مضطرب ومقدمة قارب ثقيل محمّل للحظة واحدة . وبعد ذلك يتلاشى كل المشهد مثلما يتلاشى نفس من البخار أثناء الشتاء .

كانت دائماً ما تحدث له مثل هذه المشاهد ، حيث تبرز من الكتب شخصية ما أو قصة مشوّقة ، تتوق شخصياتها وتتلهف إلى الحياة مرة أخرى فتنعكس صورتها في عين حقيقية . كان هانز يستسلم لمثل هذه المشاهد ويُدهش لها ، ويجد نفسه في خضم هذه الظواهر التي غالباً ما تختفي بسرعة وقد تحوّل إلى إنسان عميق نادر ، كأنه ينظر اليه . كانت هذه اللحظات تأتي بلا دعوة ثم تختفي بلا مساءلة مثل حجّاج أو زوار أعزاء لا يجرؤ أحد على إرغامهم على المحادثة أو البقاء ، لأنهم محاطون بشيء غريب وإلهي .

كان هانز يخفي مثل هذه المشاهد ويحتفظ بها لنفسه ولا يخبر بها أحداً حتى هايلنر . تحولت كآبة هايلنر الى شبح معلق ، عنيف ، وأخذ يمارس انتقاده على الدير والمعلمين والزملاء والطقس وحياة الناس وعلى وجود الله ، ويميل في بعض الأحيان الى المشاجرة أو يأتي بأفعال شيطانية حمقاء . وبسبب عزلته التامة وتناقضه مع الآخرين كان يحاول بكبرياء نزقة تصعيد هذا التناقض الى ذروة التشنجات العصبية العدوانية . فيما كان جيبنرات يجد نفسه وقد زج معه في هذه المواقف دون أن يستطيع منع ذلك ، بحيث يقف الصديقان معزولين ازاء الجماعة

مثل جزيرة ملفتة للنظر تثير الغيرة والحسد . لذلك أخذ هانز يشعر مع مرور الوقت بشيء من عدم الراحة . تبعاً لذلك الناظر ، كم كان يخافه خوفاً شديداً ، لقد كان في السابق تلميذه الأثير ، أما الآن فقد أصبح يعامله ببرود ويهمله بقصد واضح . لقد فقد شيئاً فشيئاً كل ما لديه من رغبة في درس اللغة العبرية الذي كان من اختصاص الناظر .

كان من الممتع ملاحظة التغيرات الجسدية والنفسية التي طرأت على التلامذة الأربعين باستثناء بعض الفترات خلال الشهورالقليلة الماضية . لقد شبَ سريعاً العديد منهم في الطول ، على حساب العرض ، وامتدت ممتلئة بالأمل عظام السواعد والسيقان في الملابس التي تخلفت عن النمو معها . كانت الوجوه تمتلك كل الظلال التي بين الطفولة الآملة ومطلع الرجولة القلقة المتباهية ، وحيث الجسد لا زال حراً ، طليقاً ، جراء التكوينات البارزة لفترة النمو التي أضفت دراسة كتب موسى على جبينه الناعم رزانة رجولية مؤقتة . أما الوجنات المتوردة البضّة فانها تكاد تكون تحفة جميلة نادرة .

حتى هانز تغير أيضاً . لقد أصبح الآن يماثل هايلنر طولاً ونحافة ، وبدا أكبر سناً من السابق . لقد بانت أخاديد جبهته التي كانت حتى وقت قريب رقيقة ، شفافة ، وغارت عيناه عميقاً في محجريهما ، واكتسى وجهه لون المرضى ، وتنئت عظام أطرافه ومنكبيه وأصابعها الهزال .

كلما كانت قناعة هانز بنتاجه المدرسي تقل ، كلما كان يزيد على مضض ابتعاده عن زملائه بتأثير هايلنر . وحيث لم يعد هناك من سبب لأن يكون التلميذ النموذجي ، وأن يصبح رئيس المجموعة الدراسية في المستقبل فقد شعر بأن كبرياءه قد جرحت في الصميم . غير أنه لم يغفر اطلاقاً للتلاميذ الذين كانوا يشيرون اليه بكل ذلك فيسببون الألم الشديد في نفسه . وبالذات حدثت له عدة مشاجرات مع الزميل المثالي هارتنر وذلك السليط اللسان اوتو فنجر . فحينما سخر منه فنجر ذات مرة وأغاظه ، نسي هانز نفسه وسدّد له على الفور لكمة على وجهه .

ثم نشبت بينهما معركة عنيفة . كان فنجر جباناً ، لكنه على استعداد لمنازلة الخصوم الضعفاء ، فأخذ يكيل الضربات بلا هوادة . لم يكن هايلنر متواجداً أثناء المعركة ، وكان الآخرون يتفرجون مكتوفي الأيدي ويتمنون أن ينال هانز عقوبة السجن المدرسي . سال دمه ، ونزف أنفه وآلمته جميع أضلاعه ، فظل مسهداً طيلة الليل يعاني من الخجل والألم والغضب . كتم هذه الحادثة على صديقه ، وقرر منذ تلك اللحظة أن لا يتحدث بعد مع أي من زملاء عنبره ولا حتى بكلمة واحدة .

عند مطلع الربيع وتحت تأثير أمطار الظهر وأيام الآحاد وساعات الغسق الطويلة ظهرت في حياة الدير نشاطات وحركات جديدة . فقد قرر ساكنو عنبر اكروبوليس الذي ينتمي إليه عازف بيانو جيد واثنان آخران على التالي إقامة أمسيتين موسيقيتين منظمتين ، وفي عنبر جرمانيا افتتحت جمعية لقراءة النصوص الدرامية ، وأسس بعض الشبان ممن ينتمون إلى الحركة البروتستانتية المجددة حلقة إنجيلية تقرأ مساء كل يوم فصلاً من الإنجيل ، إضافة إلى جميع الإشارات الواردة في إنجيل كالفة حول مشهد آلام المسيح وصلبه .

تقدم هايلنر للانضمام إلى جمعية القراءات الدرامية التابعة لعنبر جرمانيا ، لكنه رُفض . أخذ يغلي من الغضب والغيظ ، وانتقاماً منه على ذلك اتجه إلى الحلقة الإنجيلية ، غير أنه رفض هناك أيضاً ، فأخذ يلحّ ويتطفل ، ونشبت أثناء المناقشات الدينية للأخوية الصغيرة المتواضعة العديد من المشاجرات والمعارك بسبب كلماته القاسية وإشاراته الكافرة ، ثم سرعان ما سئم من هذه المزحة أيضاً بعدما استمر طويلاً يسخر من الكتاب المقدس . في هذه المرة لم يلق آذاناً صاغية وتجاهلوه ، لأن الحلقة كانت مهووسة تماماً بالمشروع ومسألة التأسيس .

ضمن التلاميذ الضليعين بروح النكتة اللاذعة كان هناك تلميذ من عنبر إسبارطة يسعى دوماً لإثارة الحديث والجدل حول نفسه . كان غرضه من ذلك يكمن في المقام الأول تأسيس شهرة شخصية له وإشاعة شيء من الحيوية في جو العنبر ، وتحقيق متعة دائمة في حياة العمل

الرتيبة من خلال قيامه بإثارة ألوان من العبث الساخر . كان هذا التلميذ الذي يدعى باسم التدليل «دونستان» قد قرر أن يبتكر أسلوباً جديداً في الإثارة لكي يحلق عالياً في سماء الشهرة والمجد .

ذات صباح ، وبعدما خرج التلاميذ من صالات نومهم ، وجدوا ورقة مثبتة على باب قاعة الغسيل تحمل عنوان «ست مهازل من إسبارطة» ودوّنت فيها أسماء مجموعة مختارة من الزملاء المعروفين ، وتسخر من حماقاتهم ومشاجراتهم وعلاقاتهم الصداقية على شكل بيتين من الشعر الهجائي المضحك . ولم يسلم حتى الزوجين جيبنرات وهايلنر من هذه المزحة فنالا نصيبهما من النقد والقدح . حلّت البلبلة في المؤسسة الصغيرة ، واحتشدت الجماعة أمام ذلك الباب كما يحتشد الناس أمام واجهة مسرح ، وأخذت المجموعة تتدافع وتتراكض وتئز مثل خلية نحل تزفّ ملكتها إلى الفضاء .

في صبيحة اليوم التالي كانت الأبواب جميعها مرصّعة بأوراق المهازل وأبيات الهجاء تلك ، مع إضافة بعض التكملات والتأكيدات والهجمات الجديدة ، غير أن صاحب الفضيحة لم يكن قليل حيلة ليشرك نفسه فيها مرة أخرى . كان هدفه في قذف الشعلة فوق اللبّاد قد تحقق وأخذ يفرك يديه فرحاً . لبضعة أيام زج جميع التلاميذ تقريباً أنفسهم في أتون معركة الأشعار الهجائية هذه ، وراح كل واحد منهم يتأمل طويلاً لاستحداث أبيات ساخرة جديدة ؛ ربما كان لوسيوس الشخص الوحيد الذي لم يلتفت إلى هذه المسألة كما هي عادته دائماً ، فانصرف إلى عمله بكل هدوء . في آخر المطاف لاحظ أحد المدرسين هذه اللعبة المثيرة ووضع حداً لها .

لم يكد الماكر «دونستان» ينعم بما حققه من نصر حتى هيأ ضربته الجديدة الأخرى . عكف على إصدار العدد الأول من صحيفة يتم استنساخها في حجم صغير على أوراق مسودّة ، وشرع بجمع مواد النشر خلال بضعة أسابيع . كانت الصحيفة تحمل اسم «الخنزير الوبري» ، وهي صحيفة ساخرة في أغلبها . وتصدر العدد الأول من

الصحيفة الحوار المضحك بين مؤلف كتاب يسوع وأحد تلاميذ حلقة ماولبرون الدراسية .

حققت الصحيفة نجاحاً منقطع النظير ، ودونستان الذي تقمص الآن هيئة وسلوك محرر وناشر ذي باع طويل اكتسب في الدير شهرة تماثل تقريباً الشهرة التي كان يتمتع بها في زمانه المعروف اريتينر* في جمهورية البندقية .

دُهش الجميع حينما اشترك هايلنر بحماس في التحرير ، وبدأ مع دونستان يكتب نقداً هجائياً لاذعاً لم يكن يقترن بالسخرية أو روح النكتة . وعلى مدى أربعة أسابيع تقريباً جعلت هذه الصحيفة الصغيرة كل من في الدير يحبس أنفاسه .

استحسن جيبنرات عمل صديقه ، لكنه شخصياً لم تكن لديه الرغبة ولا الموهبة للمشاركة فيه . لم يلحظ في البداية إلا نادراً بأن صديقه هايلنر قد أخذ في الآونة الأخيرة يمضي أغلب أمسياته في عنبر إسبارطة ، حيث كان ما يشغله هناك منذ فترة قصيرة . كان هانز يتجول في النهار بتكاسل وشرود ذهن ؛ يعمل ببطء وبلا رغبة ، وذات مرة في درس تاريخ ليفيوس حدث له ما يبعث إلى الدهشة . ناداه المدرس للترجمة . لكنه مكث جالساً في مقعده .

« ماذا يعني ذلك ؟ لماذا لا تنهض ؟ » صاح المدرس بغضب .

لم يتحرك هانز . كان يجلس في مقعده منتصباً ، ورأسه منحن قليلاً وعيناه شبه مغمضتين . كان النداء قد أيقظه نصف استيقاظة ، وكان يسمع صوت المدرس كما لو أنه يأتي من مسافة بعيدة . شعر أيضاً بوخزات زميله الجار الحادة ، ولم ينتبه . كان يحيط به أناس آخرون ، أياد أخرى ، تجسّه ، وأصوات أخرى تتحدث إليه ، أصوات قريبة ، خافتة ، عميقة ، لا تتحدث بالكلمات وإنما تهمس بعمق ورقّة

* اريتينو . بياترو : (١٤٩٢-١٥٥٦) أديب هجّاء إيطالي ، نظم عدة مسرحيات فكاهية وألّف عدداً من الرسائل والمقطوعات الهجائية .

مثل نغمات نبع ماء . كانت هناك عيون كثيرة تتطلع إليه - عيون غريبة ، قلقة ، واسعة لعلها عيون جمع شعبي روماني ، من تلك العيون التي قرأ عنها قبل قليل في كتاب ليفيوس ، أو ربما عيون قوم غير معروفين كان قد حلم بهم أو شاهدهم في مكان ما على الصور واللوحات .

« جيبنرات! » صرخ المدرس «أنائم أنت ؟ » .

فتح التلميذ عينيه بهدوء واستقرتا بدهشة على المدرس وأومأ برأسه .

« لقد نمت! هل لك أن تقول لي عند أية جملة توقفنا ؟ والآن ؟ » .

أشار هانز بإصبعه إلى الكتاب ، وكان يعلم جيداً أين موضع التوقف .

« وهل لك الآن أن تنهض ؟ » سأل المدرس بصوت تهكمي .

وقف هانز .

« ما الذي تفعله ؟ انظر إليّ! »

نظر إلى الأستاذ . لكن هذا الأخير لم ترق له النظرة ، فهزّ رأسه ساخراً .

« هل أنت مريض! جيبنرات ؟ »

« كلا ، أيها السيد البروفيسور » .

« تفضل بالجلوس ، وتعال بعد انتهاء الدرس إلى غرفتي »

جلس هانز ، وأطرق فوق كتاب ليفيوس . استيقظ الآن كلية واستوعب كل ما يدور حوله ، لكن عينيه الداخليتين ظلتا تقتفيان الأشكال الغريبة الكثيرة التي أخذت تنأى عنه في مسافات كبيرة وعيونها الملتمعة لا تزال تحدّق به حتى تلاشت بعيداً في الضباب . في

ذات اللحظة كان صوت الأستاذ وكذلك صوت التلميذ المترجم وكل الضوضاء الصغيرة لقاعة الدرس يزداد اقتراباً ، وأخيراً عاد كل شيء إلى واقعيته وحضوره كما في السابق . كانت مقاعد الطلبة ومنصّة المدرس والسبورة لا تزال موجودة كما هي دائماً ، ولا زال الفرجار الخشبي الكبير ومثلث الرسم معلقين على الجدار ، ومن حوله كان يجلس جميع الزملاء ، وأنظار الكثيرين منهم متجهة إليه بفضول ووقاحة . حينئذ فزع هانز بشدة .

« تعال بعد انتهاء الدرس إلى غرفتي » هذا ما سمعه . ربّاه ، ما الذي حدث ؟

بعد انتهاء الدرس لوّح له الأستاذ للقدوم إليه ، ثم اصطحبه إلى غرفته خلال صف التلاميذ الذين كانوا ينظرون إليه بدهشة .

« والآن قُلْ لي ، ما الذي أصابك حقاً ؟ إذن لم تكن نائماً ؟ »

« كلا »

« لماذا لم تنهض عندما ناديتك ؟ »

« لا أدري »

« أو أنك لم تسمعني ؟ هل أنت أصمّ ؟ »

« كلا . لقد سمعتك »

« ومع ذلك لم تقف ؟ كانت عيناك تبدوان غريبتين أيضاً . بمَ كنت تفكر إذن ؟ »

« في لا شيء . كنت أريد أن أقف »

« لماذا لم تفعل ؟ هل كنت في حالة سيئة ؟ »

« لا أعتقد . لا أعلم ماذا جرى »

« هل شعرت بالصداع ؟ »

« كلا »

« حسناً . انصرف »

نودي عليه قبل تناول الطعام واصطحب إلى قاعة النوم . كان بانتظاره هناك الناظر ورئيس الأطباء . فُحص وسُئل ، لكن شيئاً واضحاً لم يتبين منه . ضحك الطبيب باطمئنان واستسهل الأمر .

« إنها حالة عابرة من تعب الأعصاب ، أيها السيد الناظر» ثرثر بهدوء «حالة من الضعف الآني – نوع من الدوار البسيط . يجب على الشاب أن يخرج يومياً إلى الهواء الطلق . أما بالنسبة للصداع فيمكن أن أصف له بعض القطرات » .

منذ الآن تحتم على هانز أن يخرج يومياً للتمشي في الهواء الطلق بعد تناول طعام الغداء ، لم يعترض على ذلك ، لكن ما هو سيئ في الأمر أن الناظر قد منع عليه منعاً قاطعاً اصطحاب هايلنر معه أثناء فترة التنزه هذه . أغاظه ذلك وأثار استياءه ، غير أنه كان مرغماً على تقبل الأمر الواقع . وهكذا أخذ يذهب للتنزه بمفرده دائماً ، ثم سرعان ما وجد شيئاً من المتعة في هذا التنزه . كان الربيع في أوله ، وفوق الروابي المستديرة ، الجميلة التموّج كانت الخضرة الواعدة تمتد مثل موجة رقيقة واسعة ، والأشجار ترتدي ثيابها الشتائية ، وشبكة الخطوط البنية ذات المعالم الواضحة كانت تضع وتتداخل مع لعبة الأوراق الطرية وألوان الطبيعة وكأنها نسخة منسابة لا حدود لها من الأرض الخضراء النضرة .

في الماضي ، خلال سنوات الدراسة اللاتينية ، كان هانز يتأمل الربيع بشكل يختلف عما هو الآن ، كان أكثر حيوية وفضولاً ، وأكثر اهتماماً بالتفصيلات . آنذاك كان يتمتع بمراقبة الطيور العائدة من هجراتها وهي تطير في السماء صنفاً وراء آخر ، ويراقب تفتح مجاميع أوراق الأشجار ، ثم ما أن يحلّ شهر مايو حتى يبدأ هوايته في صيد السمك . أما الآن فلم يعد يحفل كثيراً في تمييز أصناف الطيور أو التعرف على الشجيرات من براعمها . بات فقط يتطلع إلى التجدد العام

لظهور الألوان في كل مكان ، ويشمّ رائحة الأوراق الطرية ، ويتحسس الهواء الهفيف المضمخ ، ويتمشى مأخوذاً خلال الحقل . أصبح الآن يتعب بسرعة ، فيستلقي على الحشائش ويغفو ، ويشاهد دوماً أشياء مختلفة ، متنوعة وكأنها تحيط به حقاً . لا يعرف عن حقيقتها شيئاً ولا يجهد نفسه في التفكير بها . إنها تشبه أحلاماً مرهفة ، رقيقة غير مألوفة تحيط به مثل اللوحات أو الشوارع التي على جانبيها أنواع غريبة من الأشجار ، لا يحدث فيها شيء . لوحات أصلية للمشاهدة فقط ، لكن مشاهدتها بحد ذاتها تشكل حدثاً ، انتقالاً إلى أماكن أخرى وبشر آخرين . تجوال في أرض غريبة ، دخول في تربة ناعمة ، مستحبة ، واستنشاق لهواء غريب ، خفيف ، ذي مذاق لذيذ وحالم . وعند موضع هذه اللوحات كان يسري بين الحين والآخر شعور غامض ، دافئ ومثير ، كأن يداً رشيقة تقوده ليمس الجسد بلمسة رقيقة .

كان هانز يبذل قصارى جهده في القراءة وإنجاز الواجبات المدرسية . يهمل كل ما هو ليس ضرورياً ، وإذا كان لديه درس في المفردات العبرية فإنه يقوم بحفظها ومراجعتها قبل نصف ساعة من بدء الدرس .

لكن تلك اللحظات المجسّدة للرؤيا كانت غالباً ما تبرز أمامه ، بحيث أن كل الأشياء كانت تظهر له فجأة أثناء القراءة ، فيراها حيّة ، متحركة ، أكثر تجسيداً وواقعية من الأشياء الأخرى التي تحيط به . وحين كان يلاحظ بيأس أن ذاكرته لم تعد تلتقط بشكل جيد أو تكاد أن تصبح مشلولة وغير دقيقة يوماً بعد يوم عندئذ تلحّ عليه أحياناً وبوضوح رهيب الذكريات القديمة ، فتبدو له مخيفة ومثيرة للدهشة ، كان أحياناً يتذكر وسط الدرس أو أثناء القراءة أباه أو العجوز « آنا » أو أحد مدرسيه القدامى أو زميلاً له ، حينئذ يقفون أمامه بوضوح ويستحوذون على انتباهه للحظة من الزمن . كانت مشاهد إقامته في شتوتغارد وامتحان المقاطعة والعطلة يعيشها مرة إثر مرة ، أو أنه يجد نفسه مع صنارة الصيد جالساً عند النهر ، يشم رائحة الماء المشمّس ،

فيبدو له الزمن الذي يحلم به وكأنه يعود إلى سنوات بعيدة خلت .

ذات مساء دافئ رطيب كئيب ذهب مع هايلنر ليتمشى في صالة النوم ، وأخذ هناك يتحدث عن بلدته ووالده وعن صيد السمك وذكريات المدرسة القديمة . ظل صديقه صامتاً بشكل غريب ؛ تركه هايلنر يسترسل في ذكرياته وكان بين لحظة وأخرى يومئ له أو يرفع مسطرته التي كان يعبث بها طيلة اليوم إلى الأعلى متأملاً إياها ثم شيئاً فشيئاً صمت هانز أيضاً ؛ هبط الظلام ، فجلسا على إفريز إحدى النوافذ .

« أنت ، يا هانز! » بدأ هايلنر أخيراً . كان صوته مضطرباً ، غير واثق .

« ماذا ؟ »

« أوه ، لا يهم »

« كلا ، تكلم! »

« كنت أفكر فقط - ما دمت قد تحدثت عن كل هذا - »

« ماذا لديك ؟ »

« قُل لي يا هانز ، هل سعيت مرة من أجل فتاة ؟ »

وكان الصمت . لم يكونا قد تحدثا قبل ذلك إطلاقاً عن مثل هذه الأمور . شعر هانز برهبة ، وسحره هذا الموضوع مثل حديقة أسطورية . تصاعد الدم في وجهه وأخذت أصابعه ترتجف .

« مرة واحدة فقط » أجاب هامساً « كنت لا أزال طفلاً غريراً »

عاد الصمت مرة أخرى .

« - وأنت يا هايلنر ؟ »

« آه ، دعك من هذا! - أتدري ، ينبغي أن لا نخوض في مثل هذا

الموضوع أبداً ، إنه عديم الجدوى » .

« كلا ، كلا »

« لديّ حبيبة »

« أنت ، حقاً ؟ »

« في بلدتي . هي جارتي . قبلتها في هذا الشتاء »

« قُبلة – ؟ »

« أجل – كان الوقت ظلاماً . في المساء ، على الثلج ، كنت أساعدها في خلع حذاء التزلج . ثم قبلتها »

« ألم تقل شيئاً ؟ »

« فيما يتعلق بالقبلة ، كلا . لكنها هربت »

« وبعد ذلك ؟ »

« بعد ذلك! لا شيء »

تنهّد مرة أخرى ، وهانز يتطلع إليه . كأنه بطل عائد من جنائن محرّمة .

عندئذ دقّ الجرس معلناً وقت الذهاب إلى النوم .

استلقى هانز على سريره بعدما أُطفئت المصابيح وسكن الجميع ، ظل هانز مستيقظاً أكثر من ساعة وهو يفكر بتلك القبلة التي منحها هايلنر لحبيبته .

في يوم آخر أراد أن يعيد السؤال ، لكنه خجل كالعادة .

استمر مستوى هانز في الدروس يتردى . بدأ المدرسون يكشرون عن وجوههم ويرسلون نظرات غريبة ، وأبدى الناظر وجهاً متجهماً عبوساً ، وحتى التلاميذ لاحظوا ومنذ فترة طويلة أن مستوى جيبنرات

الدراسي قد ساء وتوقف طموحه في أن يكون الأول على المجموعة الدراسية . وكان هايلنر الوحيد الذي لم ينتبه إلى صديقه ، لأن الدروس لم تكن تعني له شخصياً أي شيء ، أما هانز نفسه فقد لاحظ كل ذلك التغيّر الذي طرأ عليه ولكن دون أن يبدي أيما انتباه أو حرص .

أثناء ذلك سئم هايلنر من عمل تحرير الصحيفة وعاد كلية إلى صديقه . وتحدياً لقرار المنع رافق هانز عدة مرات أثناء نزهاته اليومية في الهواء الطلق ، حيث يستلقي تحت أشعة الشمس ويحلم ، وينشد الشعر أو يلقي نكاته الجارحة حول الناظر . كان هانز ينتظر يومياً أن يواصل صديقه في الكشف أكثر عن مغامرة حبه ولكن دون جدوى ، وأخيراً فقد الرغبة في ذلك تدريجياً . لم يعد الصديقان يحظيان بمودة زملائهما التلاميذ كما كانا في السابق ، ذلك أن هايلنر لم يكسب ثقة أي أحد منهم وبخاصة بعد نوادره الخبيثة في «الخنزير الوبري» .

على أية حال احتجبت الصحيفة في هذا الوقت عن الصدور ؛ وكان من الممكن أن تستمر خلال الأسابيع المملة التي تفصل بين الشتاء والربيع . كانت بداية الفصل الجميل من العام قد أتاحت الكثير من الوقت لتبادل الأحاديث أثناء النزهات بين الأشجار واللعب في الهواء الطلق . وكان لاعبو الجمباز والمصارعون والعداؤون ولاعبو الكرة يملؤون ساحة الدير بالصياح والهتاف في منتصف ظهر كل يوم . خلال هذا الوقت حدثت فضيحة كبيرة جديدة ، كان صاحبها ومحور إثارتها مرة أخرى هرمان هايلنر .

لقد تناهى إلى مسمع الناظر أن هايلنر كان يسخر من موضوع المنع ويكاد كل يوم تقريباً يرافق هانز في نزهاته . في هذه المرة ترك الناظر هانز وشأنه واستدعى إلى غرفته المتهم الأول وعدوه القديم . خاطبه بصيغة «أنت» التي رفضها هايلنر على الفور . وبّخه على عقوقه . ثم أوضح له هايلنر بأنه صديق جيبنرات . وما من أحد يمتلك الحق في منعهما من الاتصال ببعضهما البعض . تأزم الحال ، وأخيراً تقرر معاقبته بالحبس المدرسي لبضع ساعات ، إضافة إلى منعه بشدة من الخروج مع

جيبنرات في المستقبل .

في اليوم التالي قام هانز بنزهته الرسمية وحيداً مرة أخرى ، ثم عاد إلى قاعة الدرس في الساعة الثانية بعد الظهر . عند بدء الدرس لوحظ غياب هايلنر . كان كل شيء يوحي بما حدث آنذاك عند اختفاء هندو ، غير أن هذه المرة لم يفكر أحد بالشخص المتأخر . حينما أعلنت الساعة تمام الثالثة قامت المجموعة الدراسية برفقة ثلاثة من المدرسين بعملية البحث المفقود . قُسمت المجموعة إلى مجموعات صغيرة واتجهوا نحو الغابة ، وهناك تعالت الأصوات والنداءات بحثاً عن هايلنر ، وفكّر البعض ، من ضمنهم مدرسان أنه ليس من المستبعد أن يكون قد تعرض إلى مكروه .

في الساعة الخامسة مساءً أُبرق لجميع مراكز شرطة المنطقة وأُرسلت في المساء رسالة مستعجلة إلى والد هايلنر . لم يعثر له على أي أثر حتى وقت متأخر من المساء ، ثم حلّ الليل وأخذت الهمسات والوساوس تدور في جميع قاعات النوم . ساد الاعتقاد بين صفوف التلاميذ من أنه ربما ألقى بنفسه في النهر . وظن آخرون أنه ربما غادر ببساطة إلى بلدته . لكن المؤكد أنه لم يكن يمتلك نقوداً – كانوا ينظرون إلى هانز وكأنه على علم بالمسألة ، غير أن ذلك لم يكن صحيحاً ، بل إنه كان أكثر من الآخرين هلعاً وحزناً . وحينما هبط الليل أخذ التلاميذ في قاعة النوم يستفسرون ويتكهنون ويثرثرون ويتندرون فيما كان هانز يدسّ نفسه عميقاً في فراشه تحت الغطاء . ظل ساعات طويلة يعاني من الحزن والخوف على صديقه . كانت تراوده أفكار حول عدم عودة صديقه ، وتعصف بقلبه المكلوم وتملؤه رعباً وألماً حتى ينطفئ من الأسى ويغفو .

في نفس تلك اللحظة كان هايلنر يرقد على بعد بضعة أميال في إحدى الغابات . كان قد تجمّد من البرد ولم يذق طعم النوم ، لكنه كان يتنسم عميقاً نسيم الحرية ، باسطاً أطرافه بجذل وكأنه قد أفلت من سجن ضيق كئيب . لقد فرّ منذ منتصف الظهر واشترى له قطعة خبز من كتلنغن ، وها هو الآن يقضم منها قضمة بين حين وآخر ، ويتطلع إلى

سواد الليل المتغضن الربيعي وإلى النجوم والغيوم المبحرة سريعاً في السماء . لم يعبأ بما سيحصل له وإلى أين سيصل أخيراً ؛ المهم أنه فرّ الآن من الدير الكريه ، وأثبت للناظر أن إرادته أقوى من الأوامر .

استؤنف البحث عنه طيلة اليوم التالي ، ولكن دون جدوى . أمضى الليلة الثانية في حقل يقع بالقرب من إحدى القرى بين حزم القش : في الصباح عاود المسير خلال الغابة ، وعند المساء تقريباً ، وبينما كان يهم بالدخول إلى قرية أخرى وقع في يد أحد الصيادين الريفيين . استقبله الفلاح بود وروح مرحة ثم قاده إلى دار البلدية حيث نال بنكاته عطف العمدة الذي اصطحبه للمبيت في منزله ، فقدمت إليه كمية كبيرة من شرائح اللحم والبيض قبل ذهابه إلى النوم . وفي اليوم التالي حضر والده الذي قدم من بلدته لاستلامه .

كان الاضطراب في الدير على أشده حينما جاؤوا بالهارب . كان رأسه مرفوعاً إلى الأعلى ، لا يبدو عليه أي شعور بالندم من رحلته الشيطانية الصغيرة . طُلب منه أن يقدم استرحاماً لكنه رفض ، ولم يبد أمام محكمة هيئة التدريس أيما احترام أو تهيّب . كان من الممكن الاحتفاظ به ، لكن الكيل قد طفح . طُرد بشكل فاضح وغادر في المساء مع والده بلا عودة . حينما أراد وداع صديقه جيبنرات لم يتيسر له سوى مصافحة يدوية بسيطة فقط .

أصبح عنبر هيلاس الآن يشير إلى طاولتي عمل شاغرتين ، أما صاحب الطاولة الأخيرة فإنه لم يُنس سريعاً مثل الذي قبله . وفقط الناظر كان يودّ أن يرى الطاولة الأخيرة أيضاً هادئة ومنسية . وفي الحقيقة لم يفعل هايلنر ما يُسيء ويُعكر طمأنينة الدير . ظل صديقه ينتظر سدى أن تأتي رسالة منه . لقد ذهب واختفى ، واتخذت شخصيته وموضوع هروبه مع مرور الأيام شكل قصة وأسطورة . فيما بعد ، وبعد عدة جولات نزقة ، وإخفاقات مختلفة اكتسب الصبي المتهور قسوة ومعاناة الحياة في سجن أكبر جعل منه رجلاً إن لم يكن بطلاً .

أخذت الهمسات والتقولات تدور حول هانز المتروك وحيداً جراء هروب هايلنر الذي سبب له استياء المدرسين . فحينما أحرج ذات مرة في الإجابة على عدة أسئلة أثناء الدرس قيل له :

« لماذا لم تذهبوا أنتم أيضاً مع صديقكم العزيز هايلنر ؟ » .

ثم تركه الناظر يجلس وهو ينظر إليه من الجانب نظرة عطف مهينة شبيهة بنظرة موظف الجمارك للمهرب . لم يعد هذا الجيبنرات ينتمي إليهم بعد ، وإنما إلى صنف المجذومين .

الفصل الخامس

هكذا ، مثل اليربوع وما ادّخره من طعام ، ظل هانز لفترة من الزمن يقاوم الحياة ويقتات على المعلومات التي اكتسبها سابقاً . بعد ذلك جاءت مرحلة القحط المؤلمة التي تخللتها دفعات قصيرة جديدة واهنة ، أثار عدم جدواها سخرية هانز المرّة . تأمل هوميروس بعد الأسفار الخمسة ، والجبر بعد تاريخ اكسينوفون ولاحظ بهدوء كيف تدنّت سمعتة الطيبة بين المدرسين تدريجياً حتى وصلت نقطة الصفر . آه ، لو لم يكن هذا الصداع اللعين الذي عاد إليه الآن ، لفكر بهرمان هايلنر ، ولحلم بأحلامه البسيطة الرائعة ، ولاستغرق ساعات طويلة بأفكاره الشاردة . كان يجيب على المآخذ والهفوات المتزايدة التي يشير بها المدرسون إليه بابتسامات وديعة متضرعة . وكان المدرس المُعيد فيدريش ، مدرساً لطيفاً رقيق الجانب ، وهو الوحيد الذي كانت تؤلمه هذه الابتسامة الخائبة ، ويعامل الفتى الخارج عن جادة الصواب برفق وحنان . أما بقية المدرسين فقد كانوا ينبذونه ويعاقبونه بإهماله ليجلس وحيداً ، أو يحاولون في بعض الأحيان استفزاز طموحه الكامن بدغدغات السخرية .

« إن كنتم لا تودون النوم الآن ، فهل تتفضلون بقراءة هذه الجملة ؟ » .

كان تهكم الناظر ارستقراطياً . الرجل المغتر كان كثير التبجح بقوة نظرته ، وتكون على أشدها حينما يواجه جيبنرات تقلبات عينيه الوقورتين المنذرتين دائماً بابتسامة خاشعة ، مستسلمة تكاد تفقده صوابه .

«لا تبتسم هكذا ، ابتسامة بلهاء لا مبرر لها ، الأجدر بك أن تبكي» .

الحدث الأكثر أهمية كان رسالة الأب إلى هانز الذي يأمره فيها بشكل مفزع أن يرتقي بمستواه الدراسي . وكان الناظر قد كتب قبل هذا رسالة إلى والد جيبنرات الذي ارتعب لها بشدة . كانت رسالة الأب إلى هانز عبارة عن مزيج من العبارات المشجّعة والتوجيهات الأخلاقية الساخطة ، وقد ضمنها الرجل الصالح ودون أن يريد ذلك عتاباً باكياً آلم قلب الصبي أشد الألم .

كل هؤلاء الذين كان يحتم عليهم واجبهم توجيه الشباب نحو الجد والمثابرة ، ابتداءً من الناظر وحتى والد جيبنرات وجدوا في هانز حائلاً دون تحقيق آمالهم ، إنه تلميذ عاق وكسول وينبغي دفعه بالقوة إلى جادة الصواب وطريق الخير . ما من أحد ، ربما سوى ذلك المدرس المعيد الحنون ، قد لمح أن خلف الابتسامة الخائبة لوجه الطفل النحيف كانت تكمن روح تعاني من الانطفاء ، وتتطلع حولها فزعة ، يائسة وهي تغوص وتغرق . وما من أحد خطر بباله أن المدرسة وجشع الأب الوحشي وبعض المدرسين هم الذين أوصلوا هذا الكائن المُدَمَّر إلى ما هو عليه الآن . لماذا كان عليه أن يعمل يومياً وطيلة الليل ، وهو في أخطر مرحلة من مراحل عمره وأكثرها حساسية ؟ لماذا سُلبت منه أرانبه ، وابتعد عنه زملاؤه في المدرسة اللاتينية بشكل متعمد ، ومنع عنه صيد السمك والتنزه ، وأريد منه أن يكون النموذج الفارغ اللئيم لطموح رخيص مستهلك ؟ ولماذا لم يُمنح هو بالذات العطلة التي يستحقها بجدارة بعد تأديته للامتحان ؟ والآن كبا الجواد الصغير المتعب في منتصف الطريق ولم يعد يلتفت إليه أحد .

حوالي مطلع فصل الصيف شخّص رئيس مكتب الأطباء مرة أخرى حالة هانز على أنها ضعف عصبي ، سببها الأساس النمو في العمر . نُصح أن يعتني بنفسه جيداً أثناء العطلة وأن يكثر من تناول الأطعمة والتنزه في الغابة كيما تتحسن حالته الصحية .

ولكن للأسف لم تجر الأمور على هذا النحو . فقبل ثلاثة أسابيع من بدء العطلة ، وبينما كان الأستاذ يؤنبه بحدة وعنف في أحد دروس بعد الظهر ، وأثناء ما كان هذا الأستاذ مستمراً في تقريعه ارتدّ هانز في مقعده وبدأ يرتجف من الخوف ، ثم انفجر في نشيج طويل متواصل ، توقف الدرس ونقل هانز إلى سريره لبقية اليوم .

وفي اليوم التالي طُلب منه في درس الرياضيات أن يرسم شكلاً هندسياً ويبرهن عليه . امتثل هانز للأمر ونهض ، لكنه أمام السبورة شعر بالدوار ؛ كان يسرح بالطبشور والمسطرة على سطح السبورة بلا هدف ، حتى سقطت كلتاهما من يديه على الأرض ، وعندما انحنى لالتقاطهما ظل جاثماً على الأرض ولم يقو على النهوض ثانية .

غضب رئيس مكتب الأطباء لما حصل لمريضه ، أفصح عن رأيه بحذر ، وأمر له بإجازة راحة على الفور ؛ ونصح بعرضه على طبيب أخصائي في الأعصاب :

« سيصاب أيضاً بالكلوريا* » همس في أذن الناظر الذي أومأ برأسه ، ووجد أنه من اللائق أن يغيّر تعبير وجهه المتجهم العابس إلى تعبير أبوي ، متألم وحريص . فرحّب بالاقتراح وراق له .

كتب كل من الطبيب والناظر رسالة إلى والد هانز ودساها في جيب الفتى وأرسلاه إلى بلدته . تحوّل استياء الناظر إلى حالة من القلق الشديد - ترى ماذا سيقول المسؤولون الذين لم يهدؤوا بعد من موضوع هايلنر عن هذه الحادثة الجديدة ؟ تخلى في هذه المرة عن إلقاء

* الكلوريا : داء الرقص القفزي أو « الزّفن »

خطابه المعتاد لمثل هذه المناسبة كي لا يثير التساؤلات العامة ، وفي الساعات الأخيرة أخذ يعامل هانز بلطف ومودة لا نظير لهما من قبل . كان واثقاً من عدم عودة هانز إلى الدير ثانية بعد انتهاء فترة النقاهة - وحتى في حالة استعادة صحته سيتعذر عليه تعويض الأشهر الفائتة أو حتى أسبوعاً واحداً ، خاصة بعدما سيكون قد ترك مهملاً على مسافة بعيدة . وفي الحقيقة ودّعه وداعاً قلبياً مشجعاً « إلى اللقاء! » ، لكنه فيما بعد ، حينما كان في كل مرة يدخل إلى عنبر هيلاس ويرى مكاتب المذاكرة شاغرة يطغى عليه شعور محرج ويبذل ما في وسعه للتغلب على الأفكار التي تدفعه إلى الاعتقاد بأنه ربما يتحمل قسطاً من الذنب في اختفاء ثلاثة من التلاميذ الموهوبين . وبصفته رجلاً ورعاً وذا أخلاق عالية استطاع أن يطرد هذا الشك القائم المعذب لروحه .

تواري خلف التلميذ المسافر مع كيس سفره الصغير الدير وكنائسه البوابة ، الجملون والأبراج ، وتلاشت الغابة وأخاديد المرتفعات وظهرت بدلاً منها بساتين الفواكه العامرة لحدود مقاطعة بادن ، ثم تقدمت فورتسهايم وخلفها مباشرة جبال أشجار الصنوبر الزرقاء الغامقة للغابة السوداء التي تقطعها جداول الوديان الكثيرة فتبدو في لهيب الصيف القائظ أكثر زرقة وبرودة وظلالاً مما هو مألوف . كان الشاب يتأمل الصور الريفية المتغيرة باستمرار لبلدته بمتعة كبيرة ، وما إن أصبح قريباً منها حتى قفزت إلى ذاكرته صورة والده ، وأفسد عليه شعور الخوف المزعج من الاستقبال متعة السفر الصغيرة . خطرت في ذهنه مرة أخرى رحلة شتوتغارد لتقديم الامتحان ورحلة الدخول إلى ماولبرون بكل اضطرابهما وفرحتهما المقلقة . ما جدوى كل هذا ؟ كان يعلم جيداً مثلما يعلم الناظر بأنه لن يعود إلى الدير ثانية ، وبأن الحلقة الدراسية والدراسة وكل الآمال الطموحة قد أصبحت في طي الماضي . غير أن ذلك لا يحزنه الآن ، وإنما الذي يحزّ في قلبه هو خشيته من الأب المخذول الذي خيّب آماله . ليست لديه الآن من أمنية في نفسه إلا أن يستريح ، أن يشبع نوماً وبكاءً وأحلاماً ، وأن يترك براحة ولو مرة

واحدة بعد كل هذا العذاب الذي ألمّ به . شعر بالخوف من فكرة عدم إيواء أبيه إليه . عند نهاية خط سير القطار أصيب بصداع ثقيل أعاقه من النظر خلال نافذة القطار الذي يمرّ الآن من منطقته المحببة التي كان فيما مضى مغرماً في التجول عبر مرتفعاتها وأشجارها ؛ وكاد أن ينسى النزول عند محطة بلدته التي يعرفها جيداً .

والآن يقف مع مظلته وكيس سفره ، ووالده ينظر في وجهه متأملاً . كان التقرير الأخير للناظر قد جعل خيبة أمل وغضب الأب تجاه الابن العاق تتحولان إلى حالة من الفزع والقلق ، وظن أن هانز قد انتهى وآل إلى شبح مخيف ، لكنه الآن وبعد أن رآه على حقيقته وجد أنه ليس أكثر من جسد نحيل وهزيل البنية ومع ذلك متماسك وبمقدوره أن يتحرك على قدميه . اطمأن الأب قليلاً ؛ ولكن أسوأ ما في الأمر خوفه الكامن وقلقه من المرض العصبي الذي أشار إليه الطبيب وناظر الدير . لم يكن أحد من عائلته قد أصيب بمرض عصبي حتى الآن ، وعندما كان الحديث يدور حول مثل هؤلاء المرضى فإنما يرد كمزحة بلهاء أو تعاطف عابر ، مثلما يحدث تجاه نزلاء مستشفى الأمراض العصبية ، والآن يأتيه ابنه هانز بمثل هذه الحكايات .

كان الشاب سعيداً خلال اليوم الأول من وجوده في البيت ، ولم يُستقبل بعبارات التأنيب أو اللوم . ثم مع مرور الوقت لاحظ العناية الحذرة المتوجسة من قبل الأب الذي يبدو واضحاً أنه كان مرغماً عليها . في بعض الأحيان كان يلاحظ أيضاً أن والده يتطلع إليه بنظرات متفحصة غامضة وفضول غريب ، ويتحدث إليه بصوت مكتوم يميل إلى المخادعة ، ويراقبه خلسة ودون أن يثير انتباهه . أصبح الآن أكثر تهيباً وبدأ خوف غير واضح يعذبه إزاء حالته الخاصة هذه .

كان هانز يخرج من البيت حينما يكون الطقس جميلاً ، فيذهب ويستلقي لفترة طويلة في الغابة ، حيث يجد في أحضانها متعة كبيرة . شعاع خافت من طفولته الماضية كان يحلق هناك ويحسّ بين الحين والحين روحه المنكسرة : الفرحة بالأزهار أو الجُعلان أو بالتنصت لأصوات

الطيور أو باقتفاء أثر حيوان بري . إنها مجرد لحظات عابرة . في كثير من الأحيان يستلقي على الحشائش بخمول ورأسه مثقل ، يحاول عبثاً التفكير بشيء ما حتى تتكشف له الأحلام ثانية فتصحبه معها بعيداً إلى رحاب أخرى .

ذات مرة حلم بصديقه هرمان هايلنر ، فوجده ميتاً ، يرقد على نقالة ، أراد الذهاب إليه ، لكن الناظر والمدرسين كانوا يردونه على أعقابه ، ويكيلون له الصفعات المؤلمة في كل خطوة يخطوها . وكان من جملة الحاضرين أيضاً إلى جانب أساتذة الحلقة الدراسية والمدرسين المعيدين في الدير رئيس الجامعة وأعضاء لجنة الامتحان في شتوتغارد ، وجميعهم كانت وجوههم متجهمة غاضبة . فجأة تغيّر كل شيء وأصبح الذي يرقد على النقّالة الغريق هندو ووالده الذي يثير الضحك بقبعته الأسطوانية يقف إلى جانبه مقوّس الساقين ويتطلع إليه بيأس وحنان .

ثم حلم حلماً آخر ، حيث وجد نفسه يجري في الغابة بحثاً عن هايلنر الهارب ، الذي كان يعدو بلا توقف بعيداً بين جذوع الأشجار مخفياً نفسه باستمرار وبالذات حينما كان يناديه . وأخيراً ضحك ضحكة عالية واختفى في الدغل .

رأى رجلاً وسيماً ، عنيداً يترجل من على متن سفينة ، رجلاً ذا عينين هادئتين ساحرتين ، ويدين جميلتين مسالمتين ، فتقدم نحوه . كل شيء تجمّد ، وأخذ يفكر عما يمكن أن يكون كل هذا حتى خطر بذهنه الموضع الذي في الإنجيل : «لقد تعرفوا عليه في الحال وساروا في إثره* » والآن عليه أن يفكر كيف يصرّف الفعل سار ، وما هو شكل المضارع والماضي والمستقبل الذي يتخذه ، وما هي صيغة المفرد والتثنية والجمع ، فشعر بالخوف وأخذ يتصبب منه العرق ويتلعثم . بعدما أفاق إلى نفسه شعر وكأن رأسه من الداخل مملوء بالجروح ، وحينما كان وجهه يستجيب بشكل لا إرادي إلى تلك الابتسامة الكسولة التي تنمّ

* في النص الأصلي باللغة اليونانية .

عن الإحباط والشعور بالذنب عندئذ يسمع على الفور صوت الناظر وهو يصيح به «ماذا تعني هذه الابتسامة الغبية ؟ لا ينقصك إلا أن تضحك أيضاً!» .

عموماً ، لم يظهر أي تقدم في صحة هانز باستثناء أيام قليلة شعر خلالها ببعض التحسن ، ويمكن القول إن حالته كانت أقرب إلى التراجع . كان طبيب العائلة الذي عالج الأم في السابق وأعلن عن وفاتها ، والذي يأتي في بعض الأحيان لمعاينة الأب المصاب بمرض التهاب المفاصل قد أبدى عدم ارتياحه من حالة هانز الصحية ، وكان يتردد في الإفصاح عن رأيه كل يوم .

في تلك الأسابيع لاحظ هانز افتقاده لأصدقاء السنتين الدراسيتين الأخيرتين من سنوات المدرسة اللاتينية . إن زملاء الأمس منهم من غادر واختفى ومنهم من وجده يعمل كمتدرب ، وانقطعت علاقته بهم جميعاً ، حيث لم يعد عند أحد منهم شيء يبحث عنه ، ولم يعد أي واحد منهم يسعى إليه . التقاه ناظر المدرسة العجوز مرتين فقط ، ولم يتجاوز حديثه أكثر من بضع كلمات للمجاملة ، وحتى مدرس اللغة اللاتينية وقس البلدة كانا يحييانه بإيماءة صغيرة حينما يصادفانه في الشارع ، لم يعد هانز يعني لهم شيئاً ، لم يعد ذلك الإناء الصغير الذي يدسّون فيه كل شيء ، لم يعد ذلك الحقل الذي يستوعب كل أنواع البذور ؛ لم يعد يجدي نفعاً إضاعة الوقت معه والاعتناء به .

ربما كان مفيداً لو أن قس البلدة قد عني به بشكل أفضل ، ولكن ما الذي كان عليه أن يفعله ؟ لم يبخل على الشاب في حينه ، سواء بالعلم أو البحث ، ولم يكن في مقدوره أن يمنحه أكثر من ذلك . إضافة إلى ذلك فإنه لم يكن من أولئك القساوسة الذين يشك المرء في مقدرتهم اللاتينية أو ممن يستقون مواعظهم من مصادر معروفة تماماً ، بحيث يمكن اللجوء إليهم في الأيام العصيبة ، لأنهم أدرى بالنصائح الحكيمة والكلمات الجميلة اللطيفة التي تصلح لكل ألوان المعاناة والأحزان . وحتى الأب جيبنرات لم يكن ذلك الصديق أو المواسي مع أنه قد بذل كل

ما في وسعه لإخفاء غضبه وخيبة أمله من ابنه هانز .

لهذا كله كان هانز يجد نفسه مُهملاً وغير مرغوب فيه ، وكان يقضي جلّ أوقاته جالساً تحت أشعة شمس الحديقة الصغيرة أو يستلقي في الغابة ويسترسل في أحلامه أو أفكاره المُعذبة . كان من العسير عليه معاودة القراءة ، لأنها كانت تسبب له آلاماً شديدة في رأسه وعينيه ، وحال تصفحه لأي كتاب من كتبه كان يبرز أمامه مرة أخرى شبح أيام الدير ، ومشاهد الخوف والرهبة آنذاك ، فيُحشر عندئذ في زاوية حلم كئيب ، مفزع ، وتحيط به نظرات نارية ملتهبة .

في خضم هذا اليأس وهذه الوحشة أخذ يقترب من الصبي المريض شبح آخر مثل سلوى مخادعة ، فاطمأن إليه تدريجياً حتى أصبح ضرورياً وملازماً له . كان هذا الشبح هو شبح التفكير بالموت ، ولم يكن من المتعذر الحصول على سلاح ناري أو استخدام حبل في أي مكان من الغابة . كانت هذه التصورات ترافقه كل يوم تقريباً أينما ذهب أثناء نزهاته ، وبدأ يفكر في مكان هادئ مناسب ، وأخيراً وجد ذلك المكان الذي يصلح أن يكون موقعاً لانتحاره ، حيث يتوفر له أن يودع الحياة براحة بال . أصبح يأمه باستمرار ويجلس عنده ، ويجد متعة غريبة وهو يتخيل كيف سيعثر عليه ميتاً في هذا المكان . تأكد من جودة فرع الشجرة الذي سيوثق به الحبل وتأكد من قوة احتماله . . إذن ليس هناك من عقبات تعترض سبيله ؛ بهدوء وخلال فترات انقطاع طويلة كتب رسالة قصيرة إلى أبيه ورسالة أخرى طويلة إلى هرمان هايلنر حيث يتوقع وجودهما عند الجثة .

مارست تحضيرات الموت وشعور الثقة تأثيراً حسناً على نفسه ، كان يجلس ساعات طويلة تحت فرع الشجرة المشؤوم ذاك حتى يزيل الكآبة التي تجثم على صدره ، ويغمره من فوق إحساس مفعم بالسعادة والراحة . لماذا بحق الشيطان لم يفكر من قبل بشنق نفسه على ذلك الفرع ؟ لا يدري بالضبط لماذا لم يفعل . تأكدت لديه الآن فكرة الموت جيداً وأصبحت أمراً مسلماً به ، وأحسّ براحة مؤقتة ، وأخذ في هذه

الأيام الأخيرة يكثر من التمتع بأشعة الشمس والأحلام المهجورة مثلما يفعل المرء بشوق ولهفة قبل الشروع برحلة طويلة . كان بمقدوره تنفيذ العملية متى شاء ، إذ أن كل شيء قد رتّب على أحسن ما يرام . كان من أسباب غبطته المريرة أن يتوقف طواعية بعض الوقت في الحي القديم ويتأمل وجوه الناس الذين لا علم لهم بقراراته الأخيرة . وكان في كل مرة يقابل فيها الطبيب يحدث نفسه مفكراً «الآن ، سترى!» .

جعله القدر يبتهج بنواياه السوداء ، وأخذ يتأمل كيف يتجرع من كأس المنيّة يومياً بضع قطرات من الشوق وحب الحياة . يبدو من غير الممكن الاعتماد على هذا الشاب المضطرب في إنجاز فعل ما ، غير أنه لن ينجز مهمته أو تنفيذ خطته قبل أن يتذوق قليلاً من حلاوة الحياة المريرة .

اضمحلّت التصورات المؤلمة التي لا بد منها تدريجياً ، وتلاشت فكرة الموت وزال المزاج الثقيل المخدّر الذي كان هانز يعيش تحت وطأته ساعات وأياماً شارد الفكر ، وأخذ يتطلع إلى السماء بنفس هادئة ، لكنه في بعض الأحيان يبدو سادراً أو يميل إلى السلوك الصبياني .

ذات يوم ، حينما كان جالساً في جو غسقي كسول في الحديقة تحت شجرة الصنوبر ، أخذ يردد ودون أن يدري ، مقطعاً شعرياً قديماً خطر في ذهنه من أيام المدرسة اللاتينية :

آه ، كم متعب أنا ،

آه ، كم متعب أنا ،

ما من نقود في المحفظة

ولا حتى في الخرج

ترنّم في هذا المقطع حسب اللحن القديم ، ولم ينتبه لتكراره للمرة العشرين . كان والده يقف عند النافذة وأصغى إليه بهلع كبير . لم تكن سريرته الجافة تسمح باستيعاب مثل هذه الطنطنة المستطربة ، الشاردة

البليدة ، لوّح له مصفراً ، دلالة على ضعف عقلي لا أمل فيه . ومن هذه اللحظة أخذ يراقب الشاب بمزيد من الخوف والحذر ، ولاحظ هانز ذلك وأحزنه كثيراً ؛ لكنه مع هذا لا يتعظ ويتناول الحبل كي يجعل من فرع الشجرة ذاك شيئاً نافعاً على الأقل .

أثناء ذلك حل فصل السنة القائظ ، وكان قد مرّ عام على الفترة بين امتحان المقاطعة والعطلة الصيفية السابقة . فكر هانز بهذه الفترة التي لم ينجز خلالها أي عمل خاص ؛ لقد أصبح متبلداً نوعاً ما . كانت لديه رغبة كبيرة في العودة لصيد السمك ، لكنه لم يجرؤ على التماس والده للسماح له بذلك . كان يتعذب كلما وقف عند النهر ، وأحياناً يظل واقفاً لمدة طويلة عند الضفة حيث لا يراه أحد ، ويمتع نظره بحركات الأسماك الداكنة الصامتة المنسابة . وفي المساء كان يسير عكس مجرى النهر حتى يصل إلى موقع السباحة ، وحيث كان عليه المرور من أمام البيت الصغير للمفتش جسلر ، اكتشف بمحض الصدفة أن أيما جسلر التي تولّع بها قبل ثلاث سنوات قد عادت إلى البيت ثانية ، تطلّع إليها عدة مرات بدافع الفضول ، لكنها لم ترق له كما في الماضي . آنذاك كانت فتاة شفافة رقيقة الجانب ، أما الآن فإنها نضجت وأخذت تأتي بحركات غير مهذبة ، واصطنعت تسريحة شعر حديثة أفقدتها براءتها ومسخت صورتها الحقيقية تماماً . أخذت الآن ترتدي ملابس طويلة لا تناسبها إطلاقاً ، وتحاول عبثاً أن تبدو سيدة ناضجة . لقد وجدها فتاة مضحكة وفي نفس الوقت أحزنه التفكير بما كانت عليه في السابق من عذوبة نادرة ، وسمرة بشرة وذكاء ، وميله لها كلما رآها . عموماً كل ما كان عليه في الماضي غير ما عليه الآن . كان أكثر جمالاً ، وبهجة وحيوية! ظل فترة طويلة لا يعرف أكثر من اللاتينية ، التاريخ ، اليونانية ، الامتحان ، الحلقة الدراسية والصداع . لكن في ذلك الزمن كانت هناك كتب تحفل بالأساطير وقصص اللصوص ، وكانت لديه في الحديقة لعبة طاحونة الهواء تتألف من بكرات الخيوط وريشاتها من قطع الخشب الصغيرة ، وفي المساء كان يستمع الى الحكايات الخرافية

التي ترويها الفتاة ليزه في ممر بيت عائلة ناشولدز ، وآنذاك كان يتأمل طويلاً الجار العجوز يوحنا الكبير الذي يطلق عليه « غاريبالدي* » ويتخيله كقاطع طريق ويحلم به ، واستمر على مدى عام يبتهج كل شهر بحدث ما ، مرة بحصاد الحشيش وأخرى بالبرسيم أو صيد السمك والسرطعونات وحصاد نبات حشيشة الدينار** ونفض أشجار الخوخ وحرق الأعشاب غير النافعة من البطاطس أو القيام بعملية درس المحاصيل . وخلال ذلك كان يبتهج أيضاً وبشكل خاص بقدوم أيام الآحاد والعطل الأثيرة لديه . كانت هناك أشياء كثيرة تأسره بسحرها الغريب : البيوت ، الأزقة ، السلالم ، مخازن الغلال ، الينابيع ، الأسيجة ، الناس ، والحيوانات من جميع الأصناف والأشكال ، وجميعها كانت حبيبة الى نفسه ومألوفة لديه وتغذيه بسحرها الأخاذ . كان قد اشترك في مواسم حصاد حشيشة الدينار واستمع لغناء الفتيات وحفظ مقاطع من أغانيهن التي غالباً ما كانت تثير الضحك ، وبعضها يدعو إلى الدهشة أيضاً الى الحد الذي يمكن أن يغص المرء في بلعومه حال سماعه لها .كل هذا آل الى الزوال وانتهى ، ولم ينتبه إليه هانز في حينه . في البدء توقفت الأمسيات عند ليزه وكذلك صيد السمك قبل ظهر يوم الأحد ، وبعدها توقفت قراءة كتب الأساطير ، وهكذا اختفى كل شيء واحداً بعد الاخر حتى حصاد حشيشة الدينار ولعبة طاحونة الهواء في الحديقة . آه ، الى أين راح كل هذا ؟

كان الشاب المبكر النضج يعيش وهو في أيام مرضه ، مرحلة طفولية ثانية غير حقيقية ، إن روح الطفولة المسروقة تهرب الآن منطلقة بشوق مفاجئ كي تعود إلى تلك السنوات الجميلة الغافية وتتيه في غابة الذكريات مرة أخرى بغير قليل من الدفء والشوق ، وكأنه يعيشها حقيقة في الماضي ؛ تفجرت داخلها الطفولة المسلوبة المستباحة مثل نبع ماء كُبح لفترة طويلة حتى انفجر .

---

* غاريبالدي :(١٨٠٧-١٨٨٢) جندي إيطالي ثائر عمل على توحيد إيطاليا .

** نبات يستخدم في صناعة البيرة .

ان أي شجرة حينما تشذب من الأعلى فان براعم جديدة تبدأ في الظهور بالقرب من الجذور ، وهكذا فان الروح العليلة المصابة بالمرض والعطب أثناء فترة النمو تعود دوماً الي بدايات مرحلة الإزهار والطفولة المفعمة بالأحاسيس وكأنها اكتشفت هناك آمالاً جديدة فتأخذ بتوثيق شريط الحياة المقطوع من جديد . ومن الطبيعي أن تقوم براعم الجذور الجديدة هذه بعملية الامتصاص بحيوية وسرعة ، غير أن ذلك لا يعدو كونه مظهراً حياتياً فحسب ، وهيهات أن تنتج عنه شجرة سليمة مثمرة .

كذلك هانز جيبنرات حصل له ما يشبه هذه الشجرة ، لذا بات من الضروري اقتفاء أثره ولو قليلاً خلال طرق أحلامه الممتدة على أرض طفولته .

كان البيت «الجيبنراتي» يقع بالقرب من الجسر الحجري القديم ، ويشكل زاوية بين شارعين يختلفان جداً من حيث الشكل . أحدهما ، والذي ينتمي اليه البيت ويحسب عليه كان الشارع الأطول والأعرض والأكثر عراقة في البلدة ويدعى شارع «كيربر*» . أما الشارع الثاني الذي يؤدي مباشرة الى الأعلى ، فهو شارع قصير ، ضيق ، فقير يسمى «توم فالكن**» وجاءت تسميته من اسم نزل انتهى عهده منذ فترة طويلة وكانت يافطته تحمل صورة صقر .

في شارع كيربر ؛ كانت تسكن مجموعة من المواطنين الصالحين الزاهدين القدامى في بيوت متلاصقة بعضها جنب بعض ، أناس كانت لهم بيوتهم وكنائسهم وحدائقهم الخاصة التي ترتفع في الخلف على شكل مدرجات تحيطها أسيجة شيدت عام سبعين ، وتبرز منها قضبان صفراء تمتد الى الأعلى فتنفرز في جسر سكة القطار . ولعل ساحة السوق كانت الموقع الوحيد الذي يمكن أن ينافس شارع كيربر عراقة ، حيث

* شارع كيربر : شارع المدابغ

** فالكن تعني الصقر

الكنيسة ، الدائرة العليا ، المحكمة ، دار البلدية ومكتب العمادة التي تعكس في وقارها الأصيل انطباعاً متحضراً نبيلاً . لم يكن شارع كيربر في الواقع يضم أبنية مكاتب رسمية ، وإنما مساكن مواطنين قديمة وحديثة ذات أبواب فخمة ، وورشات عمل صغيرة جميلة قديمة الطراز ، وسقوف هرمية أنيقة فاتحة اللون ؛ يغمرها الكثير من الضوء والبهجة والشعور بالراحة ، وبما أن الشارع كان يقع عليه صف واحد من البيوت ، فان الجهة الثانية منه كانت تبدأ من عند سياج من الدعامات الخشبية يمتد بمحاذاة النهر .

شارع « فالكن » على العكس من شارع « كيربر » الطويل ، الرحيب ، المضاء والعريق . ففي هذا الشارع كانت البيوت مائلة متداعية ، طلاء قذر متفتت ، سقوف متدلية ، أبواب ونوافذ خشنة تم إصلاحها مرات عديدة ، مداخن معوجة ، ومزاريب تالفة . كانت المنازل تسلب الفضاء والضياء لتلاصقها الشديد ، وكان الشارع ضيقاً ، يتقوس بشكل مدهش ، ويخيم عليه غروب أبدي ويتحول أثناء الطقس الممطر أو بعد غروب الشمس إلى ظلام رطب . كانت جميع نوافذ الشارع تزدحم بالملابس المعلقة على القضبان والحبال ؛ كم كان صغيراً وبائساً هذا الشارع ، وكم من العوائل أقامت فيه ، أما المستأجرون غير الدائمين وعابرو السبيل الذين يمضون فيه ليلة واحدة فحدث ولا حرج . كانت كل زاوية من زوايا هذه البيوت المتداعية العتيقة تغص بالساكنين ، ومأوى للرذيلة والفقر والمرض . وعندما كان يتفشى مرض التيفوس أو تحدث جريمة قتل أو عند ظهور لص في البلدة ، وهذا ما كان يحصل دائماً ، فان عملية البحث كانت تجري أولاً في « فالكن » . كان يقطن فيه الكثير من الباعة المتجولين من ضمنهم بائع مساحيق التنظيف المضحك هوته هوته ، وجلاخ المقصات آدم هيتل الذي كان ينقل جميع أخبار الجرائم والرذائل .

في سنواته المدرسية الأولى ، كان هانز زبوناً دائماً في نزل « فالكن » . كان يستمع آنذاك مع مجموعة من الصبيان الشُقر المهلهلين

إلى قصص الجريمة التي ترويها لوته فروميل السيئة السمعة . كانت هذه المرأة المطلقة من صاحب نزل صغير والتي خلّفت وراءها خمس سنوات من السجن تتمتع في زمانها بجمال يُشهد له ، وكان لها بين عمال المصنع عدد كبير من العشاق الذين دائماً ما كانوا يثيرون بسببها الفضائح والمعارك الدامية التي تصل حدّ استخدام السكاكين . هذه المرأة تعيش الآن وحيدة وتقضي أمسياتها بعد انتهاء المصنع في تناول الكاتو والقهوة وسرد الحكايات ، فيما تترك بابها مفتوحاً على مصراعيه ، حيث يستمع إليها كل يوم ، عدا النسوة والعمال الشباب مجموعة من أطفال الجيران الذين يجلسون خلف العتبة ويتنصتون لها بشغف ولهفة . وكان هناك على الموقد الحجري الأسود الصغير إبريق ماء يغلي وإلى جانبه شمعة من الشحم تضيء مع نار الفحم الحجري الأزرق سماء الغرفة المزدحمة المظلمة ببقع ضوئية مخيفة ، وظلال المستمعين ترتسم على الجدار والسقف على هيئة كتل مرعبة فتضفي عليهما حركة ظلالية شجية .

في ذلك النزل تعرف الصبي ذو الثمانية أعوام على الأخوين فنكتباين ، ثم تلقى أمراً أبوياً قاطعاً بمنعه من الدخول فيه لمدة عام بسبب إصراره على الاستمرار في علاقته مع هذين الأخوين . كان أحدهما يدعى دولف والآخر أميل ، وكانا أكثر أولاد شوارع البلدة تسيباً ، واشتهرا بسرقة الفواكه وعمليات السطو الصغيرة على البساتين ، وكانا ذوا باعين طويلين في العديد من المقالب والمشاجرات . إضافة إلى ذلك فقد يتاجران في بيض الطيور والرصاص وصغار الغربان والزرازير والأرانب ، ويقومان بصيد السمك المحظور ليلاً ويتجولان في كل حدائق بيوت البلدة وكأنهما في حديقة بيتهما ، إذ لم يكن هناك سياج بقضبان مدببة ولا جدار مطعم بشظايا الزجاج لم يستطيعا تسلقهما .

كان هانز تربطه بشكل خاص علاقة صداقة وثيقة مع هرمان رشتنهايل الذي يقيم في « فالكن » . وكان هرمان طفلاً يتيماً ، مريضاً ،

مدهشاً وذا نضج مبكر . وحيث أن إحدى ساقيه كانت أقصر من الأخرى ، فقد تحتم عليه أن يستند دائماً على عصا عند سيره ، لذلك كان يتعذر عليه مشاركة الأطفال في ألعاب الشارع . كان نحيل الجسم ، له وجه شاحب حزين وفم اهترئ قبل الأوان ، وذقن دقيق جداً ، ويمتلك موهبة نادرة للقيام بجميع أنواع المهارات ، ولديه ولع شديد بصيد السمك الذي انتقلت عدواه إلى هانز . آنذاك لم يكن لديهما ترخيص بالصيد لكنهما مع ذلك كانا يصطادان خلسة وفي موقع خفي ، وإذا كانت عملية الصيد بحد ذاتها تبعث على المتعة ، فإنها بالتأكيد تصبح أكثر متعة حينما تتم بشكل سري وبلا ترخيص . كان رشتنهايل الأعرج قد علّم هانز كيفية قطع العصا بشكل صحيح لعمل سنارة الصيد ، وجدل خيوط شعر ذيل الحصان وصبغ الخيوط ولفّها وشحذ الشص ومراقبة الطقس والماء واختيار الطُعم المناسب وتثبيته جيداً في حالة الماء الكثير الغرين ، وعلّمه كيفية التمييز بين أنواع الأسماك والإصغاء إلى السمكة أثناء عملية الصيد ووضع الخيط في العمق الصحيح . وقد علّمه كل ذلك بصمت ومن خلال ما يورده من أمثلة عملية ومشاركته إياه في إمساك المقبض وما يتولد عنه من شعور جميل عند لحظة جذب وإرخاء الخيط . كان رشتنهايل يزدري ويسخر من أولئك الذين يستخدمون القضبان والفلين والخيوط المطلية بمادة الزجاج وكل معدات الصيد الجميلة التي تباع في المخازن ، ويحاول دائماً إقناع هانز بأنه من غير الممكن أن يصطاد المرء بصنارة لا يصنع أجزاءها ويركبها بنفسه معاً .

تخاصم هانز مع الأخوين فنكنباين ؛ وكان رشتنهايل الصامت الكسيح قد تركه بلا ضجّة . ففي أحد أيام فبراير تمدّد على سريره الفقير بعد أن وضع عصاه على كرسي الملابس وبدأت الحمّى تدبّ في جسده النحيل ومات بسرعة وصمت ؛ نسيه شارع فالكن ، في الحال إلا هانز الذي ظل يحتفظ بذكراه الطيبة لأمد بعيد . غير أن موته لم يقلل من عدد الساكنين الغريبي الأطوار في « فالكن » لمدة طويلة ، فمن لا

يعرف ساعي البريد روتلر الذي فصل من عمله لإدمانه على الخمر ، والذي يُشاهد كل أربعة عشر يوماً ملقى في الشارع سكراناً أو يتجول بحثاً عن الفضائح الليلية ، وخلاف ذلك فهو إنسان وديع كالطفل وعلى وجهه دائماً ابتسامة الشعور بالرضا والارتياح ؟ كان يسمح لهانز بالاستنشاق من علبة سعوطه ، ويتقبل منه السمك الذي يهديه إليه حيث يقوم بقليه بالزبدة ويدعوه لمشاركته في الطعام . كان يحتفظ بأحد أنواع الصقور المحنطة ثُبتت له عينان زجاجيتان ، وكانت لديه ساعة تعزف لحناً ناعماً رقيقاً لأغنية قديمة راقصة . ومن لا يعرف الميكانيكي بورش الذي دائماً ما يضع ياقة منشّاة حتى ولو خرج حافي القدمين ؟ لقد استطاع كابن لمدرس شديد التدين في مدرسة قديمة أن يحفظ عن ظهر قلب نصف الإنجيل وبعض الحكم والأقوال المأثورة ؛ ولكن لا هذا ولا شعره الأشيب استطاعا أن يحولا دون قيامه بدور شيخ المغامرات النسائية والسكر المفرط . وعندما كان يثمل يجلس على الدكة الحجرية عند زاوية منزل جيبنرات وينادي جميع المارة بأسمائهم ويلقي عليهم جملة من الحكم والأمثال .

« هانز بن جيبنرات ، يا بني العزيز ، اسمع ما أقوله لك! ترى كيف كان يتكلم زيراخ* ؟ بالتأكيد لم يأت بنصائح سيئة ، ولذلك لا يشعر بتأنيب الضمير! مثل الأوراق الخضراء على الشجرة ، بعضها يسقط والبعض الآخر ينمو . وهكذا الناس أيضاً بعضهم يموت والآخر يحيا . والآن انصرف إلى البيت يا كلب البحر » .

وكان هذا العجوز يضمن حكمه الدينية إشارات أسطورية غامضة ، لا تمسّ أحداً بسوء حول الأشباح وما يشابهها ، وكان على علم بأماكن تواجدها ، ويقف هو ذاته محتاراً ما بين الاعتقاد وعدم الاعتقاد بقصصه هذه . كان دائماً يبدؤها بصوت متشكك ، سوقي مزدرد وكأنه يسخر من القصة ، ويتقرفص أثناء السرد خاشعاً ويأخذ صوته يخفت شيئاً

---

* عيسى زيراخ : مؤلف حكم شعرية توراتية .

فشيئاً حتى ينتهي إلى صوت هامس خفيض ، متسلل مخيف .

كم من الأحداث الرهيبة الغامضة المثيرة للارتياب كانت تقع في هذا الشارع الصغير الفقير! في هذا الشارع أقام أيضاً القفّال برندل بعدما انحسرت أعماله وآلت ورشته إلى الخراب التام . أمضى نصف يوم جالساً عند نافذته الصغيرة مقطّب الجبين يتطلع في الشارع النشيط الحركة ، وكان في بعض الأحيان عندما يمسك بأحد الأطفال المتشردين القذرين من أبناء البيوت المجاورة يقوم بتعذيبه بمتعة إيذاء شبقة ، فيشدّ أذنه وشعره ، ويقرصه من كل جسده بعنف وشدة . ذات يوم وُجد هذا القفّال متدلياً من سلّمه ، منهياً حياته بسلك من الزنك ، وكانت هيئته من القبح بحيث أن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه ، حتى قطع الميكانيكي بورش السلك من الخلف بمقص فهوت الجثة ومعها اللسان المتدلي والسلّم وسط جمهور المتفرجين المذعورين .

كان هانز كلما خرج من شارع « كيربر » الواسع ، الوفير الإضاءة ودخل إلى « فالكن » يداهمه مع الهواء الغريب الخانق جو ملبد بالنشوة والرهبة ، مزيج من الفضول والخوف وتأنيب الضمير وشعور الغبطة بتوقع المغامرة . كان « فالكن » المكان الوحيد الذي يتوقع فيه المرء حدوث خرافة ، أعجوبة أو مفاجأة خارقة ، حيث السحر والكائنات الشجية ، حقيقة كانت أم خيالاً ، وحيث المرء تهزه نفس الارتعاشة المؤلمة الممتعة التي يشعر بها أثناء قراءة كتب الأساطير والفضائح الشعبية « روتلنغر » التي كان يصادرها المدرسون لأنها تنقل أخبار الأفعال المنكرة وجرائم زوننغرتله ، شندرهانه ، مسركارله ، بوستميشل وأمثالهم من الأبطال الشعبيين الأشداء والمجرمين العتاة والمغامرين .

غير أن هناك مكاناً آخر عدا « فالكن » ويختلف تماماً عن غيره من الأماكن ، حيث يمكن للمرء فيه أن يشهد ويسمع شيئاً ما ، ويضيع في مساحات مظلمة وحجرات غير اعتيادية . هذا المكان هو المدبغة القريبة الكبيرة ، مبنى قديم ضخم ، علقت فوق أرضيته شبه المعتمة قطع الجلود الكبيرة وفي قبوه حُفر مغطاة وممرات ممنوعة . وفيه كانت ليزه تسرد كل

مساء حكاياتها على جميع الأطفال . وكان هذا المكان يكاد يكون أكثر هدوءاً وإشراقاً وإلفة من « فالكن » ولكن ليس أقل منه غموضاً . كان عمل فتيات المدبغة في الحفر والقبو وأكشاك الدبغ وعلى الأرضيات تسوده طبيعة خاصة ونادرة ، وكان الهدوء يخيّم على الحجرات الكبيرة العميقة فتلفت النظر مثل رب بيت طاغية جبار متجهم ، يبعث الرعب والفزع ، وكأنه من أكلة لحوم البشر ، وليزه تتجول في هذا البيت العجيب مثل الساحرة ، وترعى كالأم جميع الأطفال والطيور والقطط والكلاب الصغيرة ، تملؤها الطيبة والأساطير والأغاني .

في هذا العالم الذي افترق عنه منذ زمن بعيد تتحرك الآن أفكار وأحلام الصبي . هرب من فشله وخيبة أمله ليعود إلى الماضي الجميل حينما كان يزخر بالآمال ويرى العالم أمامه واقفاً مثل غابة ساحرة هائلة وحيث كان يخفي في أعماقه السحيقة الأخطار المحدقة والكنوز الرائعة والقصور الزمردية . كان قد توغل في هذه الأرض الموحشة خطوة صغيرة ثم أنهك قبل أن تأتيه العجائب ، والآن يقف مرة أخرى عند المدخل المُلغز بالأسرار الذي يغفو في الغسق ، لكنه هذه المرة يقف كغريب لا شأن له ، ويتأمل بدهشة وفضول .

تفقّد هانز « فالكن » عدة مرات أخرى . وجد ذات العتمة السابقة والرائحة العتيقة والزوايا القديمة والسلالم المظلمة ؛ وجد مجموعة من الرجال والنسوة العجائز يجلسون أمام الباب ، وأطفالاً قد تقدموا في السن كثيراً . . لم يتعرفوا على هانز وردّوا على تحيته الخجولة بتبرم ساخر . لم يعثر على يوحنا الكبير ، الملقب غاريبالدي ، فقد توفى وكذلك لوته فروملر . أما ساعي البريد روتلر فإنه لا يزال حياً . اشتكى لهانز من الأطفال الذين كسروا له ساعته الموسيقية ، دعاه لاستنشاق السعوط وحاول أن يشحذ منه بعض المال ؛ حدثه عن الأخوين فنكنباين ، حيث يعمل أحدهما الآن في مصنع للسجائر واعتاد على تناول الكحول كالكبار ؛ والآخر اختفى إثر معركة بالسكاكين بعد احتفال الكنيسة السنوي ولم يُشاهد منذ عام . كان كل شيء يبعث

على الشكوى والأحزان .

ذات مساء ذهب هانز إلى المدبغة . جذبته إليها من خلال ممر البوابة والحظيرة الرطبة ، وكأنه قد أخفى في هذا البيت الكبير القديم طفولته وجميع أصدقائه الذين فقدهم ، اجتاز الدرج المحدودب والفجوات المعبدة ، وصل إلى الدرجات المعتمة ، تلمس طريقه إلى أرضية الباحة المعلقة فوقها قطع الجلود الموترة ، وهناك فاجأته سحابة كثيفة من الذكريات الممتزجة برائحة الجلود الحادة . نزل ثانية وفتش عن الباحة الخلفية حيث حُفر الدباغة والسقالات الضيقة العالية المسقوفة التي تستخدم لتجفيف عجينة قشرة الدبغ . كانت ليزه بلحمها ودمها تجلس على دكة الحائط وتقشر البطاطس من السلة الموضوعة أمامها ، وحولها يتحلّق بعض الأطفال وهم يستمعون إلى حكاياتها .

ظلّ هانز واقفاً في الباب المظلم وأخذ ينصت إلى هناك حيث ليزة والأطفال المستمعين . كان الهدوء التام يخيّم على حديقة الدبغ المعتمة ، وفيما خلا خرير النهر الواهن خلف جدار الباحة لم يكن يسمع غير صوت صرير سكين ليزه أثناء تقشيرها البطاطس وصوتها المتحدث . كان الأطفال يجلسون القرفصاء فيما كانت تتحدث لهم عن قصة زانكت كرستوفل حينما نادى عليه في الليل صوت طفل عبر النهر .

أصغى إليها هانز برهة من الوقت ثم غادر خلال الفجوات المظلمة ، عائداً إلى البيت . وجد من العسير عليه أن يعود طفلاً مرة أخرى ويجلس في المساء عند ليزه في حديقة الدباغة ، والآن تخلى عن المدبغة كما تخلى قبلها عن « فالكن » .

الفصل السادس

توغّل الخريف كثيراً . من غابات الصنوبر الداكنة كانت تتلألأ أوراق الأشجار المتفرقة صفراء ، حمراء مثل المشاعل ، وكانت الشعاب والوديان قد اكتست بضباب كثيف ، والنهر ينفث البخار في الصباحات الباردة .

لا زال التلميذ الشاحب المفصول يمضي أيام العطلة متجولاً ، كئيباً ، متعباً ، ثم سرعان ما سُلب منه حتى هذا التجوال القليل الذي كان من الممكن أن يستمر عليه . كان الطبيب قد وصف له ثمة قطرات من الدواء وزيت كبد الحوت والبيض والاغتسال بالماء البارد . لم يكن غريباً أن لا يجدي معه كل هذا . لقد أضاع الشاب جيبنرات المضمون والهدف الذي ينبغي أن تحفل بهما كل حياة سليمة متكاملة . في هذا الوقت بالذات قرّر الأب لابنه أن يصبح كاتباً أو الشروع في تعلّم إحدى المهن اليدوية . لم يتخذ الشاب قرار التفكير بمستقبله جدياً حتى الآن ، ولم يزل خائر القوى وبحاجة إلى مزيد من القوة والتحسّن .

منذ أن هدأت التأثيرات المضطربة الأولية وتخلى عن فكرة الانتحار انتقل هانز من حالات الخوف المقلقة المتقلبة إلى حالة الكآبة التي غاص فيها مستسلماً شيئاً فشيئاً كما يغوص في أرض طينية هشّة . أخذ الآن يتجول في الحقول الخريفية متجاوزاً تأثير المناخ الذي يسود هذا الفصل

من السنة . كان الميل إلى الخريف وسقوط الأوراق الخافت وغريزة الفناء المتكاسلة التي لا بد منها لدى النباتات تنقله مثل كل المرضى إلى أجواء الكآبة والقنوط والأفكار الحزينة . كانت لديه رغبة ملحّة في أن يمضي مع هذه الأجواء ، يغفو معها ويموت معها ، لكنه شعر بأن روح الشباب الكامنة فيه تقاوم ذلك وتتشبث بالحياة بجلد وصبر .

تطلّع إلى الأشجار وكيف أصبحت صفراء بنية ويابسة ، ثم تطلّع إلى الضباب الحليبي الذي يتصاعد من الغابات والبساتين التي تنطفئ فيها الحياة بعد آخر قطفة من قطاف الثمار والفواكه وكيف أنها تشيح الأنظار عن أغصانها الذابلة الحائلة . وتأمل النهر الذي توقفت فيه السباحة وصيد الأسماك وأخذت تغطيه الأوراق الجافة ، وتتناثر على ضفته المتجمدة قطع الجلود المتيبسة . منذ بضعة أيام وهو يحمل معه كميات من خميرة الفواكه ، حيث أن عملية عصر الفواكه كانت تجري بجد ونشاط في مواقع العصر والطواحين كلها ، والبلدة تتنسم رائحة الفواكه التي تتخمر بهدوء خلال الشوارع .

كان الاسكافي فلايغ قد استأجر هو الآخر معصرة صغيرة في الطاحونة السفلى ودعى هانز لعصر فواكهه .

في البهو الأمامي للطاحونة كانت تنتشر العصارات الصغيرة والكبيرة ، العربات ، السلال والأكياس المملوءة بالفاكهة ، الطشوت ، الأحواض ، الدلاء ، البراميل وأكوام من الخميرة السمراء ، روافع خشبية ، عربات يدوية وعربات فارغة للنقل . كانت العصارات تعمل مخرخشة ، متأوهة مزمجرة ، أغلبها مطلي باللون الأخضر ، هذه الخضرة الممتزجة مع اللون الأصفر البني للخميرة وألوان سلال التفاح والنهر الأخضر الفاتح والأطفال الحفاة وشمس الخريف الرائعة تمنح كل من يراها تأثيراً ساحراً بالبهجة والامتلاء وحب الحياة . كان صرير سحق التفاح خشناً يثير الشهية ؛ إن من يأتي إلى هنا ويصغي لهذا الصرير تمتلكه في الحال رغبة عفوية في أن يتناول تفاحة ويسرع في قضمها . كان العصير الحلو الطازج يتدفق كثيفاً من الأنابيب بلونه الأحمر الأصفر ، ويلتمع

تحت أشعة الشمس ؛ والمُشاهد لكل هذا لا يسعه إلا أن يلتمس كأساً من العصير ليتذوقه بسرعة ثم يقف ساكناً وتترقرق عيناه ويسري في داخله تيار من الحلاوة والانتعاش . كان هذا العصير الحلو المذاق يغمر الأرجاء برائحته المبهجة الحادة ، الطيبة . وفي الواقع كان هذا الأريج هو الأطيب من محصول العام كله ، وهو خلاصة عملية النضج والقطف ، وأفضل ما يمكن استنشاقه قبل اقتراب فصل الشتاء . حيث يتذكر المرء أثناءه بامتنان جملة من الأحداث الجميلة الرائعة : أمطار مايو الناعمة ، أفكار الصيف المنحلة مطلع الخريف البارد ، الشروق الهادئ لشمس الربيع ، سمرة البشرة الخمرية الدافئة ، الأوراق البيضاء والحمراء وتلألؤ أوراق الفواكه الناضجة الحمراء البنية قبل القطف ، وخلال ذلك كل الأشياء الجميلة المفرحة الأخرى التي حدثت على مدى العام .

إنه زمن الخير الذي تنعّم به الجميع . كان الأثرياء ووجهاء القوم ، بقدر ما يسمح به تواضعهم بالظهور شخصياً ، يزنون تفاحهم الفاخر بأيديهم ويحصونه بدزينة أو أكثر من الأكياس ويتذوقون عصيره بأواني جيب من الفضة ثم يرفعون أصواتهم عالياً كي يسمع الجميع أن عصيرهم لا يحتوي حتى على قطرة واحدة من الماء . أما الفقراء فلم يكن لديهم غير كيس واحد فقط ، يتذوقون عصيرهم بواسطة كؤوس أو صحاف من الخزف ، ويعمدون إلى إضافة الماء إليه ، وهم بذلك ليسوا أقل كبرياءً وفرحاً من الأغنياء ومن كان ، لأي سبب من الأسباب ، لا يستطيع صنع العصير بنفسه فإنه يتجه إلى معارفه وجيرانه متنقلاً من معصرة إلى أخرى فيقدم له كأس من العصير وتفاحة ، بعدها يدلو بدلوه كخبير ، مبرهناً على معرفته بهذا الجانب أيضاً . وكان الأطفال سواء من أبناء الفقراء أو الأغنياء يتجولون هنا وهناك وفي أيديهم أوانٍ صغيرة وتفاحة مقضومة وقطعة خبز ، حيث هناك في سالف الأزمان أسطورة لا أصل لها تقول إن من يأكل قطعة خبز كاملة أثناء صنع العصير يكتسب مناعة ضد جميع آلام البطن .

مئات الأصوات كانت تتعالى وتتداخل بعضها خلال بعض ،

وبخاصة ضوضاء الأطفال ، وكلها كانت نشيطة ، بهيجة ، فرحة .

«تعال هنا يا هانز! تعال إليّ! قدح واحد فقط!* »

« شكراً جزيلاً ، أشعر بمغص في بطني »

« كم دفعت للقنطار الواحد ؟ »

« أربعة ماركات . لكنه رائع . هاك تذوقه! »

أحياناً يحدث ما هو مزعج ومكدّر . ينفرط كيس التفاح ويتدحرج على الأرض .

«اللعنة ، تفاحي! ساعدوني ، أيها الناس! »

الكل يساهم في التقاط التفاح من الأرض ، ما عدا بعض الأطفال الشياطين الذين يحاولون أثناء ذلك دسّه في جيوبهم .

« لا تدسّوا شيئاً في جيوبكم ، أيها السفلة! تستطيعون أن تأكلوا ما تشاؤون ، ولكن لا تدسّوا في جيوبكم . تمهّل ، أنت أيها السخيّ ، أيها الغبي! »

« لا تكن متكبراً أيها السيد الجار ، تذوقه مرة! »

« مثل العسل! مثل العسل تماماً! كم تصنع منه ؟ »

« برميلين صغيرين لا أكثر ، ولكن ليس من النوع الرديء »

« من الأفضل أن لا يقوم المرء بعملية العصر في منتصف الصيف وإلا لسكر به في الحال » .

كان هناك أيضاً بعض العجائز المزعجين ممن لا تفوتهم مثل هذه المناسبة . لقد توقفوا عن صنع العصير منذ أمد طويل ، لكنهم كانوا على دراية جيدة بكل ما يتعلق به ، كانوا يتحدثون عن الأيام الخوالي ،

---

* يدور هذا الحوار بلهجة أهالي منطقة شفابن .

عندما كانت الفاكهة توهب بلا ثمن . كل شيء كان زهيداً وأفضل ، لم يكن هناك ما يسمى بإضافة السكر ، وكانت الأشجار حينذاك تحمل ثماراً تختلف تماماً عما تحمله الآن . «في ذلك الزمان كان يحق للمرء أن يتكلم عن المحصول الجيد . كانت لديّ شجيرة تفاح تحمل لوحدها خمسة قناطير من التفاح*» هكذا إذن أصبح الزمن رديئاً ، كان العجائز المزعجون طيلة موسم النبيذ لا يفعلون شيئاً سوى تذوقه ، وكانت لما تزل لديهم بقية أسنان يستطيعون بها مضغ تفاحهم ، حتى أن أحدهم أرغم نفسه على تناول بضعة كمثريات كبيرة الحجم حتى أصيب بمغص مؤلم .

«هذا ما أقوله لك» أخذ يلعن «في السابق كنت أستطيع التهام عشر حبات من هذه» ثم أخذ يفكر وهو ينهد تنهدات غير مصطنعة في الزمان الذي كان يستطيع فيه التهام عشر كمثرات قبل أن يصاب بآلام المغص .

وضع السيد فلايغ معصرته وسط الزحام ، وأخذ يساعده أقدم الصبية المساعدين ، كان يحصل على تفاحه من مدينة بادن ، وعصيره كان دائماً الأفضل بين بقية الأنواع الأخرى . كان يحسّ بسرور كامن ، ولا يبخل على أحد بتناول كأس «التجربة» وكان أكثر سروراً منه أطفاله الذين كانوا يحومون حوله فرحين على شكل أسراب ، وكذلك الصبي المساعد الذي كان يشعر هو الآخر بسرور وفرح داخلي . كان فلايغ يحسّ بالارتياح من كل شيء ، يعمل ويتحرك بهمة ونشاط في الهواء الطلق ، ولم يكن ذلك غريباً عليه ، فهو يتحدر من مجتمع أعالي الغابة ، وينتمي إلى بيت فلاحي فقير . كان يتلذذ بمذاق العصير الحلو الطيب . وجهه الفلاحي الغلامي المعافى كان دائم الابتسام مثل قناع ضاحك ، ويداه الاسكافيتان كانتا أنظف مما هما عليه في الأيام الأخرى .

عندما جاء هانز جيبنرات إلى الساحة كان يبدو عليه الهدوء

---

* الحوار أيضاً بلهجة منطقة شفابن

والخشية ؛ لم تكن لديه رغبة شديدة في المجيء . ولكن حال وصوله إلى أول معصرة ، مُدَّ باتجاهه إناء مملوء بالعصير ، وكان من ناشولدز ليزه ، تذوقه ، وأثناء الارتشاف داهمته مع مذاق العصير الحلو اللذيذ موجة من ذكريات الخريف الماضي المضحكة . وفي ذات الوقت رغبة مترددة للمشاركة ثانية ، ولو قليلاً ، ومحاولته في أن يكون مرحاً . تحدث مع بعض المعارف ، وقدمت إليه الكؤوس ، وحينما وصل إلى معصرة فلايغ امتلكه شعور الفرح الجماعي ، وأسَرَهُ المشروب ودار رأسه . حيّا الاسكافي بانتشاء تام وألقى بعض النكات المعتادة التي تدور حول النبيذ . أخفى الأسطة دهشته ورحّب به بحرارة .

مضى نصف ساعة من الوقت حينما جاءت فتاة ترتدي ثوباً أزرق ، أثارت ضحك فلايغ ومساعده ، ثم بدأت تشاركهما العمل .

« أجل . . . » قال الاسكافي « إنها ابنة أخي من هايلبرون . بالتأكيد إنها معتادة على مواسم خريفية أخرى ، فمدينتها تشتهر بوفرة كرومها » .

ربما كانت تناهز الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر . كانت نشيطة ، فرحة مثل غالبية سكان السهول ، لم تكن بالطويلة ، لكنها متينة البنية ، ممتلئة القوام . كانت العينان الداكنتان ، ذاتا النظرات الدافئة تتحركان بمرح وذكاء في الوجه المدوّر الذي يضم فماً جميلاً يدعو إلى التقبيل ، وعموماً كانت تبدو مثل أي فتاة هايلبرونية متعافية جذلة ، ولكن إطلاقاً ليست كقريبة للأسطة الاسكافي الورع . يقيناً إنها من عالمه ، غير أن عينيها لم تبدوا مثل تلك العيون التي تسهد في المساء والليل بقراءة الإنجيل أو ديوان الشاعر غوسنر « الكنز الصغير » .

بغتة بدت الكآبة مرة أخرى على هانز ، وتمنى من القلب لو أن « ايما » تغادر سريعاً . لكنها ظلت ، واستمرت تضحك وتثرثر ، وترد على كل نكتة من نكاته حول النبيذ برد لبق ، فخجل والتزم الصمت . على أية حال ندم على ذهابه إلى الفتاة ومخاطبتها بصيغة الاحترام

«أنتم» . وكان لنشاطها ولياقتها ما جعله يشعر بالاستسلام والإهانة فانزوى كالحلزون الذي يتفادى الوقوع تحت عجلة العربة . لاذ بالصمت وحاول أن يبدو وكأنه يعاني من الملل ؛ لكنه لم يستطع ، وبدلاً من ذلك ارتسمت على وجهه تعابير من فقد له شخص قريب .

ما من أحد كان يمتلك الوقت لكي يلاحظ ذلك ، وبخاصة ايما ذاتها . لقد كانت ، كما تناهى إلى سمع هانز ، منذ أربعة عشر يوماً في زيارة فلايغ ، كانت تعرف كل الناس . تذهب عند الخاصة والعامة منهم ، تتذوق النبيذ الجديد ، تأخذ الأطفال تعانقهم ، توزّع التفاح وتشيع من حولها الفرح والضحك الصاخب . كانت تنادي على كل صبي في الشارع «أتريد تفاحة ؟» ثم تأخذ تفاحة جميلة حمراء وتخفيها خلف ظهرها : «في اليمين أم الشمال ؟» ويتعذر على الصبية معرفة التفاحة في اليد المعنية ويبدؤون بالتذمر . عندئذ تناولهم التفاحة ، لكنها تفاحة صغيرة خضراء . كان يبدو أنها تريد أيضاً أن تقف على أحوال هانز ، فتسأله إن كان هو ذلك الشخص الذي دائماً ما يصاب بالصداع ، وقبل أن يهم بالإجابة تدخل في حديث جديد مع الذين يجاورونها .

في اللحظة التي قرّر فيها هانز أن يترك ويعود إلى البيت وضع فلايغ مقبض المعصرة في يده .

«الآن باستطاعتك أن تواصل قليلاً ، ستساعدك ايما . يجب عليَ أن أعود إلى الورشة» .

ذهب الأسطة ، وكان الصبي المساعد مكلفاً بنقل العصير مع المعلّمة ، وهكذا ظل هانز وحيداً مع ايما على المعصرة . اصطكت أسنانه من الغيظ ، وأصبح كالعدو .

وجد المقبض عسير الحركة ، وحينما رفع نظره انفجرت الفتاة بضحكة جميلة . كانت على سبيل المزاح قد أسندت المقبض عكس حركته ، وعندما ثار غضب هانز ثانية ، عاودت الفتاة فعلتها مرة أخرى .

لم يقل شيئاً ، لكنه حينما أدار المقبض الذي كان الجانب الآخر منه يقاومه جسد الفتاة أحسّ فجأة بالخجل ، ثم شيئاً فشيئاً توقف كلية عن الاستمرار في إدارة المقبض . أحسّ بخوف لذيذ ، وعندما مالت الفتاة الصغيرة وضحكت في وجهه ، بدت له وكأنها تغيرت تماماً ، أصبحت أليفة ، وفي نفس الوقت غريبة ، وضحك هو الآخر بشيء من ثقة تفتقد إلى التجربة . توقف المقبض عن الحركة كلية .

قالت ايما : « لا نريد أن ننهك أنفسنا هكذا » وناولته نصف قدح من العصير الذي شربت منه قبل قليل .

كانت رشفة العصير هذه حادة جداً وأكثر حلاوة من سابقتها ، وعندما أكمل شرابه التاعت نفسه من الكأس الخاوية ، وفزع من تسارع ضربات قلبه وصعوبة تنفسه . بعد ذلك عادا إلى العمل مرة أخرى ، وكان هانز لا يدري ماذا يفعل عندما يحاول الوقوف ويصطدم به فستان الفتاة ، ويدها تلامس يده . في كل مرة حينما يحدث ذلك كا قلبه يتوقف عن الخفقان بنشوة تغمرها الرهبة ويعتريه وهن عذب ، لطيف ، وتأخذ ركبتاه بالارتجاف قليلاً ، ورأسه بأزيز مدوّخ .

لا يعلم ما الذي كان يقوله ، لكنه كان يتحدث ويجيب ، يضحك حينما تضحك ، وكان قد هددها مشيراً بإصبعه عدة مرات عندما كانت تتفوه بأشياء حمقاء ، وأفرغ الكأس في يديها مرتين . في ذات الوقت مرقت أمامه قائمة طويلة من الذكريات : الخادمات اللواتي كان يشاهدهن واقفات مع الرجال في أبواب المنازل عند حلول المساء ، بعض الجمل التي قرأها في كتب الروايات ، قبلة هرمان هايلنر له آنذاك ، ما سمع من كلمات وحكايات وأحاديث الطلبة المبهمة حول « الفتيات » و« ماذا يحدث حينما يكون لدى المرء حبيبة » . ثم أخذ يتنفس بصعوبة مثل تنفس الفرس عند تسلقها الجبل .

كل شيء تغيّر أمام ناظريه . الناس والضوضاء التي هنا وهناك تحولت إلى كتلة سحابية ملوّنة مضحكة . استحالت الأصوات المتفرقة

والشتائم والقهقهات إلى رذاذ معتم شامل ، وبدا النهر والجسر العتيق نائيين كالشيطان . حتى ايما كانت تبدو بشكل مختلف . لم يعد يرى وجهها - وإنما فقط يلمح عينيها الداكنتين الفرحتين ، والشفتين الحمراوين وخلفهما الأسنان البيضاء الحادة ؛ تلاشت هيئتها ولم يبق منها سوى قطع متفرقة - نصف حذاء يعلوه جورب أسود ، خصلة شعر ضالة في العراء ، عنق مستدير أسمر يختفي داخل إيشارب أزرق اللون ، أكتاف متماسكة تختلج تحتها الأنفاس ، آذان غير منتظمة الحمرة

بعد فترة أخرى سقط القدح من يدها في الطشت وانحنت لالتقاطه . وأثناء ذلك ضغطت ركبتها عند حافة الطشت باتجاه مرفقه . انحنى هو أيضاً ، ولكن ببطء ولامس وجهه شعرها . كان لشعرها أريج شفيف ، في أسفله ، في ظلال الخصلات السائبة المجعدة يلتمع دافئاً أسمر قفا جميل ، ثم ينساب الشعر حتى الخصر الأزرق الذي يضيف تماسكه الشديد بعداً آخر إلى نحافته وضيقه .

حينما نهضت ثانية ، وفي الوقت الذي مسّت فيه ركبتاها ساعده ، ولامس شعرها وجنتيه ، ولاحظ احمرار وجهها جراء الانحناء ، أحسّ هانز بقشعريرة حادة تسري في جميع أوصاله . امتقع لونه ، وأصيب للحظة بإعياء شديد ، فاضطر للاتكاء على صامولة المعصرة . كان قلبه ينبض مرتعداً ، ودبّ الضعف في ساعديه والألم في كتفيه .

ابتداءً من هذه اللحظة توقف عن الكلام ، وأخذ يتفادى نظرات الفتاة ، لذلك كان ينظر إليها فقط حينما تحيد بنظراتها عنه ، نظرات يمتزج فيها التوجس والرغبة الغامضة . في هذه اللحظة انفجر شيء ما في داخله وتفتحت أمام روحه أرض جديدة غريبة ساحرة ذات شواطئ زرقاء بعيدة . لم يعد يدري ، أو بالأحرى يتكهن ما الذي يعنيه له الخوف والعذاب ؟ ولا يدري أيضاً أيهما أكثر تأثيراً عليه الرغبة أم الألم ؟

كانت الرغبة تعني انتصار حبه الفتي والتنبؤ الأول بالحياة العنيفة . كان الألم يعني انتهاء مرحلة الطمأنينة البكر وأن روحه قد غادرت أرض الطفولة ولن تعود إليها ثانية . إن مركبه الصغير الخفيف الذي نجا بصعوبة من التصدّع الأول يقع الآن تحت رحمة عاصفة هوجاء أخرى ، وأمامه على مسافة قريبة تنتظره أعماق سحيقة وصخور ناتئة خطيرة ، اجتازها الشاب بمهارة عالية ، وبلا ربان أو مساعدة أحد ، وإنما اعتمد على قواه الذاتية في إيجاد الطريق والمنفذ . كان من المناسب أن يعود الفتى المساعد ثانية ويحلّ محله على المعصرة . بقي هانز هناك بعض الوقت . كان لا يزال يأمل بلمسة أو كلمة جميلة من أيما . لكنها عادت مرة أخرى للثرثرة عن معاصر الآخرين ، خجل هانز أمام الصبي المساعد . وفرّ إلى البيت بلا كلمة وداع .

كل شيء أصبح غريباً ، جميلاً ، يدعو إلى الدهشة . كانت العصافير التي انتفخت بطونها من تناول الخميرة تندفع بصخب نحو السماء التي لم تشاهد إطلاقاً بمثل هذا السمو والجمال والزرقة المشوّقة من قبل . ولم يشاهد أحد من قبل مرآة النهر بمثل ذلك الصفاء والوضوح واللون الأخضر الأزرق ، ولا السد بمثل ذلك البياض الساطع والرذاذ الهادر . كل شيء كان يبدو مثل لوحات موشاة ، رسمت حديثاً ، ووضعت خلف قطع زجاجية رائقة نظيفة . كل شيء كان يشير إلى ترقب بدء احتفال كبير . كذلك هو أحسّ في داخله بموجة مكبوتة ، مقلقة ، عذبة لشعور غامض جارف وآمال زاهية غير اعتيادية مع خوف مقلق مريب من أن يكون مجرد حلم لا يمكن تحقيقه أبداً . تجمعت هذه المشاعر المزدوجة وآلت إلى ينبوع متضخم عميق . إلى إدراك ، وكأن شيئاً ما في داخله يريد أن ينطلق بعنف ويحصل على الهواء – ربما نشيجاً أو غناءً ، صرخة أو ضحكة مجلجلة . وحال وصوله إلى البيت أخذ الاضطراب يهدأ قليلاً ، وكان طبيعياً أن يجد هناك كل شيء مثلما هو دائماً .

« من أين جئت ؟ » سأل السيد جيبنرات .

«من فلايغ ، عند الطاحونة »

« كم عَصَر ؟ »

« برميلين ، كما أعتقد » .

التمس من الأب أن يسمح له بدعوة أطفال فلايغ حينما يذهب إلى المعصرة . « مفهوم » دمدم البابا . « سأفعل ذلك في الأسبوع القادم . دعهم يجيئون بعد ذلك! » .

لم تبق غير ساعة واحدة حتى موعد طعام العشاء . خرج هانز إلى الحديقة التي لم يعد فيها إلا القليل من الخضرة فيما عدا شجرتي الصنوبر . اقتطع عوداً من شجيرة بندق وأخذ يسوّط به في الهواء ، مسبباً الاضطراب للأوراق الذابلة . توارت الشمس خلف الجبل الذي تقطع حافاته السوداء المرتسمة عليها نهايات أشجار الصنوبر الرقيقة السماء الغاسقة الصافية ذات اللون الأزرق المائل إلى الخضرة . كانت هناك غيمة رمادية طويلة الامتداد تشعّ باللون الأصفر والبني تتهادى ناحية الوادي ببطء وهدوء ، وهي تشق طريقها خلال الهواء الرقيق الذهبي وكأنها سفينة عائدة إلى مرساها .

بنشوة جمال المساء النضر ، المخضب بالألوان التي اعترته بشكل غريب لم يعهده من قبل سار هانز بخطى وئيدة خلال الحديقة . كان يتوقف بين حين وآخر ، يغمض عينيه ويحاول أن يتخيّل أيما عندما وقفت قبالته عند المعصرة ، وكيف دعته ليشرب من قدحها ، وكيف انحنت على طرف الطشت واحمرّ وجهها بعدما انتصبت ثانية . تخيّل شعرها ، جسدها في الثوب الأزرق الضيق ، عنقها ، ظهرها الأسمر المُضلل بالزغب الأسود . تخيل كل شيء منها يجعله يحس بالرغبة والارتعاش إلا وجهها الذي لم يستطع أبداً أن يتخيله ثانية .

في هذه الأثناء شرعت الشمس بالمغيب ، لكنه لم يشعر بالبرد ، وجد الغسق المتأخر مثل عباءة مليئة بالأسرار ، لا يعرف له اسماً . ثم

أدرك أنه واقع في حب الفتاة الهايلبرونية ، ولم يدرك ملامح تفتح رجولته المتيقظة إلا بشكل ضبابي وكحالة استثنائية ، مثيرة ومتعبة .

كان غريباً عليه أن يجلس أثناء العشاء بكيانه المتحوّل هذا وسط المحيط المعتاد القديم . الأب ، الخادمة العجوز ، المائدة ، الأدوات والغرفة بأكملها بدت له فجأة قديمة ، وتطلّع إلى كل شيء بشعور من الدهشة والغرابة والرقة ، كما لو أنه قد عاد تواً من سفرة طويلة . آنذاك كان يراقب نفس الناس والأشياء بشعور الوداع المتأمل المتأسف ، لكنما الآن أصبح هذا الشعور شعور العودة والدهشة والابتسام وإعادة الامتلاك .

انتهي من تناول الطعام ، وقبل أن ينهض هانز بادره والده بأسلوبه المقتضب : « أترغب أن تصبح عامل ميكانيك . أم تفضل أن تكون كاتباً ؟ » .

« كيف ؟ » تساءل هانز بدهشة .

« تستطيع في نهاية الأسبوع المقبل أن تذهب إلى الميكانيكي شولر أو الأسبوع الذي يليه إلى دار البلدية للعمل كمتدرب . فكّر بدقّة! سنتحدث عن ذلك مرة أخرى في الصباح » .

نهض هانز وخرج . أربكه السؤال المفاجئ وخطف بصره . وبشكل غير متوقع طُرحت أمامه شؤون الحياة اليومية العملية النشيطة التي أصبحت منذ بضعة أشهر غريبة عليه ، حيث اكتست بوجه مخادع ومُهدّد ، تُوعد وتطالب . لم تكن لديه رغبة حقيقية في أن يكون ميكانيكياً أو كاتباً . أرعبته فكرة العمل الجسدي القاسي ومسألة مزاولة مهنة يدوية ، عندئذ خطر في ذهنه زميل دراسته أوغست الذي تأهل كعامل ميكانيك ، وفكر في الذهاب إليه ليستفسر منه عن طبيعة العمل .

وفيما كان يفكر ، اضطربت مخيلته وتشابكت أمامه الصور ،

وبدت له المسألة لا تستحق كل هذه العجالة والأهمية ، وإنما شيء آخر كان يستحوذ على تفكيره ويشغله ، فأخذ يقطع أرض بهو البيت رواحاً ومجيئاً ، ثم فجأة تناول قبعته وغادر البيت ، وأخذ يسير على مهل خارجاً إلى الشارع . تذكر أنه يجب عليه اليوم أن يرى أيما .

حلّ الظلام . من إحدى دور الاستراحة كانت تنطلق صيحات أصوات غناء صاخبة شاهد بعض النوافذ المضاءة ، ووميض أحمر خافت يشبّ في الهواء مرة إثر أخرى . نزل إلى الشارع بخطى بطيئة ، صف طويل من الفتيات الشابات كنَّ يمسكن ذراع بعضهن البعض ، فرحات ، مبتهجات تحت دوي الضحكات والثرثرات العالية ، يتمايلن بين الأضواء المترجرجة ، ويتهادين مثل موجة تجيش بالحيوية والفرح خلال الشارع الغافي . تطلّع هانز إليهنّ طويلاً وقلبه يخفق حتى بلعومه . كان يسمع صوت عزف كمان خلف نافذة مسدلة الستارة ، وعند النبع امرأة تغسل الخسّ . وهناك على الجسر كان يتمشى شابان كل مع حبيبته . أحدهما كان يمسك يد فتاته بحركة سائبة ، يهزهز ذراعها ويدخن سيكارته . أما الشاب الآخر فكان يتابع سيره على مهل ، لصيقاً بفتاته ، مطوقاً خصرها ، فيما كانت هي تدسّ كتفها ورأسها في صدره . كان هانز قد رأى مثل هذه المشاهد مئات المرات ولم تثر انتباهه ، لكنه الآن تملكه شعور خفي ، معنى غير واضح ، لكنه شهواني لذيذ ؛ استقرت نظراته على الزوجين ، واندفع خياله مستشعراً حدثاً قريباً . بكآبة وقشعريرة داخلية عميقة أحسّ باقتراب سرّ كبير لا يعرف إن كان مفرحاً أم مخيفاً ، لكنه في الحالتين تكهن بوجود شيء ما مزلزل .

توقف أمام بيت فلايغ . لم يجد الجرأة على دخوله . ما الذي ينبغي أن يفعل هناك ويقول ؟ تذكر كم مرة جاء إلى هنا حينما كان صبياً في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ؛ حينما كان فلايغ يروي له قصصاً من الإنجيل ، ويجيب على أسئلته المتلاحقة الفضولية عن الجحيم والشيطان والأشباح . هذه الذكريات كانت تؤلمه وتثير في نفسه الشعور بالذنب . لم يكن يدري ما الذي يفعل ، ولا حتى ما الذي يوده

في الحقيقة . بيد أنه كان يريد أن يراه ، كان كما لو أنه يقف أمام شيء سري ومحظور . وجد نفسه غير منصف بحق الاسكافي إذا ما استمر على الوقوف في الظلام أمام بابه ولا يدخل . ولو صادف أن رآه الآن واقفاً أو ظهر له في الباب ، فربما لن يعاتبه حسب وإنما سيضحك عليه أيضاً ، تسلل خلف البيت وتهيأ له أن ينظر من خارج السياج إلى غرفة الجلوس المضاءة . لم يشاهد الأسطة . كان يبدو على الزوجة أنها منهمكة في أعمال الخياطة أو الحياكة . كان الولد الأكبر لم يزل مستيقظاً ، حيث يجلس إلى الطاولة ويقرأ . وأيما كانت تجري هنا وهناك ، ويظهر أنها مشغولة بترتيب البيت بحيث أنه لم يستطع أن يحظى بمرآها إلا للحظات قصيرة . كان الهدوء شاملاً إلى حد أن المرء بمقدوره أن يسمع بشكل واضح كل خطوة بعيدة في الشارع ويسمع صوت مجرى النهر الهادئ على الجانب الآخر من الحديقة . ازداد الظلام عتمة وانخفضت درجة برودة الليل .

إلى جانب نوافذ غرفة الجلوس كانت هناك نافذة رواق صغيرة تقبع في الظلام . مرّت فترة طويلة من الوقت قبل أن يظهر عند هذه النافذة شكل غير واضح ، أطلّ منها وأخذ ينظر في الظلام . تعرّف هانز في هذا الشكل على أيما ، ومن هول المفاجأة توقف قلبه عن الخفقان . استمرت واقفة عند النافذة ، تمدّ نظرها بتأمل وهدوء ، ولم يكن يعلم إن كانت قد رأته أو تعرفت عليه . لم يتحرك له عضو واحد ، ثبّت بصره عليها محدقاً برهبة عميقة . وتمنى وخشي في ذات الوقت أن تتعرف عليه .

ثم اختفى ذلك الشكل غير الواضح من النافذة ، وبعد ذلك مباشرة دقّ هانز باب الحديقة الصغير وخرجت أيما من البيت . في الحقيقة أراد هانز أن ينصرف حالاً في لحظة الفزع الأولى ، لكنه بقي مرغماً وهو يستند على السياج ، فرأى الفتاة تتجه نحوه ببطء خلال الحديقة المظلمة ، وكل خطوة من خطواتها كانت تحثه على الفرار . لكن ثمة شيئاً أقوى من ذلك جعله يتراجع .

وقفت أيا أمامه مباشرة ، تكاد لا تبعد عنه أكثر من نصف خطوة ، لا يفصل بينهما غير السياج الواطئ ، تطلعت إليه بحذر ودهشة . مرّت فترة من الوقت ، ليست قصيرة ، لم تقل خلالها ولا كلمة واحدة . ثم سألت بصوت خافت :

« ماذا تريد ؟ »

« لا شيء » قال وشعر بشيء فيما يشبه اللمسة يسري فوق جسده حينما خاطبته بصيغة « أنت » . مدّت يدها عبر السياج . تناولها بتردد ورقة وضغط عليها قليلاً ، وحيث لاحظ بأنها لا تنسحب . تلمّس بجرأة ومسّد يد الفتاة الدافئة بنعومة وحذر . وحينما أسلمت يدها له طواعية ، وضعها على خده . تيار من الرغبة الجارفة ، من الدفء الغريب والخدر اللذيذ سرى في كيانه ، الهواء الذي من حوله بدا منعشاً رطيباً ، ولم يعد يرى الشارع ولا الحديقة ، وإنما وجه مشرق قريب ، وشعر أسود مشعّث وحسب .

تناهى إليه من أعماق الليل السحيقة رنين حينما سألت الفتاة بصوت واطئ جداً :

« أتريد أن تقبلني ؟ » .

اقترب الوجه البهي أكثر ، أمالت ثقل الجسد ألواح السياج الخشبية قليلاً إلى الخارج ، شعر طليق هفيف ، عطر لامس جبهته ، عيناه مغمضتان يغطيهما جفنان أبيضان واسعان ورموش سوداء استقرتا بالقرب من عينيه . سرت في جسمه رعشة حادة حينما لامس فم الفتاة بشفتيه الخجولتين . ارتجف أثناء ذلك مرتداً ، لكن الفتاة كانت تحيط رأسه بيديها . ضغطت وجهها على وجهه ، ولم تدع شفتيه تفلتان منها أبداً . شعر بفمها يحترق ، يضغط على فمه ، يرتجف ظمآن وكأنه يريد أن يعب منه الحياة كلها . اعتراه ضعف عميق ؛ وقبل أن تتركه الشفاه الغريبة تحولت الرغبة المرتجفة إلى ألم وتعب مميت ، وحينما حررته أيا ترنّح ثم ثبّت نفسه على السياج بواسطة أصابعه المتشنجة المتصلبة .

«أنت ، تعال إلى هنا مرة أخرى ، غداً في المساء » قالت أيما وعادت منطلقة إلى البيت . لم يستغرق كل هذا الوقت أكثر من خمس دقائق ، لكنها بدت لهانز دهراً من الزمان . تابعها بنظرات خالية ، استمر ممسكاً بالألواح الخشبية ، شعر بإنهاك شديد بحيث لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة بعد . كان يستمع حالماً إلى دمه الذي يدقّ في رأسه ، ويتدفق بنبضات مؤلمة الآن ، شاهد الأبواب تفتح في الداخل ويدخل الأسطة الذي كان في ورشته بالتأكيد . شعر بالخوف وغادر المكان خشية أن يلاحظه أحد ما . سار رغماً عنه ببطء ، متأرجحاً كالمخمور ، وفي كل خطوة يخطوها يشعر بأنه سيغوص على ركبتيه . كانت الشوارع المظلمة ذات السقوف الهرمية النائمة ، وعيون النوافذ الحمراء المضببة تمرّ من أمامه مثل كواليس المسرح الصفيحية ، وكذلك الجسر والنهر والباحة والحديقة . كان خرير نافورة مياه المدبغة عالياً ومدوياً بشكل خاص . في زحمة أحلامه فتح هانز باباً ، ثم باباً آخراً ، جلس إلى طاولة ، ولم يفق إلا بعد فترة طويلة ليلاحظ أنه قد أصبح في البيت وداخل حجرته . مضت فترة أخرى من الوقت قبل أن يقرر خلع ملابسه . فعل ذلك بفوضى وظل جالساً عند النافذة عارياً حتى لسعته برودة ليل الخريف ودفعته إلى الوسادة .

اعتقد أن عليه الآن أن ينام . لكنه لم يكد يتمدد حتى أحسّ بقليل من الحرارة حيث عاد إليه نبض القلب السريع ، وتدفق الدم المفاجئ غير المنتظم . وحالما أغمض عينيه خُيّل إليه أن فم الفتاة لا زال ملتصقاً بفمه ، تمتص منه الروح وتملؤه حرارة شديدة . بعد ذلك غفا وانطلق في هروب متلاحق من حلم إلى حلم . كان يقف وسط ظلام عميق مخيف ، تناول ذراع أيما التي كانت تلامسه ، ضمته إليها ، ثم غرقا معاً منحدرين بهدوء في تيار دافئ عميق . بغتة وقف الاسكافي وسأله لماذا لا يريد زيارته ، فضحك هانز ولاحظ بأنه ليس فلايغ ، وإنما هرمان هايلنر الذي يجلس إلى جانبه في قاعة محراب دير ماولبورن في إحدى النوافذ ويلقي نكاته . بعد ذلك مباشرة وجد نفسه يقف عند

معصرة النبيذ وأيما تدفع جسدها ضد حركة المقبض وهو يقاوم هذا الدفع بكل قوته ، ثم مالت إليه تفتش عن فمه ، ساد هدوء وظلام دامس ، وغاص الآن مرة أخرى في هوّة دافئة مظلمة ، وتلاشى في الدوامة . في ذات اللحظة سمع ناظر الدير يلقي إحدى مواعظه ، لا يدري إن كانت بصدده أم لا .

نام نوماً عميقاً حتى الصباح . كان يوماً بهيجاً ، ألقاً . تمشى في الحديقة رواحاً ومجيئاً ، محاولاً أن يستفيق ويستعيد صفاء ذهنه ، لكنه كان محاطاً بضباب كثيف ، ناعس . تطلّع إلى زهور البنفسج ، آخر أزهار الحديقة . كانت تنتصب في الشمس جميلة مشرقة ، كما لو أن الشهر ما زال شهر أغسطس ، وتطلع إلى الضوء الدافئ الحبيب ينتشر برقة وعذوبة حول الأغصان والفروع اليابسة وأغصان النباتات المتسلقة الجرداء ، وكأن الفصل هو مطلع الربيع . غير أنه كان فقط يتطلع إلى هذه الأشياء ولا يعايشها ، وكأنها لا تعنيه . فجأة داهمته ذكرى واضحة ، راسخة من الماضي ، حينما كانت أرانبه تتقافز هنا في الحديقة ، ويجري ناعور مياهه الصغير . كان عليه أن يتذكر أحد أيام سبتمبر قبل ثلاث سنوات . كان ذلك عشية احتفالات سيدان ، جاء إليه أوغست ومعه شجيرات اللبلاب ، لمّعا بيرقيهما وثبتا اللبلاب على الأسنة الذهبية ، وتحدثا عن يوم غدٍ وفرحتهما به . وفيما عدا ذلك لم يكن هناك ثمة شيء آخر ، ولم يحدث شيء ، لكنهما كانا مفعمين بشعور الاحتفال ومتعته الكبيرة ، كانت البيارق تلتمع في الشمس ، وصنعت «آنّا» طبق كاتو الخوخ ، وفي الليل كان ينبغي أن تُوقد النار على الصخور العالية احتفالاً بيوم سيدان .

لم يكن هانز يعلم لماذا في هذا اليوم بالذات يتذكر ذلك المساء ، أو بالأحرى لماذا كانت هذه الذكرى جميلة ومؤثرة بهذا الشكل ، ولماذا تنطوي على كل هذه التعاسة والحزن ، لم يكن يعلم أن في رداء هذه الذكرى استيقظت مرة أخرى روح طفولته وصباه بنشوة وانشراح لكي تلقي تحية الوداع وتغادر مخلفة وراءها لسعة من سعادة عظيمة ماضية

لن تعود أبداً . لقد وجد أن هذه الذكرى لا تتناسب ومقام التفكير بأيما وما حدث مساء البارحة ، وشعر أن شيئاً في داخله استيقظ ولم يعد يتلاءم مع سعادة الماضي . تخيّل أنه يشاهد مرة أخرى التماع أسنة البيارق الذهبية ويسمع ضحكات صديقه أوغست ، ويشم رائحة الكاتو الطازج . شعر أن كل شيء كان في غاية السعادة والغبطة ، وأنه الآن قد أقصي بعيداً وأصبح غريباً ، فأسند ظهره على شجرة شربين كبيرة خشنة وانفجر في نحيب يائس ، أعانه على تطهير روحه وخلاصها .

ذهب عند الظهر إلى أوغست الذي بات مساعداً أول ، حيث استقل وتطوّر تطوراً كبيراً . حدثه عما يريد .

« إنها لمشكلة » قال أوغست وبانت على وجهه علامات العارف بكل الأمور « إنها لمشكلة . لأنك بالذات ضعيف جداً على مزاولة مثل هذا العمل . في السنة الأولى ينبغي عليك إلى جانب أعمال الحدادة أن تقوم بعملية طرق الحديد اللعينة ، والمطرقة ليست ملعقة حساء . ثم عليك أن تحمل الحديد وتقوم بالتنظيف في المساء ، والبرادة تحتاج إلى قوة ، في البدء ستنال شيئاً ما ، ولكن ليس أكثر من المبارد القديمة ، إنها لا تطرق ومع ذلك فهي ملساء مثل مؤخرة القرد » .

« إذن هل أتخلى عن الموضوع ؟ » سأل هانز بتهيّب .

« يا للمسيح ، لم أقل هذا! لا تتكاسل! إنها البداية فقط ، وهي ليست حلبة رقص . خلاف ذلك ، أجل – فإن مهنة الميكانيكي مهنة لطيفة ، أتدري ، ويجب عليه أن يكون لديه رأس ذكي وإلا أصبح حداداً فظاً . انظر إلى هنا! » .

وأتى ببضعة أجزاء صغيرة من الفولاذ اللامع لماكنة عملت بشكل دقيق وعرضها على هانز .

«نعم ، لا يُسمح بوجود نصف ميليمتر خطأ . كل شيء تم إنجازه يدوياً ، حتى الصواميل . هذا يعني أن على العين أن تكون دائماً

مفتوحة! إنها تحتاج بعد إلى أن تُصقل وتُصلّب كي تكتمل» .

«آه ، إنه شيء جميل . لم أكن أعلم بذلك» .

ضحك أوغست .

«أتشعر بالخوف ؟ أجل ، إن على المتدرب أن يكون جلداً ، حيث ليس هناك من مُعين . لكنني سأكون هنا وسأقدم لك المساعدة . وعندما ستبدأ العمل يوم الجمعة القادمة أكون أنا قد أنهيت بالضبط السنة الثانية من تعليمي وسأستلم يوم الأحد أجرتي الأسبوعية الأولى . يوم الأحد سأقيم احتفالاً تدور فيه كؤوس البيرة والكاتو وكل شيء ، وأنت أيضاً مدعو ، وسترى بنفسك كيف تجري الأمور عندنا ، أجل ، سترى! عموماً ، نحن كنا في السابق صديقين حميمين» .

أثناء تناول الطعام أخبر هانز والده بأنه يرغب في العمل كميكانيكي ، وسأل إن كان بمقدوره بدء العمل بعد ثمانية أيام .

«إذن ، جيد» قال البابا ، وذهب بعد الظهر مع هانز إلى ورشة التعليم وسجله هناك .

ولكن ، حينما بدأ الليل ينسج خيوطه المظلمة ، نسي هانز كل شيء ، وأخذ لا يفكر إلا بانتظار أيما له عند المساء . من الآن بدأت أنفاسه تحتبس ، وبدت له ساعات الانتظار مرة طويلة ، وأخرى في غاية الاقتراب ، وترك أمر اللقاء ينساب مثل ملاّح سفينة يواجه ريحاً عاتية ، ناهيك عن طعام عشاء هذا المساء الذي لم ينزل منه في جوفه حتى ولا كوباً من الحليب . ثم خرج . كل شيء كان مثل الأمس – شوارع مظلمة ، غافية ، نافذة حمراء ، ومضات قنديل وحبيبان يتفسحان بهدوء .

عند سياج حديقة الاسكافي داهمه قلق شديد ، كان يرتعد لأدنى صوت ، وبدا بوقوفه وتنصته كاللص المختفي في الظلام . لم تمرّ على انتظاره غير دقيقة واحدة حتى ظهرت أمامه أيما ، مدّت بيدها فوق

شعره ، وفتحت له باب الحديقة . دخل بحذر ، وسحبته معها بهدوء خلال الممشى المحاط بالشجيرات ، ثم اجتاز الباب الخلفي باتجاه مدخل البيت المظلم .

جلسا هناك على دكّة القبو العليا جنباً إلى جنب ، مرّت فترة من الوقت حتى استطاعا في الظلام أن يتعرفا على ما هو ضروري من شكليهما . كانت الفتاة في مزاج رائق ، وانطلقت تتسامر هامسة بلا توقف . كانت لديها ثمة سوابق في فن القبل ، وأصبحت خبيرة في شؤون الحب : كان الصبي الخجول الرقيق أفضل حقل للتجربة . تناولت وجهه النحيل بكلتا يديها وانهالت عليه تقبل جبهته ، عينيه ، ووجنتيه ، وعندما جاء دور الفم واندفعت إليه ترتشف بقبلة طويلة ، أصيب الصبي بدوار مفاجئ جعله ينطرح متكئاً عليها بلا إرادة . ضحكت بصوت خافت وشدّت على أذنه . كانت تتحدث بلا انقطاع ، وكان هو يصغي ولا يدري ما الذي يستمع إليه ، مررت يدها على ذراعه وشعره وعنقه ويديه ، مالت بخدها على خده ورأسها على كتفه . صمت هادئاً واستسلم لكل ما يحدث . تملؤه رعشة لذيذة وشوق عميق فرح ، ومن حين لآخر كانت تسري في جسده قشعريرة رقيقة شبيهة بتلك التي تحدث أثناء الحمى .

« أي كنز ثمين أنت! » ضحكت « إنك لا تجرؤ إطلاقاً » ثم تناولت يده وساحت بها مع يدها فوق قفاها وخلال شعرها ثم وضعتها فوق صدرها وضغطت عليه . أحسّ بالكتلة الطرية ، والاختلاج اللذيذ الغريب ، أغمض عينيه وشعر بنفسه تغوص في هوّة عميقة لا قرار لها .

« كلا ، يكفي! » قال معترضاً حينما أرادت أن تقبله ثانية ، ضحكت . جذبته إليها وضغطت جنبه على جنبها ، طوقته بذراعيها ، وحينما شعر بجسدها فقد عقله ولم يستطع أن يتفوه بكلمة واحدة .

« أتحبني حقاً ؟ » سألت .

أراد أن يقول نعم ، لكنه لم يستطع غير أن يومئ برأسه ، واستمر

يومئ لفترة من الوقت .

تناولت يده مرة أخرى ودستها مازحة تحت مشدّ نهديها . وحيث أحسّ بذاك النبض المتدفق والأنفاس الحارة للجسد الغريب القريب ، اضطرب خفقان قلبه ، وظن أنه ميت لا محالة . بسبب ضيق تنفسه . سحب يده وتنهّد : «يجب أن أعود الآن إلى البيت» .

عندما أراد النهوض أخذ يترنح ، وكان على قيد شعرة من السقوط في القبو .

«ماذا بك ؟» سألت أيما مندهشة .

«لا أدري ، إني متعب جداً» .

لم يشعر بأنها كانت تسنده خلال الطريق إلى سياج الحديقة وتلتصق به ، ولم يسمعها حينما تمنت له ليلة سعيدة وأغلقت خلفه الباب الصغير . سار باتجاه البيت عبر الشوارع ولا يدري كيف ، وكأن عاصفة اكتسحتها معه أو أن تياراً عنيفاً يدفعه متأرجحاً .

شاهد البيوت الشاحبة التي على اليمين والشمال ، وفي الأعالي ظهرت له الجبال وقمم أشجار الصنوبر وحلكة الليل والنجوم الكبيرة الساكنة . شعر بهفهفة الريح ، وسمع هدير النهر عند قوائم الجسر ، وشاهد على صفحة الماء انعكاس الحدائق والبيوت الذوابة وظلمة الليل والقناديل والنجوم .

ارتأى أن يجلس فوق الجسر ؛ كان في غاية الانهاك ، وحسب أنه لن يصل إلى البيت أبداً . جلس على إفريز الجسر ، أصغى لصوت الماء المتدفق على القوائم ورذاذه عند السد وموسيقاه عند طرف الطاحونة . كانت يداه باردتين ، ودمه يغلي ويندفع متقطعاً بشدة في صدره وبلعومه ويغشي عينيه ، ثم ليسرع في موجة مفاجئة إلى قلبه ويجعل رأسه في دوار تام .

وصل إلى البيت ، وعثر على حجرته ، واستلقى على السرير وغفا

على الفـور ، رأى في الحلم بأنه يسـقط في هوّة بعـد أخـرى ، خـلال حـجرات مـخيفـة . استـيقظ عند منتـصف الليل معـذباً ، منهكاً وظل مستلقياً حتى الصباح بين اليقظة والمنام ، يعاني من لوعة كئيبة النفس ، تتقاذفه هنا وهناك قوى شريرة لا حول له عليها ، حتى انفجر ألمه وعذابه عند بزوغ خيوط الفجر الأولى إلى نشيج طويل ، فنام مرة أخرى على وسادته المبلّلة بالدموع .

الفصل السابع

كان السيد جيبنرات يشتغل بكبرياء وجلبة عند معصرة النبيذ ، وهانز يساعده . لبى الدعوة اثنان من أطفال الاسكافي ، كانا يعملان بالفاكهة ، ويوزعان كأساً صغيرة من نبيذ التجربة ، ويحملان في أيديهما كمية كبيرة من الخبز الأسمر .

لكن أيما لم تأت معهما . ولم يتجرأ هانز أن يستفسر عنها إلا بعد أن ذهب والده مع صانع البراميل وغاب لمدة نصف ساعة .

« أين أيما ؟ ألم تستطع المجيء ؟ »

مرَ بعض الوقت حتى فرغ فما الصغيرين من الطعام واستطاعا أن يتكلما .

« لقد ذهبت » قالا ذلك وأومآ برأسيهما .

« ذهبت ، إلى أين ؟ »

« إلى بيتها »

« رحلت ؟ بالقطار ؟ »

أومأ الطفلان بحماس .

« صباح هذا اليوم »

مدّ الصغيران يديهما مرة أخرى إلى تفاحتيهما . ضغط هانز على المعصرة ، وثبت بصره على دلاء النبيذ وبدأ يستوعب الأمر تدريجياً . عاد الأب ، واستمر العمل والضحك ، ثم غادر الطفلان بعد أن عبرا عن شكرهما ، وأثناء ذلك حلّ المساء وذهب الجميع إلى بيوتهم .

بعد العشاء ذهب هانز إلى حجرته وجلس فيها وحيداً ..ظل مستيقظاً حتى الساعة العاشرة ثم الحادية عشرة ولم يطفئ الضوء . بعد ذلك استغرق في نوم طويل عميق . حينما أفاق متأخراً أكثر من المعتاد تملكه شعور مبهم بالخيبة والضياع ، حتى خطرت أيما في ذاكرته مرة أخرى . لقد رحلت دون تحية أو كلمة وداع ؛ كانت بلا شك تعلم برحيلها حينما كان عندها مساء اليوم الأخير . وتذكر ضحكتها وقبلاتها وعطاءها الزاخر . من المؤكد أنها لم تنظر إليه نظرة جدية ، ومن شدة غضبه تحولت حيرة غرامه العليل الملتاع إلى عذاب سوداوي دفعه للخروج إلى الحديقة ثم إلى الشارع ونحو الغابة ثم عاد بعد ذلك مرة أخرى إلى البيت .

هكذا ذاق ، ربما مبكراً ، نصيبه من أسرار الحب الذي تفوقت مرارته كثيراً على حلاوته . كانت أياماً مليئة بالمناجاة العقيمة ، ذكريات مشوّقة ، تأملات موحشة ؛ ليال لا تدعه فيها نبضات القلب وضيق التنفس أن يخلد إلى النوم أو أنها تنقله إلى أحلام مخيفة . أحلام تتحول فيها ثورة دمه الغامضة إلى صور أسطورية مخيفة ، مرعبة ، إلى أياد مميتة خانقة ، إلى حيوانات خرافية ذات عيون نارية ، إلى دوامات مدوّخة ، إلى عيون متأججة باللهب ، ثم استيقظ ووجد نفسه وحيداً ، تحفه وحشة ليالي الخريف الباردة : يعاني من شدة الشوق إلى فتاته ، ضاغطاً رأسه بأنين على وسادته التي أنهكها البكاء المرير .

أخذ موعد ذهابه يوم الجمعة إلى ورشة الميكانيك يقترب . اشترى له الأب بذلة من الكتان الأزرق وطاقية زرقاء من الصوف المخلوط ، جرّب ارتداءها وبدا في طقم القفّال مضحكاً نوعاً ما . كان يشعر

بالكآبة كلما مرّ من أمام المدرسة ، بيت الناظر ومدرس الحساب ، ورشة فلايغ أو بيت قس البلدة . أحقاً أن كل هذا الإصرار والسعي والمثابرة ، وكل هذه التضحيات بالمسرّات الصغيرة ، وكل هذا الاعتداد بالنفس والطموح والأحلام السعيدة قد ذهبت سدى ؟ أبعد كل هذا ثم يأتي زملاؤه ليسخروا منه الآن وفيم بعد حينما سيعمل كمتدرب في ورشة الحدادة ؟ .

ما الذي سيقوله هايلنر لو رآه الآن ؟

أخذ يألف بذلة العمل الزرقاء شيئاً فشيئاً وينتظر بفرح يوم الجمعة الذي سيدشن فيه العمل . على الأقل سيكون بانتظاره ثمة حدث يمكن معايشته!

غير أن هذه الأفكار لم تكن أكثر من وميض برق سريع لكتلة غيوم سوداء . لم ينس رحيل الفتاة ، ولم يهدأ فوران دمه أو يتجاوز ولو قليلاً إثارات هذه الأيام ، بل على العكس زادت اندفاعاً وقوة من أجل خلاص شوقه المستنفر . وهكذا كان الوقت يمضي بكآبة وعذاب بطيء .

كان الخريف أجمل من ذي قبل ، شمس وفيرة وعذبة ، فجر فضي ، ظهيرة زاهية ، مشرقة وأمسيات رائقة . اكتست الجبال البعيدة بلون أزرق داكن شامل ، أشجار الكستناء كانت تلتمع بلون ذهبي أصفر ، وأوراق الكروم البرية تتدلى أرجوانية عبر الأسوار والأسيجة .

كان هانز يهرب قلقاً من نفسه . يتجول أثناء النهار في البلدة وخلال الحقول ويتفادى الناس لاعتقاده بأنهم على علم بآلام حبه . يخرج إلى الشارع مساءً ، يتطلع في وجه أية خادمة ، ويجري وراء كل حبيبين بتأنيب ضمير . مع أيما كان كل شيء يدعو إلى الاشتهاء والرغبة ، وكل سحر الحياة كان في متناول يده ، والآن يهرب منه بشكل مخادع ، لم يعد يفكر بالألم والخوف اللذين كان يحس بهما حينما يكون معها . فكّر لو أنه الآن معها لما خجل منها ، وإنما لانتزع منها كل الأسرار وقادها إلى حديقة الحب المنشود التي أغلق بابها الآن

أمامه .

لقد دسّ كل خياله في هذا الدغل الشهواني الخطير ، وتاه في داخله يائساً ، وبألم ذاتي عنيد لا يريد أن يعرف أن خارج هذه الدائرة السحرية الضيقة هناك فضاءات جميلة شاسعة ، مشرقة وأليفة .

أخيراً بدا عليه السرور حينما حلّ يوم الجمعة المنتظر . ارتدى في الصباح الباكر بذلة العمل الزرقاء الجديدة ووضع الطاقية على رأسه ثم نزل متهيباً بعض الشيء إلى شارع المدبغة متجهاً نحو ورشة التعليم . أخذ بعض المعارف يتطلعون إليه بفضول ، حتى أن أحدهم تساءل : « ما الأمر ، هل أصبحت قفّالاً ؟ » كان العمل في الورشة يجري بشكل لطيف . في تلك اللحظة كان الأسطة يعمل على طرق الحديد . كان يضع قطعة حديد حمراء ساخنة على السندان ، فيما أحد المتدربين يعمل بالمطرقة ، والأسطة ينظم طرقات الصقل والتشكيل ، يدير الملقط ويطرق أثناء ذلك بمطرقة الحدادة على السندان طرقات إيقاعية ترنّ عبر الباب المُشرع إلى الصباح المشرق البهيج .

عند منضدة العمل الطويلة التي سوّدها الزيت وبرادة الحديد يقف أقدم المتدربين وبجانبه أوغست . كان كل واحد منهما منهمكاً في مَنْجَله . وعلى سطح المنضدة كانت تسمع وشوشة الأحزمة التي تدير المخارط بواسطة الطاقة المائية . أومأ أوغست إلى زميله الداخل ، مشيراً إليه أن ينتظر عند الباب إلى أن يتوفر الوقت للأسطة لمحادثته .

تطلّع هانز بتردد إلى الكور ، المخارط المتوقفة عن الحركة ، الأحزمة الموشوشة وتروس الداينمو . وعندما انتهى الأسطة من حدادة قطعته ، ذهب إلى الجانب الآخر ومدّ صوب هانز يداً كبيرة ، خشنة وحارة .

« علّق طاقيتك هناك » قال ذلك وأشار إلى مسمار شاغر على الحائط .

«تعال معي . هناك سيكون موقعك ومَنْجَلتك» .ثم قاده إلى أمام المنجلة الخلفية وشرح له كيفية التعامل معها ، والحفاظ على منضدة العمل وجميع المعدات الأخرى بشكل منظّم .

«لقد ذكر لي والدك بأنك لست هرقلاً ، وهذا ما تبدو عليه حقاً . والآن دع عنك موضوع الحدادة حتى يشتد قليلاً عودك» . مدّ الأسطة يده تحت منضدة العمل وأخرج ترساً صغيراً من الحديد الصلب .

«بهذا يمكنك الآن أن تبدأ . إن العجلة لا زالت خشنة من السباكة ، وفيها الكثير من الانحناءات والنتوءات التي يجب أن تسوّى وإلا اتلفت فيما بعد الآلات الصالحة» .

ثبت العجلة في المنجلة ثم تناول مبرداً قديماً وأخذ يعمل عليها مبيناً لهانز كيفية العمل . «هكذا ، والآن عليك تكملة بقية العمل . ولكن يجب أن لا تطلب مني مبرداً آخر! لديك حتى الظهر ما يكفي من الوقت لإنجاز هذا العمل ، بعد ذلك دعني أطّلع عليه . كذلك عليك أثناء العمل أن لا تشغل نفسك إطلاقاً بأكثر مما يُراد منك . المتدرب يجب أن لا تشغله الأفكار» .

«توقف! » صاح الأسطة «ما هكذا . اليد اليسرى ينبغي أن توضع على المبرد . أم أنك أعْسَر ؟ » .

«كلا» .

«هذا جيد . إذن كل شيء على ما يرام» .

ثم ذهب الأسطة إلى منجلته الأولى عند الباب وهانز يتابعه بنظراته حتى وصل إلى هناك .

أثناء الحركات الأولى دُهش هانز من نعومة العجلة وسهولة العمل . وجد أن الطبقة العليا المؤلفة من الصب الهش السائب المتقشر والحديد المحبب الذي يجيء تحتها مباشرة هي التي يجب أن تصقل . استجمع قواه وبدأ العمل بحماس شديد . لم يتذوق مثل هذه المتعة منذ أيام

ألعاب الطفولة الماضية ، وها هو الآن تحت يده ثمة ما هو حقيقي ومفيد .

« تمهّل! » صاح الأسطة من هناك « عند البرادة يجب على المرء أن يلتزم بالإيقاع ، واحد اثنان ، واحد اثنان ، ثم اضغط وإلا انكسر المبرد » .

لم يستطع هانز إلا أن يرفع بصره وينظر إلى منضدة العمل التي يعمل عليها أكبر المتدربين . كان لديه شيء ما على المنضدة : ركَّب سداداً من الفولاذ في الترس ، تحركت الأحزمة ، وأزّ السداد ملتمعاً وأخذ يدور فيما انتزع المتدرب سلخة رفيعة متوهجة .

كانت هناك أدوات كثيرة منتشرة في كل مكان : قطع من الحديد ، فولاذ وسبائك ، مواد نصف منجزة ، عجلات صغيرة صقيلة ، منقاش ومثقب ، مناقيش لولبية ومخارز مختلفة الأشكال ، وإلى جانب الكور علقت المطارق الحديدية ومطارق الرصف ، قواعد سنادين ، ملاقط وقضبان اللحام ، وعلى طول الجدار صفت سلسلة من المبارد والمخارط ، وعلى الأرض مجموعة من الخرق الدهنية ، فرش صغيرة ، ورق تنعيم ، مناشير فولاذية ، وهنا وهناك أباريق الزيت ، قناني حفظ الحوامض ، علب المسامير والبريمة ، وكان حجر الجلخ يستخدم في كل لحظة .

أدرك هانز أن يديه قد أصبحتا سوداوين تماماً ، وتوقع أيضاً بقرب اتساخ بذلته ، حيث شكلها الأزرق الجديد يبدو مضحكاً جنب بدلات عمل المتدربين الآخرين السوداء المبقعة بالدهن .

كلما كان الضحى يتقدم ، كلما توغلت الحياة الخارجية أكثر داخل الورشة . جاء بعض العمال من معمل الخياطة المجاور لبرد أو إصلاح أجزاء صغيرة من المكائن . وجاء فلاح يسأل عن ماكنة غسيله التي تركها هنا لإجراء عملية لحم عليها ، فأخذ يسبّ ويلعن عندما علم أنها لم تُصلح بعد . ثم جاء صاحب مصنع أنيق الملبس ، انتحى به الأسطة إلى غرفة مجاورة . إلى جانب وأثناء ذلك كان العمل جارياً جنباً إلى

جنب من قبل الناس والعجلات والأحزمة ، وهكذا شعر هانز واستوعب لأول مرة في حياته نشيد العمل الذي يشكل على الأقل بالنسبة للمبتدئ شيئاً من الإثارة والافتنان الممتع ، ووجد أن كيانه الصغير وحياته البسيطة تتخذان إيقاعاً أكبر .

عندما آن أوان استراحة العمل الصباحية التي تستغرق ربع ساعة ، استلم كل متدرب قطعة من الخبز وقدح عصير . الآن فقط أصبح بوسع أوغست أن يحيّي المتدرب الجديد . تحدث إليه محاولاً إقناعه وإثارة الحماس فيه بشأن يوم الأحد القادم الذي سيحتفل به مع زملائه بمناسبة أول راتب يتقاضاه ، سأل هانز عن نوع الترس الذي يقوم ببرده ، وعلم بأنه يعود إلى ساعة البرج . وقبل أن يشرح له أوغست كيفية دوران الترس فيما بعد بدأ المتدرب الأول بعملية الصقل ثانية وسارع الجميع إلى مواقع عملهم مرة أخرى .

حينما قارب الوقت بين العاشرة والحادية عشرة بدا على هانز التعب ؛ كانت ركبتاه وذراعه الأيمن تؤلمه بعض الشيء . أخذ يقف على قدم واحدة ثم يستبدلها بالأخرى ، ويمطي أطرافه خفية ولكن لم يسعفه كل ذلك ، عندئذ أزاح المبرد جانباً واتكأ على المنجلة . لم يره أحد . وعندما توقف عن العمل ليستريح وأخذ يسمع صوت الأحزمة من فوقه سرى في جسده خدر رقيق جعله يغمض عينيه لفترة قصيرة من الوقت . وفي الحال لم يجد إلا والأسطة واقفاً خلفه .

« والآن ، ماذا هناك ؟ هل تعبت ؟ »

« أجل ، قليلاً » اعترف هانز .

ضحك المتدربون .

« هذا ما يحدث أحياناً » قال الأسطة بصوت هادئ « الآن باستطاعتك أن ترى أخيراً كيف تتم عملية اللّحام ، تعال! »

تطلّع هانز بفضول لعملية اللحام . بداية يُسخن القضيب ويلصق

الموضع الذي يراد لحمه بالصودا الكاوية ، حيث يتقطر من القضيب الساخن الماء المعدني الأبيض الذي يئز بشكل لطيف .

«خذ قطعة قماش وامسح هذه المادة جيداً . إن سائل اللحام مادة كاوية ولا يُسمح بوضعها على أي معدن» .

عاد هانز مرة أخرى إلى منجلته وأخذ يبرد الترس الصغير . آلمته يده ، واحمرّ وجهه وبدأ يتألم .

عند الظهر ، حينما وضع أقدم المتدربين مبرده جانباً وراح ليغسل يديه ، جاء هانز بترسه إلى الأسطة . نظر الأسطة إلى عمله نظرة سريعة .

«إنه عمل سليم ، يمكن أن يعوّل عليه هكذا . عند موقعك توجد علبة في داخلها ترس آخر مثل هذا يمكنك أن تعمل عليه لفترة بعد الظهر» .

غسل هانز يديه هو الآخر وخرج . كانت لديه استراحة الغداء ومدتها ساعة واحدة . حينما كان يسير في الشارع وجد أن اثنين من أولاد التجار من زملاء دراسته القدامى يجريان خلفه ويتندران عليه . قال أحدهما : «العامل القفّال من تلاميذ امتحان المقاطعة» .

أخذ يحث الخطى . لا يدري إن كان حقاً مسروراً أم لا ؛ لقد راق له العمل في الورشة كثيراً ، عدا شعوره بالتعب ، هذا التعب الذي لا خلاص منه .

إن كان عند المنزل أو أثناء جلوسه فرحاً لتناول الطعام ، كانت أيما تقفز في ذاكرته فجأة . كان قد نسيها طيلة فترة ما قبل الظهر . صعد بهدوء إلى حجرته ، ألقى بنفسه فوق السرير وبدأ يئن من العذاب . أراد أن يبكي ، لكن عينيه بقيتا خاليتان من الدموع . بلا أمل وجد نفسه يستسلم إلى الشوق الملتهب ، كان رأسه يعصف به مؤلماً ، وحنجرته توجعه من جراء النشيج الخانق .

لم يكن طعام الغداء الا عذاباً . كان عليه أن لا يعارض أحاديث الأب وعليه أن يتحدث ويبدي إعجابه بجميع أنواع النكات إرضاءً للبابا لأنه في حالة مزاجية رائقة . لم يكد ينتهي من تناول الطعام حتى خرج إلى الحديقة وأمضى ربع ساعة تحت الشمس شبه حالم ، ثم حلّ وقت عودته إلى الورشة ثانية .

منذ قبل الظهر بدت على يديه تورمات حمراء ، أخذت تؤلمه الآن جدياً ، وفي المساء اشتدت هذه الأورام بحيث أنه ما أن يلمسها حتى تسبب له آلاماً مبرحة . كان عليه قبل انتهاء العمل أن ينظف الورشة حسب تعليمات أوغست .

كان يوم السبت أكثر تعاسة . أخذت يداه تحرقانه بشدة ، وتحولت الأورام إلى انتفاخات . كان مزاج الأسطة سيئاً ، يلعن ويشتم لأدنى سبب . طمأنه أوغست وأخبره بأن هذه الأورام لا تستمر سوى بضعة أيام ، ثم يكتسب المرء بعدها يدين خشنتين ولا يعود يحس بالألم ، لكن هانز كان يشعر بكآبة قاتلة ، يتطلع طول الوقت إلى الساعة وهو يحك ترسه الصغير .

في المساء وأثناء تنظيف وترتيب الورشة أخبره أوغست هامساً بأنه سيخرج يوم غدٍ مع بعض الزملاء إلى « بيلاخ » للقيام بنزهة ممتعة ، وينبغي أن يكون هو أيضاً معهم في كل الأحوال . أخبره بأنه سيمرّ عليه في الساعة الثانية . وافق هانز على ذلك رغم أنه كان يود أن يبقى في البيت طوال يوم الأحد بسبب ما كان يعانيه من شقاء وإنهاك . في البيت عالجت العجوز « آنا » جروح يديه بواسطة المرهم ، ثم ذهب إلى سريره في الساعة الثامنة واستغرق في النوم حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي ، حيث كان عليه أن يعجل بالذهاب مع أبيه إلى الكنيسة .

تحدث هانز أثناء الغداء عن أوغست ورغبته في الذهاب معه في نزهة إلى الخارج . لم يعترض الأب على ذلك ، ومنحه خمسين فينيكاً ، وطلب منه أن يعود إلى البيت عند حلول موعد تناول العشاء .

حينما راح هانز يسير خلال الشوارع وتحت الشمس الجميلة بخطى وئيدة ، أحسَّ وكأنه يستعيد للمرة الأولى متعة يوم الأحد التي افتقدها منذ أشهر عديدة . كان الشارع أكثر بهجة ، والشمس أكثر إشراقاً ، وكل شيء أكثر احتفالاً وجمالاً ، وبالذات حينما يخلف المرء وراءه أيام عمل سوّدت الأيدي وأنهكت أعضاء الجسم . الآن فقط بات بميسوره أن يستوعب ماهية القصاب والدباغ والخباز والحداد الذين كانوا يجلسون فرحين أمام بيوتهم على مصاطب مُشْمِسة ، ولم يعد ينظر إليهم كرعاع بؤساء . تطلّع إلى العمال والمتدربين والمساعدين الذين كانوا يتمشون في طوابير أو الذاهبين إلى دور الاستراحة ، وتطلّع إلى القبعات المائلة والياقات البيضاء وملابس يوم الأحد النظيفة ، أحياناً ، إن لم يكن دائماً يذهب العمال اليدويون كل مع نظرائه ، النجار مع النجارين ، البناء مع البنائين ، يتضامنون فيما بينهم ، ويذودون عن شرف مقامهم ، ومن ضمنهم كان القفالون ، الرابطة المحترمة ، وفي مقدمتهم عمال الميكانيك . كل ذلك كان يبعث على الثقة ، وإذا ما ظهر أحياناً بعض ما هو ساذج أو مضحك فإنه بالتأكيد يختفي وراء جمال كبرياء العمل اليدوي الذي لا يزال حتى اليوم يقدم السعادة والعطاء اللذين يمكن لمتدرب الخياطة البسيط أن ينال منهما شعاعاً صغيراً .

عندما يقف الميكانيكيون الشباب أمام ورشة التدريب بهدوء وكبرياء ، ثم يمرون من أمامها ويحيونها بإيماءة من رؤوسهم وهم يتحدثون فيما بينهم ، حينئذ يمكن للمرء أن يرى بوضوح كيف أنهم يؤلفون رابطة وثيقة العرى ، وأنهم ليسوا غرباء طارئين ، حتى في يوم الأحد أثناء التنزه .

وهانز كان يشعر بذات الشعور ، وكان يسره أن ينتمي إليهم . بيد أنه كان يشعر ببعض التردد فيما يتعلق برحلة يوم الأحد التي تم التخطيط لها ، لعلمه أن عمال الميكانيك كانوا أكثر اندفاعاً نحو الحياة ويحتفلون بشكل صاخب وزاخر . ربما سيرقصون ، وهانز لا يعرف

الرقص ، وخطر في ذهنه أنه ربما من أجل اختبار قابلياته الرجولية يخشى أن يغامر عند الضرورة ويتناول كمية كبيرة من الكحول .لم يكن معتاداً على الإفراط في تناول البيرة ، وأما التدخين فقد حاول جاهداً أن لا يتجاوز أكثر من سيكارة واحدة ، يدخنها في حذر ، تجنباً للإهانة والمشاكل .

حيّاه أوغست بسرور احتفالي . أخبره أن أقدم العمال المساعدين لن يأتي ، وبدلاً منه جاء زميل من ورشة أخرى لكي يصبح عددهم في الأقل أربعة ، وهذا ما يكفي لتجوالهم في جميع أنحاء القرية . كان بمقدور الجميع أن يحتسي ما يشاء من البيرة ، لأنها على حساب أوغست . قدّم لهانز سيكارة ، وتهيأ الأربعة للتحرك ، ساروا ببطء وزهو واعتداد عبر البلدة ولم يبدؤوا بالسير سريعاً إلا في الأسفل ، عند ساحة الزيزفون حتى يصلوا إلى بيلاخ في الوقت المناسب .

كانت صفحة النهر تتلألأ زرقاء ذهبية وبيضاء ، وخلال أشجار الأسفنديان والأكاسيا الجرداء تقريباً ، المنتشرة على جانبي الطرق كانت تنخفض شيئاً فشيئاً حرارة شمس أكتوبر الناعسة ، كانت السماء العالية زرقاء صافية خالية من الغيوم . كان يوماً من أيام الخريف الهادئة الصافية البهيجة التي تملأ بالهواء النقي كل ما هو جميل من الصيف الماضي مثل ذكرى باسمة لا تحمل من الكآبة والهموم شيئاً ، يوم ينسى فيه الأطفال موسم السنة الماضي فيذهبون للبحث عن الأزهار ، وفيه يتطلع الطاعنون في السن خلال الهواء بعيون متأملة من النوافذ أو المصطبات التي أمام منازلهم ، ذلك لأن الذكريات المفرحة لا تتمثل لهم من خلال عام واحد وحسب ، وإنما ترفرف من خلال مسيرة حياتهم برمتها في السماء الزرقاء الرائقة . غير أن الشباب أصحاب طرب ومزاج يتمتعون بأيامهم الجميلة كل حسب طبيعته وما يجود به إن كان بتقديمه الشراب أو الأضاحي أو الغناء والرقص أو إقامة مأدبة شراب أو الدخول في معركة طاحنة ، وخلال هذه الأيام كان يتم صنع الكاتو المطعّم بالفواكه ، ويترك عصير التفاح أو العنب الطازج في الأقبية

ليتخمر ، ويُحتفل أمام دور الاستراحة وفي ساحات أشجار الزيزفون بأواخر أيام العام الجميلة بالعزف على الكمان والهارمونيكا ، وتقام مهرجانات الرقص والغناء وتمارس الألعاب الشعبية المحببة .

أخذ الفتيان يمرحون على سجيتهم . كان هانز يدخن سيكارته بلا مبالاة ، ودهش من أثرها المريح على نفسه . تحدث العامل المساعد عن تجواله ، ولم يستأ أحد من نتيجة تبجحه وتفاخره ؛ كان ذلك من مقتضيات الذوق الرفيع . ثم إن أبسط المتدربين حينما يجلس إلي رفاقه ويكون مطمئناً إلى شهود العيان فإنه يتحدث عن أيام تجواله بأسلوب فخم أنيق ، بل وأسطوري . ذلك أن تراث حياة الصبية العمال اليدويين الرائع هو نتاج الشعب المشترك . يأتي كل واحد منهم ويزخرف المغامرات التقليدية القديمة بزخارف جديدة ، وكل جوّال حينما يتعرض لسرد حكاية ما فإنه يحمل في داخله جزءاً من مهرج أزلي وجزءاً آخر من متشرد أزلي .

« قبل هذا ، حينما كنت في فرانكفورت ، يا للعنة ، أيّ حياة جافة كانت هناك! لم أكن قد حدثتكم عن ذلك إطلاقاً ، فحينما أراد تاجر ثري ، قرد متملق ، الزواج من ابنة رئيسي ، ردته على أعقابه ، لأني كنت حبيبها رقم واحد وظلت معي لمدة أربعة أشهر ، ولو لم أكن آنذاك قد تشاجرت مع العجوز الهرم ، لكنت الآن أجلس هناك كزوج لابنته » .

استمر يتحدث وذكر كيف أراد رئيسه ، ابن العاهرة أن يعتدي عليه ، هو البائع الطيب المسكين ، حينما تجرأ ذات مرة ورفع يده عليه ، عندئذ لم يرد عليه بأدنى كلمة ، وإنما لوّح له بالمطرقة الحديدية فقط وأخذ يخرزه في وجهه ، لكن هذا غادر بهدوء تام لأنه لا يريد أن يفقد جمجمته . فأرسل إليه بعد ذلك كتاباً خطياً بفصله . . . الحقير ، التافه . ثم تحدث عن معركة كبرى وقعت في « أوفنبورغ » ، حيث اشتبكوا وكانوا ثلاثة قفالين ، وهو من ضمنهم مع سبعة من أرباب المصانع وضربوهم ضرباً مميتاً - ومن يذهب إلى « أوفنبورغ » لا يحتاج

إلا أن يسأل شوراش الطويل الذي كان آنذاك شاهداً على المعركة .

كل هذا كـان يرويه بصوت أجش - بارد ، لكنه مليء بالحماس والتلذذ الكامن ، وكان الكل يصغي بمتعة عميقة ، وكل واحد منهم يأمل في قرارة نفسه أن تتسنى له الفرصة ذات يوم هو أيضاً ويروي هذه الروايات في مناسبة أخرى ولدى زملاء آخرين . ذلك أن كل قفال كان قد وقع مرة في حب ابنة رئيسه ، ورفع المطرقة في وجهه الشرير ، وترك العمل ، وضرب سبعة من أرباب المصانع ضرباً مميتاً ، أحياناً كانت الرواية تدور في بادن وأخرى في هيس أو سويسرا ، ومرة يحلّ فيها المبرد أو قطعة حديد ملتهبة محل المطرقة ، ويكون فيها الخبّاز أو الخياط بدل صاحب المصنع ، لكنها في الواقع نفس الحكايات القديمة التي تستحق السماع مرة أخرى لأنها قديمة وممتعة وتضفي على الجماعة شيئاً من الشهرة والافتخار . من يجرؤ على القول بأنه لا يوجد دائماً وحتى اليوم أيضاً بين الصبية الجوالين من هو نابغة في التمثيل أو نابغة في فن الاختلاق ؟ وكلتا الحالتين تعنيان في الأساس شيئاً واحداً .

بشكل خاص كانت تبدو على أوغست النشوة والاستمتاع وهو يصغي إلى هذه الروايات . كان يضحك بشكل متواصل ويؤيد موافقاً ، كان يحس بنفسه وقد أصبح شبه عامل مساعد ، ينفث دخان سيكارته في الهواء الذهبي بمتعة وخيلاء . واصل الراوية لعب دوره ، وكان عليه أن يعبّر عن وجوده من خلال ذلك ويكسب امتنانهم ، لأنه عامل مساعد ولا ينتمي في الحقيقة لمجموعة المتدربين الذين يستمتعون بيوم الأحد . وكان عليه أن يخجل من مشاركته الصبي في بعثرة نقوده على الخمر .

قطعوا مسافة لابأس بها من الطريق العام الزراعي الممتد مع مجرى النهر ؛ الآن لا بد لهم من الاختيار بين الشارع المروري الرئيسي الذي يرتفع إلى الأعلى بشكل قوس هادئ وبين طريق المشاة الوعر الذي يختصر المسافة إلى النصف . أخيراً اتخذوا الشارع المروري رغم مسافته الطويلة وكثرة الغبار فيه . كانت طرق المشاة تستخدم لأيام العمل

والتمشي ؛ لكن عامة الناس كانوا يفضلون الطريق الزراعي العام الذي لم يفقد شاعريته بعد ، خاصة في أيام الآحاد . إن طرق المشاة الوعرة يسلكها الفلاحون ومحبو الطبيعة من سكان المدينة ، وتستخدم إما للذهاب إلى العمل أو للرياضة ، وليس للمتعة أو التنزه . وعلى العكس من ذلك كان الطريق الزراعي العام ، حيث يشعر المرء فيه بالمتعة والانشراح وتتبادل فيه الأحاديث ويراعى ارتداء الجزمة وبذلة يوم الأحد ، والالتقاء بمتنزهين آخرين واستقبالهم ومقابلة فتيات متبرجات ، ومجاميع فتيان مغنين ، وإلقاء النكتة والرد عليها ، والتوقف أثناء الطريق والثرثرة ، وفي حالات الخلوة الجري والضحك وراء أسراب الفتيات ، وحيث بوسع المرء أن يمضي المساء مع زملائه والكشف عن الفوارق الشخصية والسعي لإلغائها من خلال ما يقوم به من فعاليات ونشاطات! .

وهكذا ساروا في الشارع المروري الذي يرتفع بهدوء مفرح على شكل قوس كبيرة إلى الأعلى . وكما لو أن لديه متسعاً من الوقت ويود أن يتفادى تصبب العرق منه خلع العامل المساعد سترته وعلقها بواسطة عصا خلف كتفه وأخذ يصفّر بأسلوب جريء بدا أنه مستمتع به للغاية وتخلى عن رواية حكاياته المعتادة . استمر يصفر حتى وصلوا بعد ساعة واحدة إلى بيلاخ . تناهت إلى سمع هانز بعض التلميحات اللاذعة التي لم يحفل بها كثيراً ، فيما كان أوغست أكثر منه رداً عليها . الآن هم أمام بيلاخ .

كانت القرية ذات السقوف القرميدية الحمراء ، وسقوف القش الفضية الرمادية ترقد مبتهلة بين أشجار الفواكه الخريفية الزاهية ، فيما كانت من الخلف تطل عليها الغابة الجبلية السوداء .

لم يستطع الشباب الاتفاق على النزل الذي ينبغي الاستراحة فيه . كان «الأنكر» لديه أفضل أنواع البيرة ، و«الشفان» أفضل الكاتو ، ولدى صاحب «شارفة أكة» ابنة جميلة . أخيراً ارتأى أوغست أنه من الأفضل الذهاب إلى «الأنكر» وغمز بطرف عينه إلى «الشارفة أكة»

مشيراً إلى أنه لن يهرب منهم بعد تناول بضعة كؤوس من البيرة ، ويمكن الاهتداء إليه فيما بعد . كانت هذه كل حججهم ، وهكذا ساروا عبر القرية مارين بحظائر الحيوانات ونوافذ الفلاحين الواطئة المزينة بنباتات الجيرانيوم باتجاه «الأنكر» الذي كانت لافتته الذهبية تستدرج الزبائن من بعيد ، متوهجة في الشمس بين شجرتين مكورتين نضرتين من أشجار الكستناء . لسوء الحظ كانت الحانة ممتلئة في الداخل ، حيث الفتيان يودون الجلوس بلا شك ، لذلك اضطروا للجلوس في الحديقة .

كانت «الأنكر» حسب مفهوم روادها حانة جميلة ، أي أنها ليست دار استراحة فلاحين ، وإنما بناء حديث من الآجر ذات نوافذ كثيرة وتحتوي على كراسي بدل المصطبات ومجموعة من لوحات الإعلانات الصفيحية الملونة ، إضافة إلى نادلة أنيقة متحضرة ومالك حانة لم يُشاهد قط يرتدي القميص لوحده ، وإنما دائماً في بذلة بنية حديثة الموضة ، كان هذا المالك في الواقع شخصاً مفلساً ، لكنه كان قد استأجر حانة خاصة به من دائنه الأساسي ، وهو صاحب مصنع بيرة كبير ، وأصبح منذ ذلك الحين من المتعهدين .

كان في الحديقة شجرة أكاسيا وسياج كبير من الأسلاك تغطيه الكروم البرية حتى منتصفه أحياناً .

«أنتِ ، أيتها الجميلة ، لم يبق شيء فيه ؛ هات بكأس أخرى» . نادى النادلة ونحّى كأس البيرة الفارغة بعيداً فوق المائدة . كان مذاق البيرة لذيذاً ، بارداً ، لا تتخلله لذعة كبيرة ، وكان هانز يرتشف من قدحه متذوقاً بمتعة ، وأوغست يحتسي وعلى وجهه تعابير الخبير العارف ، يتلمّض بلسانه ويدخن أثناء ذلك سيكارته مثل موقد خرب ، مما أثار دهشة هانز .

لم يكن من السيئ أن يحظى بيوم أحد مفرح ، ويجلس إلى مائدة الحانة كشخص جدير بذلك ، ويشارك الناس حياتهم ومرحهم . كان جميلاً أن يشاركهم الضحك ، وفي بعض الأحيان المغامرة في إلقاء

نكتة ، وكان جميلاً ورجولياً أن يضرب على المائدة بثقة بعد أن ينتهي من احتساء كأسه وينادي : « بيرة أخرى أيتها النادلة! » وكان جميلاً أن يشرب مع أحد المعارف على مائدة أخرى ، وأن يدع سيكاره المنطفئ متدلياً بين يده اليسرى وأن يُرجع قبعته إلى الخلف كالآخرين .

بدأت الحرارة تدبّ الآن أيضاً بالعامل المساعد الغريب وشرع يروي قصصه ، أورد حكاية قفّال من أولم ، كان يستطيع أن يشرب عشرين قدحاً من البيرة ، بيرة أولم اللذيذة ، وعندما ينتهي من ذلك يمسح فمه ويقول : والآن هاتوا بعد قنينة من النبيذ الجيد! وفي كانشتات تعرف على وقّاد استطاع أن يلتهم اثنتي عشرة قطعة من السجق واحدة بعد الأخرى ، وكسب بذلك رهاناً . لكن رهاناً ثانياً مثل هذا خسره في جولة أخرى . كان هذا الوقّاد قد تجرأ ذات مرة أن يأتي على قائمة طعام حانة صغيرة ، وكاد أن يلتهم كل شيء فيها ، غير أن نهاية القائمة كانت تحتوي على أربعة أصناف من الجبنة ، وأثناء ما كان يلتهم النوع الثالث أبعد الصحن وقال : أفضل الآن الموت على أن أقضم قطعة أخرى! .

كذلك هذه الحكايات وجدت لها وقعاً حسناً بين الفتيان المستمعين ، وفي الوقت ذاته أظهرت أن هنا وهناك على هذه الأرض لا زال يوجد دائماً شرابون وأكالون ، وأن كل فتى من هؤلاء الفتية يستطيع أن يتحدث عن أحد مثل هؤلاء الأبطال وأفعالهم . كان أحدهم يتحدث عن « رجل من شتوتغارد » وآخر عن « أحد الفرسان ، أظنه من لودفيكسبورغ » . وكان عدد القطع عند البعض سبع عشرة قطعة من البطاطس ، وعند آخرين إحدى عشرة فطيرة من البيض مع السلطة . كانت الحكايات تروى بجدية وواقعية وتشير إلى مواهب المعرفة ، حيث أن هناك أنواعاً مختلفة من المواهب الجميلة والناس الخارقين ، من ضمنهم أيضاً المدهشون الغريبو الأطوار . إن هذه القناعة وهذه الموضوعية هما مسألتان تراثيتان قديمتان تسودان كل حياة ضيقة الأفق ويتم تقليدها من قبل الشباب تماماً كالشرب والسياسة والتدخين

والزواج والموت .

عند القدح الثالث تساءل أحدهم عن الكاتو . نودي على النادلة فأخبرتهم بعدم وجوده ، وأصيب الجميع بخيبة أمل . نهض أوغست واقترح الذهاب إلى المحل التالي . غضب المساعد الغريب من الخدمة السيئة ، وكان الفرنكفوتي وحده من يود البقاء في الحانة ، حيث أنه تورط بشكل ما مع النادلة وتودد إليها عدة مرات . وافق هانز على الذهاب ، وقد أثارت هذه الحادثة وكذلك البيرة أشياء غريبة في نفسه ، شعر بالسرور وهو يغادر الحانة الآن .

حينما دُفع الحساب وخرج الجميع إلى الشارع بدأ هانز يشعر بشيء من تأثير أقداح البيرة الثلاثة . كان شعوراً لذيذاً ، نصفه خدر ونصفه الآخر يميل إلى التوثب والانطلاق ، كذلك أحسّ وكأن غشاءً رقيقاً ارتسم أمام عينيه ، تتراءى له من خلاله كل الأشياء بعيدة وغير واقعية تقريباً ، مثلما يتراءى للنائم وهو في الحلم . كان يضحك باستمرار ، وتجرأ قليلاً في وضع قبعته بشكل تميل فيه أكثر على رأسه ، وبدا عليه مثل صبي نموذجي طروب . أخذ الفرانكفورتي يصفّر مرة أخرى بأسلوبه الجريء وهانز يحاول أن يضبط الإيقاع .

في حانة « شارفة أكة » كان الهدوء يخيم على المكان نوعاً ما . كان هناك بضعة فلاحين يحتسون من النبيذ الجديد . لم تتوفر بيرة البراميل ، وإنما في زجاجات فقط . على الفور نال كل واحد منهم وجبة طعامه . أراد المساعد الغريب أن يظهر نبله فطلب للجميع صحناً كبيراً من فطيرة التفاح . فجأة شعر هانز بجوع هائل وأخذ يلتهم القطعة تلو الأخرى ، كان الغسق والهدوء في الحانة القديمة البنية وقد خيما على الكنبات الجدارية المتينة الواسعة ، انغمرت البوفيه القديمة الطراز والموقد الضخم في شبه الظلام . فيما كان هناك عصفوران يرفرفان في قفص كبير من القضبان الخشبية ، وقد حُشر لهما بين القضبان غصن مليء بكرز الطيور الأحمر .

ظهر صاحب الحانة للحظة عند المائدة وحيّا الضيوف . مضت فترة من الوقت على ذلك حتى عاد الزبائن إلى أحاديثهم ثانية . ارتشف هانز بضع رشفات من زجاجة البيرة اللاذعة ، وهو يفكر فيما إذا كان بمقدوره أن يأتي على كامل محتويات الزجاجة . أخذ الفرانكفورتي يتحدث بحماس مرة أخرى عن مهرجانات الكروم في منطقة الراين وعن التجوال وحياة التسكّع ، استمتعوا بالإصغاء إليه ، وكان هانز لا يتوقف عن الضحك .

بغتة لاحظ هانز أن ثمة أمراً ليس على ما يرام يحدث له . في كل لحظة كانت الحجرة ، المائدة ، القناني ، الأقداح والزملاء تختلط وتتحول إلى سحابة شفافة بنية اللون ، وحينما يستجمع قواه بشدة تعود لتتخذ أشكالها الطبيعية من جديد . وكان بين الحين والآخر ، عندما تتصاعد حدة الحديث والضحكات ، يشارك بالضحك عالياً أو يقول شيئاً لينساه فيما بعد على الفور . حينما كانت الكؤوس ترفع بالأنخاب كان هانز يرفع كأسه هو الآخر ، وبعد ساعة دُهش عندما وجد أن كأسه فارغة .

« لقد تناولت جرعة جيدة » قال أوغست « أتريد زجاجة أخرى ؟ » ويومئ هانز برأسه ضاحكاً . لقد ظن بمثل حفلة الشرب هذه أن يكون أكثر خطورة . حينما بدأ الفرانكفورتي يترنم بأغنية تذكرها الجميع ، غنى هانز معهم أيضاً من كل أعماق حنجرته .

في هذه الأثناء امتلأ المكان ، وجاءت ابنة صاحب الحانة لتساعد النادلة في الخدمة . كانت فتاة طويلة ، جميلة ، ذات وجه ممتلئ متماسك ، وعينين هادئتين بنيتين . عندما وضعت أمام هانز زجاجة جديدة من البيرة انطلق المساعد الجالس إلى جانبه في الحال يصب كلمات غزله الرقيق في أذنها ، لكنها تجاهلته . لعلها أرادت أن تبدي عدم مبالاتها ، أو ربما لأنها أعجبت برأس الصبي الصغير فمالت إلى هانز ومسّدت بيدها سريعاً فوق شعره ؛ ثم عادت إلى البوفيه ثانية . راح المساعد الذي يحتسي كأسه الثالثة خلفها وبذل ما استطاع من جهد لكي يدخل في حديث معها ، لكنه لم يفلح . تطلعت إليه الفتاة

برزانة ، لم تردّ عليه وسرعان ما أدارت له ظهرها . عندئذ عاد إلى المائدة ، وأخذ ينقّر على قنينة البيرة وهتف بحماس مفاجئ : « أيها الأطفال ، نريد أن نمرح ، هيا ارفعوا الأنخاب! » وكان هانز لا يسمع إلا أصوات لغط مضطربة ، وحينما شارف على الانتهاء من زجاجته الثانية بدا له وقع الكلام وحتى الضحك ثقيلين . أراد الذهاب إلى قفص العصفورين ليداعبهما قليلاً ؛ لكنه أحسّ بالغثيان عند الخطوة الثانية وكاد أن يهوي على الأرض ، فعاد إلى المائدة بتأن وحذر .

ابتداءً من الآن أخذت حدة فرحه المسترسل تضعف أكثر فأكثر . كان يعلم بأنه قد ثمل ، ولم تعد حفلة الشراب تعني له شيئاً ، وكما لو أنه يتنبأ من مسافة بعيدة أدرك أن كل أنواع النحس ستكون بانتظاره : العودة إلى البيت ، ولقاؤه مع الأب الغاضب والذهاب مبكراً إلى الورشة ، وبشكل تدريجي أخذ يشعر بآلام الصداع أيضاً .

كذلك الآخرون فقد نالوا ما يكفي من الشراب والتعب . وفي لحظة صحو دفع أوغست الحساب وتسلم الشيء القليل مما تبقى منه . خرجوا إلى الشارع مثرثرين ضاحكين ، وضوء المساء الساطع يغشي أبصارهم . كان هانز يحس بصعوبة بالغة في الوقوف على قدميه ، لذا فقد أسند نفسه على أوغست الذي أخذ يجرجره معه . جاشت نفس القفّال الغريب بالعاطفة والشجن . غنّى « غداً سأرحل من هنا » واغرورقت عيناه بالدموع .

في الواقع أنهم قرروا العودة إلى البيت ، لكنهم حينما مرّوا من أمام الـ« شفان » اقترح المساعد الدخول إلى الحانة والاستمرار في الشرب . عند الباب انفصل عنهم هانز .

« يجب أن أعود إلى البيت » .

« أنت لا تقوى على الذهاب وحدك إطلاقاً » ضحك المساعد .

« كلا ، كلا . . يجب – أن أعود – إلى البيت » .

«على الأقل خذ قدحاً من الكحول أيها الصغير! سيعينك على الوقوف على قدميك وينظم معدتك . أجل ، سترى» .

لم يشعر هانز إلا وقدح صغير بين يديه . أُريق منه الكثير وتجرّع الباقي ، وأحسّ ببلعومه يستعر كالنار . هزّه غثيان ثقيل . نزل السلم وحده مترنحاً ، ووجد نفسه ، وهو لا يدري كيف ، خارجاً إلى القرية . كانت البيوت والأسيجة والحدائق تدور مائلة وتمر من أمامه باضطراب وتخبط . استلقى تحت شجرة تفاح في حقل رطب . كتلة من الأحاسيس المقرفة والمخاوف المعذّبة والأفكار المضطربة كانت تعيقه من الاستغراق في النوم . كان منظره قذراً ، مهيناً . كيف سيذهب إلى البيت ؟ ما الذي سيقوله للأب ؟ ماذا سيحل به غداً ؟ كان يبدو محطماً ، تعيساً ، كما لو أن عليه الآن أن يستريح إلى الأبد ، أن ينام ، أن يخجل من نفسه . كان الألم يمزق رأسه وعينيه ، لا قدرة لديه على النهوض ومواصلة سيره .

بغتة عاد إليه ، مثل موجة متأخرة عابرة ، شيء من فرح الماضي ؛ تقلصت سحنته ، وأنشد بينه وبين نفسه :

آه ، أيها القديس أوغسطين ،

أوغسطين ، أوغسطين .

آه ، أنت أيها القديس العزيز ،

لقد ضاع كل شيء .

لم يكد ينتهي من أغنيته حتى حزّ في داخله شيء ما مؤلم ، وعصفت به موجة ضبابية من التخيلات والذكريات الغامضة ، والخجل وتأنيب الذات . كان يئن بصوت عال ، ثم غاص في الحشائش وهو ينتحب .

عندما خيّم الظلام بعد ساعة من الوقت ، نهض وخطا خطوات متأرجحة مجهدة ، منحدراً إلى الأسفل .

غضب السيد جيبنرات أشد الغضب حينما لم يحضر ابنه على العشاء . وعندما أعلنت الساعة التاسعة وهانز لم يعد بعد ، هيأ الأب عصا صلبة لم تستخدم منذ فترة طويلة . لعل هذا الصبي يفكر بأنه قد كبر على عصا الطاعة الأبوية ؟ إذن ليهنئ نفسه حينما يعود إلى البيت! في الساعة العاشرة أوصد باب البيت . إذا كان هذا الابن المحترم يريد أن يهيم في الليالي ، ليرى إذن أين سينام ؟! .

بالرغم من ذلك لم يستطع الأب النوم ، وإنما كان ينتظر من ساعة إلى ساعة وغيظه يتضاعف باستمرار ، لعل يداً جافلة تمتد لتحرك المزلاج وتسحب الجرس . لقد تخيّل المشهد أمامه – سيرى هذا المتسكع ماذا ينتظره! ربما يكون هذا الشيطان قد ثمل ، لكنه سيفيق ، هذا الولد الخبيث البائس! حتى ولو هشم له جميع عظامه ضرباً .

أخيراً تغلب النوم عليه وعلى غضبه .

في ذات اللحظة كان هانز المُهدّد يندفع بارداً ، صامتاً ، هادئاً مع تيار النهر المظلم المنحدر أسفل الوادي ، تخلص الآن من القرف والخجل والمعاناة ، كان ليل الخريف البارد المائل إلى الزرقة يتطلع إلى جسده النحيل المنساب مع النهر ، والماء المُظلم يداعب يديه وشعره وشفتيه الشاحبتين . لم يشاهده أحد ، إن لم يكن قد شاهده كلب الماء الوديع الذي ينطلق مع الفجر بحثاً عن صيده ، فيتأمله بدهاء ثم ينزلق أمامه دون أن يحدث صوتاً . لم يعلم أحد أيضاً كيف سقط في النهر . ربما ضلّ طريقه وانزلق من مرتفع شديد الانحدار ؛ ربما أراد أن يشرب الماء وفقد توازنه ، وربما أغراه منظر الماء الجميل ومال يتطلع إليه ، وانعكست صور الليل وشحوب القمر بطمأنينته وسكونه العميق فدفعه التعب والخوف بتعسف هادئ إلى ظلال الموت .

عثر عليه أثناء النهار ، وتم نقله إلى البيت . كان على الأب المفزوع أن ينحي عصاه جانباً ويتخلص من غيظه المكتوم . وفي الحقيقة لم يبك ولم يكن وقع الحادث عليه كبيراً ، لكنه في الليلة التالية ظل مستيقظاً ،

يتطلع بين الحين والآخر من خلال فتحة الباب إلى ولده الساكن الذي أسجي فوق سرير نظيف وكأنه إنسان مميّز ويمتلك حقاً شرعياً في أن يكون له مستقبل آخر يختلف عن الآخرين . كانت هناك خدوش حمراء ضاربة إلى الزرقة على سطح جبينه ويديه ، وملامح وجهه الجميل ضائعة ، وفوق عينيه جفون بيضاء مسبله ، وفمه نصف المغلق تبدو عليه الطمأنينة والراحة ، ويكاد حتى أن يكون سعيداً . كانت هيئته تدل على أن الشاب قد تفتح ربيع عمره فجأة وحاد عن طريق مستقبله المشرق ، أما الأب فقد دفع هو أيضاً ما يكفي من التعب والحزن الموحش ثمناً لهذه المفارقة المضحكة .

اجتذبت مراسم الدفن عدداً كبيراً من عابري السبيل والفضوليين . ها هو ذا هانز مرة أخرى يصبح من ذوي الشهرة ، ومحط اهتمام الجميع ، ومرة أخرى يشارك المعلمون والناظر وقس البلدة في قدره . خرجوا جميعهم في معاطفهم الرسمية وقبعاتهم الاحتفالية ، رافقوا موكب الجنازة وتوقفوا للحظة عند القبر يتهامس بعضهم مع بعض . كانت الكآبة بادية بشكل خاص على مدرس اللاتينية ، قال له الناظر بصوت خافت : « أجل أيها السيد البروفيسور ، كان من الممكن أن يتمخض عنه شيء ما . أليس من المحزن أن تخيب الآمال دائماً في الجيدين من الناس بالذات ؟ » .

ظل الأسطة فلايغ مع الأب والعجوز « آنا » التي كانت تبكي بلا توقف واقفين عند القبر .

« أجل ، إنه لشيء مرير يا سيد جيبنرات » قال معزياً « كان الصبي عزيزاً عليّ أنا أيضاً » .

« لا يمكن استيعاب ذلك » تنهد جيبنرات « كان موهوباً ، وكل شيء على أحسن ما يرام ، المدرسة ، الامتحان ، ثم فجأة كارثة بعد أخرى! » .

أشار الاسكافي إلى المعاطف الرسمية المنسحبة خلال بوابة باحة

الكنيسة .

« بعض أولئك السادة الذين يسيرون هناك » قال بصوت واطئ :

« شاركوا أيضاً في وصوله إلى هذا المصير » .

« ماذا ؟ » انتفض الآخر وأخذ يحدق في وجه الاسكافي بدهشة وفزع « حقاً ، اللعنة كيف ذلك ؟ »

« كن هادئاً يا سيد جيبنرات . لقد عنيت ناظر المدرسة وحسب »

« ماذا ؟ كيف ؟ »

« آه ، لا شيء . ربما أنت وأنا أيضاً قد أهملنا أمر الصبي أحياناً ألا تظن ذلك ؟ » .

أطلت على البلدة الصغيرة سماء صافية مفرحة ، كان النهر يتلألأ في الوادي ، وجبال الصنوبر تغطيها زرقة شفافة رقيقة في الأفق المترامي الأطراف - ابتسم الاسكافي بحزن ، وتناول ذراع الرجل الذي جفل في زحمة الأفكار الغريبة المؤلمة لهذه الساعة ثم اتجه في حيرة صوب أعماق حياته الاعتيادية .

الفهرس

للمترجم

١- أغاني الغجر - الطبعة الأولى ١٩٧٩

الطبعة الثانية ١٩٨٦

٢- النزيل وأمله - بابلو نيرودا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨١

٣- المرج الضائع - رفائيل البرتي - مؤسسة الأبحاث العربية - ١٩٩٠

٤- فهرس مجلة « جمعية الاستشراق الألمانية - ترجمة وإعداد : قسم التراث العربي - الكويت - ١٩٩٠

يقول هرمان هسه عن روايته «تحت العجلة» وهي نتاجه البكر خلال سنوات نشأته الأدبية المحتدمة: «في تاريخ تطوّر وشخصية الفتى هانز جيبنرات.. لعبتُ إلى حد ما دور المُدين والمنتقد لكل تلك السلطات التي هزمت جيبنرات والتي كادت أن تهزمني شخصياً ذات مرة: المدرسة، الدين، التقاليد والسلطة». إذن، هنا يكمن الإشكال الذي تعامل معه هسه طيلة حياته: البحث عن القدرات البشرية وجوهر الفن في حقبة برجوازية معادية لها. أما توماس مان الذي كانت تربطه علاقات وثيقة مع هسه وقرأ جميع أعماله الأدبية فإنه قال عن هذه الرواية: «إن هذه الرواية الخجولة، الجريئة، الحالمة والذكية في آن مليئة بالموروثات والعلاقات الحميمة والذكريات والخصوصيات، إنها تخلو من كل تقليد. إنها ترتقي بالحزن إلى مستوى فكري، ثوري جديد؛ فكري ليس بالمعنى السياسي الاجتماعي المباشر، وإنما بالمعنى الروحي والشعري. إن أسلوباً حقيقياً صادقاً يعني رؤيا مستقبلية وتنبؤاً مستقبلياً».

ISBN:2-84305-503-X

9 782843 055034